روايات الهلال

كانت المُدُن ملوّنة

رجاء نعمة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٤٩٣ يناير سنة ١٩٩٠
جمادى الثانية ١٤١٠ هـ
NO · 493 jon · 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
والمدير العام
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

• الاشتراكات •

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وإلباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا :-

لبنان ٧٠٠ ليرة ، الاردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، الدوحة ٨ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٨٠٠ بيزة ، تونس ١٦٥٠ مليم ، غزة والضفة ١٥٠ سنت ، عدن ٢ دولار ، لندن ٧٥ر١ جك .

اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣ 13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس 92703 HILAL. U. N.

الغلاف بريشة الفنان .
حـلـمـى الـتـونـى

كانت المدن ملونة

بقلم

رجاء نعمة

دار الهلال

الجزء الاول

(١)

ورب ان المسائل لم تأخذ شاكلتها النهائية بعد . فهى غالبا ما تبدأ بسيطة ثم تتفاقم . هكذا مثل رغوة صابون اصابها جنون ، تنطلق من قطعة صغيرة جامدة ثم تأخذ بالتناثر حتى لتغشى البصر فلا يعرف ابن آدم الحال التى كانت عليها من قبل . ترى أكانت محكومة بالتفاهم أساسا أم ان لعنة اصابتها فنقلتها من يد البشر الى رحمة القدر ؟ هكذا دخلت طاحونة الاحداث منذ ان وصلتنى رسالة تلتها البرقية القائلة ضرورى عودتك الى لبنان على وجه السرعة. ورغم نصيحة الاصدقاء لى هناك بالتريث ، قدمت استقالتى من مركز الأبحاث . وما كان فى علمى أن الأمور ستدور على هذا النحو ، ولعل هذا النحو لم يكن أساسا فى خلد أحد .

حين هبطت الطائرة فى مطار بيروت ، بدا كلّ شىء عاديا فى محيط المدينة . لا اثر لأصوات القذائف أو الرصاص . كنا قد سمعنا هناك بان الحياة قد عادت الى مجراها الطبيعى أو تكاد وان الحرب قد شارفت على نهايتها وان السلام سيعم لبنان من جديد .. وخرجت من دوائر الجوازات فلفتنى أن أحدا لم يأت لاستقبالى سوى الأمين . كنت اعرف أن والدتى نفسها لن تأتى على اى حال ، بل ستنتظرنى كعادتها فى المنزل تضع فيه لمسات الاستقبال وتحضر ما يطيب لكن والدى أو عمى ... هل هذا معقول ! حين وردتنى تلك البرقية احتمالات كثيرة مقلقة ضربت فى رأسى ثم وجدتنى متلهفا لمعرفة السبب وقال الأمين :

ـ لا تقلق . الكل بخير .

وتلفت حولى وحوله باحثا عمن يصطحبه فقال :

ـ الظروف الأمنية ، لا تشجع كثيرا على الانتقال هذه الايام .

ثم ساعدنى فى وضع الحقائب وصناديق الكتب فى اضبارة السيارة وعلى ظهرها . سيارته ذاتها التى رايتها معه منذ سنتين آخر مرة جئت فيها الى لبنان . صعدنا وانطلقت بنا واستقبلتنا بيروت استقبالا عاديا وقال الأمين ان الاحوال هادئة منذ فترة وانهم يبشرون بعودة

الأمور الى نصابها وانها آخر مراحل الحرب ، قال هذا ونحن نعبر مستديرة المطار . لكنه بدل أن يسلك الطريق المؤدي الى البلدة ، تابع سيره باتجاه المدينة . ظننت أن لديه أشغالا يود انهائها . ظننت ذلك من طريقته في الانعطاف نحوي والسيارة تحاذي المستديرة . كأنه يعتذر مني . لم أعلق بشيء . كنت فهمت من الرسائل التي وصلتني من أمي أن الناس هذه الأيام لا يؤمون العاصمة سوى للدواعي الضرورة فينتهزون الفرصة لإنهاء الأشغال العالقة . وان احدا من أهلي لم ينزل الى بيروت منذ سنة تقريبا . لقد اوصدوا منزلنا بعارضات من حديد وبأقفال غليظة وكلفوا الجيران السهر عليه ، ورغم ذلك فضلت والدتي نقل ما خف حمله الى البلدة تحسبا لاقامة طويلة ، وقال الأمين ان والدي فرح بهذه العودة فهو على عهده في حب الزراعة وها هي الفرصة قد فرضت نفسها عليه فعاد يهتم بالارض ، يشرف عليها بنفسه وهو سعيد بذلك ، يقول ان هذا هو خياره الأخير . والأمين ماض في شرحه ، يتشعب في الحديث وفي التوغل بشوارع لا عهد لي بها . لم يتوغل فيها هكذا ، لو كنت مع سائق غريب لظننته يضللني ليلحق بي الأذى . لكني مع الأمين أسلمه الامر يتصرف كما تملي الظروف أو ترشده روحه العملية في اختصار الفائض من التفاصيل . نعم .

لابد أن يكون لهذا الدوران سبب ما ، أو لعلها الحرب . . . دروب كثيرة أقفلت وأجبرت الناس على تغيير وجهاتهم . الأمين يطمئنني بأن الاحوال هادئة وقد وجدناها هادئة بالفعل غير أن هذا لا يفسر شيئا ولا يشرح سبب البرقية تلك . الأمين يقول انهم وجدوا صعوبة بالغة في الاتصال بي وانه من ناحيته نزل الى بيروت مرات عدة فقيل له : الخطوط معطلة ، وبالطبع لا فائدة من الاتصال من البلدة نفسها لخطوطها مقطوعة منذ بدء الحرب الاهلية . كذلك قلما يحدث لهم أن يتصلوا بأحد للأسباب عينها . يبعثون لها برسائل مرة بالبريد ومرة مع المسافرين وتفعل هي الشيء ذاته . بعض الرسائل يضيع وبعضها الآخر يصل . بالهم كان مشغولا عليها في الآونة الأخيرة ، هكذا يقول الأمين ، اخبرته أني حاولت الاتصال بها من باريس ففهمت أنها قد غيرت مكان اقامتها ورقم الهاتف ، ولم تخطرني بهذا التغيير وانتهزت الفرصة لاذكر له اني قلقت عليهم بسبب البرقية ، فسكت ردحة من الوقت وقال بحذر :

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

لا تقلق . وبعد ثوان من الصمت اردف هكذا ، وبشيء من التردد قال :

ـ لن يكون في وسعنا الذهاب الى البلدة .

وقبل أن افتح فمي اساله آملا أن يجيبني بما يبدد دهشتي قال :

ـ سأخبرك بكل شيء وبكافة التفاصيل حال أن نصل .

غريب .. الى اين نصل ؟ وهممت بأن القي عليه سؤالي لكنه سبقني الى الكلام

ـ هنا في هذه العمارة .

نعم قال هذا . وبدا رغم التردد واثقا بما يقول . أوقف السيارة وبده ماتزال ممدودة في اتجاه احدى البنايات ووقع جملته يرن في اذني وتاكيده على انه سيشرح لي كل شيء حال نصل يزيدني حيرة. ثم رأيته يترجل من السيارة ودون أن يستشيرني راح ينزل الحقائب. وانا كففت عن التساؤل ورحت أنزلها معه ، اكتفي بمساعدته . أتحرك مثل آلة وليس في وسعي مخالفته الرأي طالما أنه يستمهلني حتى يحين الوقت الذي يفك لي فيه لغز الحكاية .

صعدنا درجات الطوابق . « الطابق السادس » ، قال الأمين وهو يلهث على السلم ، لا يوجد مصعد في العمارة . مثل محكوم بالأشغال الشاقة رحت أجرجر حقائبي والاغراض . حاول الاصدقاء في باريس أن يثنوني عن عزمي بأخذ كل شيء لكن القرار كان نهائيا وكنت معتمدا على وفرة المستقبلين هنا فلم آبه .. الأمين وصل قبلي الى الطابق السادس ثم عاد أدراجه يساعدني في حمل ما تبقى من أغراض حتى لما اصبحنا أمام الشقة المقصودة أخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب . كأنه يفتح باب بيته ! لن تكون هذه الشقة باترى ! صغيرة ونظيفة. ووجدتني أسأل الأمين عن ابنه سعد . قال انه نجح في سنته الثانية وهو يستعد لدخول الثالثة وبعد سنتين يصبح محاميا متدرجا وهكذا يتحقق حلم الاب والابن معا . كان قد استشارني بالمسألة خلال زيارتي السابقة للبنان فأخبرته بأن الأحوال قد تغيرت وأن الدخول في سلك المحاماة بات صعبا . قال : اتصالاته كثيرة ويمكنك أن تدبر له عملا في احد مكاتب الأصدقاء فوعدته خيرا . لعلها شقة سعد . وعدت اسأله عنه فأجابني انه بخير واردف : عسى أن تعجبك الشقة. سكن مؤقت انما للضرورة أحكام . قريب ! نعم وقال انه لضيق

الوقت استاجر لى اول مكان مناسب وقع عليه ريثما يجد حلا آخر . غريب ! يبحث فى الحلول قبل ان يعرض المشكلة . لشد ماتغير الامين اما عهدته هكذا ابدا . عرفته مباشرا يدخل فى صلب المسالة دون لف او دوران . والمشكلة تتبسط عنده مهما كبرت . وغالبا ما يحولها الى فكاهة تثير الضحك ويضحك لها اول من يضحك صاحبها بالذات . ويظل يضحكه ويمازحه حتى تنحل بين العبث والمزاح عقدة بدت لتوها مستعصية ، عندئذ فقط يستعيد الامين جديته فيضرب بيده على طاولة او شيء آخر ويقول : الان دعنا من المزاح ولنر ما يمكننا فعله . لكل مسالة عنده حل . وغالبا ما يجد الحل . وها هو الآن يبدو مثل شخص آخر . جلست على الكنبة استجمع شتات افكارى . وضربت فى راسى فكرة . ضربتها جملته « للضرورة احكام » هل دار على والدى ذاك الدولاب القاهر فضيع ثروته ؟ ثم اجتاحنى احساس اشد مرارة من فقدان الثروة. ذاك الذى كان ينتابنى ابان مراهقتى حين كنت اصحو من النوم عصرا بعد القيلولة ، بانى لست ابن العائلة السعيدة هذه وانى لابد غريب تخلى عنه ذووه او حلت بهم كارثة فالتجا الى هؤلاء الناس .. وهذا الامين يبدو وجهه على غير عادته . كانه لا مبالى بامرى ، او لعلى اتخيل اشياء ! الثقة بالنفس ذاتها وهذا الاصرار . انما اللامبالاة! لشد ما تغير الامين ! لعل المشاعر قد ولت وبقى الدور . الدور ذاته الذى يقوم به منذ ان تفتحت على الحياة . وارتسمت فى ذهنى تساؤلات حول شخصية الامين . هكذا بشكل مفاجىء ولاول مرة رحت اسال نفسى من هو هذا الامين وما هو دوره فى حياتنا ولم هو مرتبط بنا هكذا ؟ لكنه لم يدعنى استسلم لترهات افكارى بل بادرنى هكذا وبشكل مفاجىء رمانى بتلك العبارة القاهرة :

ـ اسمع . حدث ما كنا نخشاه . كنت معتمدا على حدسك لتفهم .

البطاش خرج من السجن وعاد الى البلدة .

البطاش عاد الى البلدة معقول ! هكذا افلت السؤال منى وانا فى حقيقة الامر لا انتظر منه جوابا . فالجواب من تلقاء نفسه ضرب كالسوط فى راسى وابتسامة لاحت على وجه الامين ، وانا فى ذاك الوضع الملتبس لا اميز ان كانت الابتسامة سخرية ام اشفاقا ، الامين يكتفى بهذا التعبير تاركا لى مهمة الاستدراك بان السجون قد فتحت ابوابها منذ بدء الحرب الاهلية وان البطاش قد هرب منها

مع من هرب . صحيح انه قد تأخر فى الوصول الى البلدة ، لا ادرى اية جهة عادت واعتقلته . الا انه عاد اليها أخيرا . وها هو قد وصل! كان هذا حلمه منذ البدء . لكن ، ما شأنى انا بالبطاش ؟ وقد سمعنى الامين دون شك حين افلت منى هذا السؤال : ما شأنى بالبطاش ؟ سمعنى بالتأكيد فلم يعلق بشيء . ادرك أن القصد ليس فى السؤال . بل الدفاع عن النفس هو القصد . ونظرت اليه فرأيته مشـــفقا دون التباس . واضح انه يشفق على فهو يعرف انى أعرف من هـو البطاش .

من هو البطاش ؟ الا تعرف من هو البطاش ؟
ــ اعرف من هو لكن لابد من القاء الضوء على المسألة برمتهـا .
واضح كل شيء . قال :
ــ قاتل سارق ومعتد وله عندنا فى شخصك ثار قديم .
ــ لم لا نعقد معه الصلح اذن ونخلص من شره .
ــ نعقد الصلح ؟
ــ نعم .
ــ يبدو انك رغم كل شيء لا تعرف البطاش .
يقول هذا ويشير الى بسبابته . ثم وبخبطته المعتادة من كفه على صدره يقول : انا أعرف البطاش . اسألنى عنه اخبرك من هو .
ــ والحل ؟
تريث ثم قال :
ــ ننتظر ونرى ما سيحدث .
وقال :
ــ امكث هنا حتى نجد حلا آخر ولا تسرف فى التجوال .
وكاد يمضي فى سبيله ، لكنه استدار وقال :
ــ على فكرة .. فتحت لك حسابا فى البنك ، والدك كلفنى بذلك .
واليك بهذا المبلغ ارسله لك . ستحتاجه بالتأكيد . لكن احذر الطرقات . وفر تنقلاتك لدواعى الضرورة . البنك . الطبيب . لا قدر الله . أو شيء من هذا القبيل . لكن لابد من التمويه .
ــ التمويه !
ــ نعم . اجراء تعديلات على الهيئة والهندام حتى لا ينكشف الأمر .
ــ وماذا ترانى فاعل ؟ ألبس ثياب البربارة أم اضع على وجهى قناع ديك ؟
ــ لا ، قال غير آبه بسخريتى . تعديلات بسيطة لكنهـا ضرورية لحية طليقة . نظارات . لكن اياك أن تبالغ فى التنكر فتلفت الانظار .
يقول هذا بالكلام وباشارات من يديه . مثل مخرج سينمائى يعطى التعليمات لاخصائى الماكياج .

حين وردتني البرقيـــة تلـك . أفكـــار شـــتى مقلقـــة خطرت في بالي ، لكن حكـــاية البطـــاش هذه .. لا . اذا كان البطاش يطلب رأسي أفلم يكن من الأجدى لي البقاء هناك بدل الرجوع الى لبنان ؟

ــ لا . فالعثور عليك هناك أيسر من اكتشاف وجودك هنـــا والتصفيات نسمع بها كل يوم وها هو قد بدأ يعد العدة .

ــ أية عدة ؟

ــ السفر الى باريس وأخذ الثأر القديم .

ــ ما هذا الكلام ؟

ــ نعم وهو يجهز حملته

ــ حملته وهل هو قائد حرب ؟

ــ لا بل هو طالب ثأر .

ــ ظننته انشغل بشيء آخر ونسي ثأره .

ــ لا أحد ينسى ثأره . وها هو يتحضر لتنفيذ الخطة .

ــ أأكيد أنت لما تقول ؟

ــ بالطبع أكيد .

ــ وما هي خطته ؟

ــ أن يثأر لنفسه من عائلتك . وتعلم انه قد اختارك أنت لهذا الثأر .

ــ نعم . سبق وأعلمتموني بهذا

ــ وهو الآن يتعاون مع جهة نافذة تسهلّ له العملية .

ــ من تكون هذه الجهة يا ترى ؟

ــ الجهات المعنية بنقل السلاح وتدبير الجوازات لا تحصى هذه الأيام .

ــ السلاح ؟

ــ نعم .

ثم ناولني دفتر البنك والنقود . كنت مأخوذا بما يجري فلم يتسن لي أن أستزيده . وقال أنه من الضروري أن يرجع قبل حلول المغيب . فالعصر هذه الايام هو الحد الفاصل بين الخطر والامان . وانه من الحكمة الا يأتي احد من العائلة الى مكان اقامتي هنا فوجودهم يثير الشبهة ، اما وجوده هو فشيء آخر . استأذنني ، نهض وفتح الباب ثم ودعني وخرج . وسمعت وقع أقدامه على السلم . خطوات قوية ثابتة ومنتظمة ما لبثت أن تباعدت . وتناهى الى مسمعي هدير سيارته وهي تستعد للانطلاق . اغلقت باب الشقة وعدت الى الكنبة

افكر بهذه الورطة التى لم تخطر فى بالى حين وردتنى تلك البرقية الغائلة « ضرورى عودتك الى لبنان »

تلك حكاية عرفتها منذ أن اصبحت يافعا . صارحونى بها وكان البطاش خارجا من سجن ، جاء والدى ومعه عمى واستدعياني الى الصالون المنفرد . جلس عمى بجانبى وسحب والدى المقعد من مكانه ليجلس قبالتنا . ثم اغلقا الباب وعاملانى معاملة ضيف واحسست بهيبة الموقف . وجىء بالعصير وقدم ليس كما يقدم عادة بل كما يقدم لزائر ، لا ادرى لم تصرفا على هذا النحو ! ثم وقبل ان يقصا على الحكاية بادرنى عمى بالقول اصبحت الان فى السن الذى يخولك تحمل المسئولية . اية مسئولية! ثم ربت على كتفى وقال : تشجع . وقال والدى : احترس وتنبه لتنقلاتك وعلاقاتك بمن لا تعرف فانت مقبل على مرحلة جامعية ويمكنك أن تلقى هناك ما هب ودب . حاذر الغرباء حتى تطمئن اليهم .

ولما خرجنا من الصالون تلقفتنى أمى وبدت مشفقة . احتضنتنى وقبلتنى ولم تبك ، لكنها بدت على وشك البكاء . قالت : تكاد تكون رجلا وآن لك أن تعرف كل شيء ، وقلت فى نفسى : ليتنى لم اعرف شيئا . وأختى رغم حداثة سنها بدت مدركة خطورة الموقف . تحاذر ان يقع بصرها فى بصرى . ظلت هكذا مدة من الزمن كأن أمرا مخجلا يحول بينى وبينها . ثم جاء الأمين ودعانى الى نزهة فى السيارة . أخذنى الى المزرعة وحدثنى بالمشاريع التى يحلم والدى بتحقيقها وقال : ستكبر وتصبح مسئولا عن كل هذا ، وان كنت تطمح لشيء آخر فالافاق متاحة . وأتى على ذكر المسألة . لأول مرة حدثنى حديث رجل لرجل . لكن أحدا لم يفاتحنى بالمسألة بعد ذلك كأنها تعنيهم ولا تعنينى . اسمعهم يتوقعون اخبار البطاش بمنأى عنى فادرك انهم ينتظرون شيئا . عشتها هكذا فترة قلقة ثم وبعد ذلك لم نعد نسمع شيئا عن البطاش ، ولم يعد أحد منهم يشير الى المسألة بشيء كأنها كابوس ألم بالعائلة ومضى ، حتى أصبح يخيل لى انى غلطان وانهم لم يصارحونى بشيء وان القضية لم تكن سوى وهم . أو حكاية انتهيت الى تصديقها لكثرة ما ترددت فى خاطرى .

واكاد اسخر من نفسى وتلك الفترة القاتمة وذاك الخوف والهم الثقيل . قلت لعلها من سخريات الأقدار أن تكون للحرب هذه فوائد، كثيرة من الاشقياء شغل بما استجد من أحداث نسى القديم منها . ولعل البطاش واحد من هؤلاء قد اخذ بالجديد حتى اغفل الثار القديم . ثم حالفنى الحظ وادخل البطاش ثانية الى السجن ونعمت انا بحياة جامعية رغيدة وحرة بمنأى من الخوف والمطاردة من ذاك

الشقى الذى يزعم اشياء ... وفهمت انهم لم يكشفوا لى عن كل الحقيقة . وتجنبت احراجهم فتظاهرت بالاقتناع بان ما قيل هو كل الحقيقة . واوصونى بالحرص والكتمان فانا المطلوب والطالب خرج لى من باطن الارض كجنى يهدد باختطافى . دخل السجن وخرج منه مرات عدة . متهما بجرائم وحوادث قتل ونهب . حياته اشبه بالافلام . مثل « باتى وكلايد » ، لكم كرهت هذا الفيلم واحبه الاصدقاء وتحدثوا به . نعم . فحياتهم آمنة يدهشهم الفيلم ولا يشعرون بشىء. اما انا . وحياتى مهددة من شخص كهذين الشقيين فلم احبه . ولما فتحت السجون ابوابها لقيت ابى وعمى مضطربين ولم يهدأ الا حين اخبرا بان جهة نافذة عادت والقت القبض عليه . وها هو الامين يستقبلنى بذاك النبأ الصاعق ! ويقول ان البطاش بعد العدة وانه كاد يبلغ مأربه هناك لولا انهم سارعوا فى ارسال البرقية وسارعت انا فى العودة . هكذا كان سيكمن لى خلف مدخل العمارة فى ذاك الحى الباريسى يعاجلنى ... برصاص مسدس او رشاش ثم يلوذ بالفرار . ويذكر التليفزيون الحادثة ويصعق الاصدقاء لها هناك .. عشت معهم سنوات ودعوتهم الى لبنان اكثر من مرة لكن الظروف لم تسمح . حدثتهم عن لبنان واخبرتهم عن حياتنا حكايات ووصفت لهم مراحل حياتى مرحلة مرحلة . طفولتى والبحر ، الشباب وايام الجامعة وشلة الهم موسى . حتى انهم اصبحوا يعرفون رفاق الشلة كلا بمفرده ويسالوننى عنهم ، واذا ما تباعدت الاخبار كانوا مثلى يقلقون . نعم حدثتهم بكل هذا لكن حكاية البطاش هذه لا احد منهم يعرف عنها شيئا . سر مدفون فى خاطر ذاكرة تركتها ورحلت . واذا بالبطاش يخرج مجددا من الاعتقال وبعد العدة وجهة ما نافذة تساعده والسفر كما يقول الامين لم يعد مشكلة والتصفيات هناك نسمع بها كل يوم . لهذا يبدو مشفقا ويسلم على بتلك الطريقة ! لم ياخذنى فى احضانه ولم يقبلنى كما فى السابق ولم ينظر الى بتلك الدهشة ويقول : هالله هالله يادنيا.لا. لم يفعل شيئا من هذا ، وتلك ليست لا مبالاة كما خيل لى . بل لعله الخجل الذى يفصح عن نفسه بهذه الطريقة ، يخجلهم ان تكون حياتى مهددة بسببهم وانا برىء ، ويربت كتفى . يفعل هذا ليشجعنى ! ادعو لك بالتوفيق يقول هى شدة وتنقضى كما انقضت غيرها . اوافيك بالاخبار كلما سنحت الفرصة . مبدئيا كل اسبوع. لنقل الاربعاء . لكن حاذر الطرقات والتنقلات . اشياء كثيرة تغيرت عما كنا نعهدها فى السابق . يقولها بقناعتى وقناعته معا . نعم لشد ما تغيرت الاشياء !

افقت على اصوات فى الخارج . اصوات غريبة لا تشبه تلك التى كنت اسمعها فى بيروت او البلدة . ولا هى بالاصوات التى اعتدت سماعها فى باريس حين استيقظ صباحا • نظرت فى المكان حولى ، انها الشقة الجديدة التى منذ البارحة أصبحت شقتى • كراس وطاولة صغيرة وكنبات فى الصالة وحقائب لم أفتحها بعد • وهنا غرفة نوم• وتذكرت •• البارحة حين غادرنى الامين أدركت وحدتى فى هذا المكان الذى لا يشبه فى شىء تصوراتى لما كان ينتظرنى فى عودتى الى بيت اهلى . أشياء كثيرة لا يمكننى حصرها لكنى افتقدها . مسار عادى لامور ليس لها طابع صارخ لكنها تمنحنى سلاما داخليا ومذاقا لاأعهده سوى هناك • تذكرت وانا أتأمل جدران الغرفة الجرداء ذاك الشعور المقيت الذى وقعت فريسته البارحة بأنى لست ابن العائلة السعيدة تلك • ويبدو أنى قد غطيت فى النوم على الكنبة • المفاجأة والارهاق فعلا فعلهما . . وربما اخذتنى الاغفاءة ساعة او أكثر أفقت بعدها وأنا اقول : ها قد وصلت الى بيروت وتلك حقائبى وكتبى • كل شىء كما كان مع الفارق بأن البرنامج قد تغير • تلك هى المسألة • نعم • ثم ولكى أستعيد صفاء ذهنى دخلت الحمام . قلت لعل الماء البارد ينعش الجسم والافكار • وحين خرجت كان الوقت مساء • الشمس انحنت نهائيا وراء العمارات المكتظة • آويت الى ذلك الفراش الذى لا أعرفه • الملاءات نظيفة ومرتبة . لابد أن يدا أمينة قد وضعتها هى يد تلك المرأة التى اخبرنى الامين فيما أخبرنى انها ستأتى الى من حين لاخر لتهتم بشئون البيت • واضح أن كل شىء قد أعد سلفا لاقامتى • أزعجتنى الترتيبات هذه وحساب البنك وتعليمات للضرورة • وصورة الامين فى خاطرى وهو يتناول مفتاح الشقة من جيبه . كأنه يفتح باب بيته! كنت منزعجا من كل هذا • ودون أن آكل شيئا آويت الى السرير مستسلما لنوم عميق •

وأيقظتنى تلك الاصوات • جلبة ما وتصايح أولاد وكلام نسوة فيما بينهن ورجال كأنهم يصدرون اوامر . وسمعتهم يتكلمون عن الماء . وبالفعل سمعت خرير ماء .

رحت الى النافذة أستطلع ما يجرى تحت ، فرأيت جمعا من الناس منهمكا بتعبئة الماء من خرطوم كاوتشوك • أولاد يتدافعون ويتصايحون

النسوة يأخذن اماكن لهن بالدور وشابان مسلحان يحاولان تنظيم الامور .

نزلت على عجل . قيل لى : الماء ستقطع والكهرباء ايضا . اليوم او غدا وسيجرى تحويلها الى مناطق أخرى . بعض المحولات الرئيسية تعطلت بفعل القصف . لذا يلجئون الى التقنين . وقيل لى : عليك ان تستعد لهذا .

اشتريت صفيحتى بلاستيك والتحقت بالناس انتظر دورى لتعبئتهما . لم يزعجنى الانتظار . ورايتنى اتخلى عن دورى فى الصف لاكثر من سيدة . لكنى احسست بالانظار تتجه صوبى . واضح انهم يعرفون انى غريب تقدم منى احد المسلحين اللذين كانا ينظمان توزيع الماء وسلم على مرحبا أهلا بك عندنا . قال . كنت خجلا ومحرجا. لعلى الغريب الوحيد بينهم . واسعدنى لطفه ودغدغ حنينى لهذا البلد وقال لى الشاب : لا تنسى شراء الشموع . الكهرباء ستنقطع عن حينا الليلة . شكرته ورحت أملأ الماء . وخيل لى ان الذى يفعل هذا شخص آخر أراه وأراقبه وهو يحمل الصفيحتين واشعر لا أدرى لماذا بأن الموقف كله مصطنع . أول من أمس فقط كنت اقف فى الصف فى مخبز الحى فى باريس ، وها أنا انضم الى هؤلاء الناس المجتمعين الذين لا أعرفهم . أشاركهم عادات استثنائية . ومع ذلك لم أكن متزعجا . احساس عابر استوقفنى ومضى تاركا لى نوعا من الحرج . ومضيت أحمل الصفيحتين وأحث الخطى لاتفادى النظرات التى تلاحقنى قبل أن أغيب فى مدخل العمارة .

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة حين انتهيت من شراء حاجياتى فى الدكان اسدى لى بعض الزبائن بنصائح مفيدة لاقامتى . اولئك ايضا يعرفون انى غريب . كاننا لسنا فى مدينة بل فى قرية . لم أكن أتصور انه فى مدينة مثل بيروت يمكن أن تكتشف هوية الاشخاص سريعا . أفهم الآن لم اتخذ الامين كل هذه الحيطة فاستأجر الشقة باسمه وابتكر لى اسما للتمويه أعطاه لصاحب العمارة . قال لى احد الواقفين ان شراء بطارية جيب صغيرة أمر محمود . وانه من ناحيته يضعها تحت مخدته أو على الطاولة قرب السرير ، حتى اذا قام ليلا ، والكهرباء مقطوعة استعملها لحين اضاءة الشمعة أو المصباح . كما انه يضيء بها ظلمة السلم . قلت له انى قلما انهض من سريرى ليلا وكلت أضيف أشياء لكنى فضلت الحيطة وسكت . ضحك وقال: هذه الايام ستنهض كثيرا يا بنى وستضطر حتما للنزول فى الليل . لعلك لست من هنا ؟ أخبرته أنى كنت مسافرا . هز رأسه وقال : ؟ فهمت .

وتدخل فتى صغير ليقول ؟
ـ قلو يابابا يشترك قنينة غاز احتياطى .
ضحك الرجل وقال وهو يداعب راس الولد :
ـ أولادنا أصبحوا يتحسبون للطوارىء مثلنا . يا لهؤلاء الصغار المساكين !

لا أدرى لم بدت لى حياة هؤلاء الناس أشبه بلعب الاطفـــال منها بالحياة العادية . غاز وشموع وكبريت وتفاصيل دقيقة لا تخطر فى بال .. لو حكيت لاصدقائى فى باريس . ما يحدث لى الان لادهشتهم يجدر بى تسجيل يومياتى . تلك تجربة فريدة ! اكره كتابة المذكرات لكنها قد تكون وسيلة مفيدة لتزجية الوقت هنا . كم من الـــوقت سابقى هنا ؟

وسألت البائع ان يعطينى خبزا فاجابنى باقتضاب « فى الفرن » البائع نفسه لا يبدو لطيفا مثل الزبائن . تدخل احدهم كانما ليلطف الجو فقال : لا يوجد خبز هذه الايام ! الا فى الافران . تفحصـــنى البعض بنظرات فضولية وكان ما طلبته من البائع ليس خبزا بل دواء لا يباع سوى فى الصيدليات . قلت للرجل مدافعا عن اغفالى الواقع الجديد : اعتدنا شراء الخبز من الدكاكين والسوبر ماركت . أجابنى باقتضاب : لكنهم فرضوا تقنينا على الخبز فأصبح لا يبـــاع الا فى الافران . سألته عن أقرب فرن : ثانى مفـــرق على اليمين قال . آخر الشارع بعد الزاوية . شكرت الرجل وانصرفت باتجاه الفرن .

طالعنى صف طويل من الواقفين فى الشارع . صف غير منتظم . حشرت الخطى وكلما تقدمت ازداد الصف لخبطة . واضح انهم ينتظرون شيئا . ثم تبين لى ان هؤلاء الواقفين انما ينتظرون دورهم لشراء الخبز لكم تغيرت اشياء ! تقدمت وتجاورت الصف من باب الفضـــول . الناس يتدافعون . فى الداخل ، يحاول صاحب الفرن وعماله تنظيم الفوضى وتلبيه الطلبات . يساعدهم فى ذلك بعض المسلحين ويطلبون من الواقفين ابراز بطاقات التموين ويصيح أحدهم : ربطـة واحـدة لحامل البطاقة . وتلوح فى الفضاء ايصالات بيضاء صغيرة .

ويحتج البعض كيف انه لم يتمكن من الحصول عليها . والمسلح يطمئن المحتجين بان مركز الخدمات الاجتماعية يظل مفتـوحا طيلة النهار وان المسئولين هنا لا يألون الجهد فى مساعدة الناس وانه لابد من الذهاب الى المركز . أين يقع هذا المركز ؟ والمسلح يشرح لهم عن مكان قريب . وانا عدت الى البيت قلت أتدبر أمرى كيفما اتفق وغدا افكر بالمسألة .

كانت الساعة الثامنة مساء وكنت مستغرقا في القراءة حين رن جرس الباب . كنت ماخوذا بقصة ممتعة لخوليو كورتزير أعيدقراءتها تحكي عن سيدة بسيطة تعمل محاضنة أطفال استدعتها عائلة بورجوازية للازمة كلب البيت . انه حقا لكاتب مبدع ! كيف يبتدع الفنانون مثل هذه العوالم الفريدة ! أيفعلون تلك قياساً بواقع عرفوه أم يبتكرونه من بنات الخيال ؟

أستغربت أن يطرق الباب طارق في هذه الساعة ولا أعرف أحدا هنا. هل على التشدد في الحيطة؟ الامين قال لا تكثر من التجوال لكنه لم يحذرني من الاحتكاك بالناس . تطلعت من المنظار وفتحت . انهما الشابان اللذان كانا ينظمان توزيع الخبز يرتديان اللباس العسكري. لم أستغرب ذلك فالعديد من شبان الاحياء منذ بدء الحرب يرتدون ملابس مثل هذه وقد ألفت رؤيتهم قبل سفري وخلال المرات العديدة التي رجعت فيها الى لبنان . هيأتهما وسلوكهما ينمان عن تهذيب جم أحدهما يحمل ربطة خبز ناولني اياها وقال :

ـ لا يجوز أن نترك ضيفنا بدون خبز . تفضل .

شكرتهما وقلت لهما أني رجل ويمكنني تدبر الامر وانه يسعدني أن يوفرا الجهد لمن هم أحوج مني اليه فقال الاول :

ـ لا تقلق . الكل ياخذ حقه هنا .

وأردف الثاني :

ـ لا تتردد في طلب أية خدمة . نحن هنا لمساعدة الناس وتنظيم شئون الحي . ثم سكت وبعد هنيهة أضاف :

ـ يسعدنا وجود أشخاص مثقفين من أمثالك بيننا .

شكرتهما ودعوتهما للدخول فاعتذرا مؤكدين على انهما سيحضران لزيارتي في وقت آخر . وأحسست بشيء من الضيق أن يضعاني هكذا وبسرعة في اطار الصورة التي يمكنها التعريف بي .

كان ذلك مساء الاربعاء حين آويت الى فراشي منطفىء العزم بعد ان انتظرت الامين النهار باكمله ولم يات . امضيت يوما حائرا افتح كتابا ثم اغلقه . اقف امام رف الكتب اطالع عناوين الفتها ثم اذهب الى النافذة او اصيخ السمع لوقع الاقدام على السلم . وظللت هكذا قارب الوقت العصر فينست من مجيئه ورحت أرتب كتبي واتصفح بعضا منها . وفي المساء داهمني ذاك الاكتئاب فأخلدت الى سريري ونمت في نوم ثقيل .

لا أدري كم من الوقت مضى قبل أن تبدأ تلك الجلبة . ضجيج واصوات متفرقة كأنها تصلني من عالم بعيد . وتراءت لي ساحة حرب ترابية والناس فيها يتبارزون من على ظهر الجياد وبعضهم كما في الافلام يسقط أرضا . واذا بي أرى الامين ممتطيا جوادا بنيا أصيلا يجوب به الساحة مستعدا للمبارزة . لكنه يحمل بدل السيف رشاشا الجواد يضرب الارض بحوافره القوية وينثر ترابا وغبارا يغشى وجهه وفجاة بدا لي ان الساحة قد خلت الا من الامين وشخص اخر وهتفت : انه البطاش .

ورأيت الناس يتجمهرون حول الحلبة يصفقون للامين الذي رفع رشاشه وأفرغ طلقات في الفضاء . قلت هي أصول اللعبة . لكن الرجل الآخر ظل يدور في الميدان والامين يدور معه كأنهما يلعبان في مدينة الملاهي واصوات الرصاص تلعلع في الفضاء .

ادركت وانا افيق من النوم أن الكابوس ليس بكابوس خالص . أصوات رصاص آخذة شيئا فشيئا بالاقتراب وهدير قصف . مدافع او صواريخ لا أدري . الغرفة ترتج والعمارة تدب دبيبا كأنها تتصدع أو هكذا خيل الي . استعجلت الخروج من الشقة مستطلعا ما يجري في الخارج . الجلبة التي سمعتها في المنام جلبة حقيقية وسكان العمارة اخذون بمغادرة بيوتهم . امرأة تخطف درجات السلم خطفا ، تحدث نفسها تقول : خرقوا الهدنة . أكيد انهم خرقوها .

ورأيت سكان المبنى يغادرون بيوتهم والبعض يحمل بطارية يضيء بها ظلمة السلم . أضواء البطاريات تتداخل . الرجال يحملون الاطفال ويسارعون في النزول تلحق بهم النسوة والاولاد . بعض النسوة

يحملن أطفالهن أيضا والرجال يعرضون خدماتهم • وسمعتهم يتحدثون عن الملجأ (*) . لا شك فى انهم يقصدون ملجأ ما . والصغار يستطلعون الامر يسألون أهلهم ويلحون فى الاسئلة وأولئك يجيبون : قصف • قصف كالعادة • لا داعى للخوف • نبقى في الملجأ الى أن يهدأ القصف

وصلنا الى الطابق السفلى وبدل أن نخرج من الباب الرئيسى تابعنا النزول • الملجأ ليس ضيقا تماما لكنه غير فسيح وقفت بمحاذاة الباب فدعانى رجل للدخول فدخلت • امراة كانت تحمل طفلتهـا فرشـت غطاء فوق حصير وأسندت المخدة الى الحائط • اقترب منها رجل شاب يحمل صبيا اكبر من الفتاة • واضح انه زوجها • أجلس الولدين على الغطاء وجلس هو وزوجته قربهما • ثم قال للصبى .: حاول أن تنام • ثم قرب اختك . قال ذلك وغطى الولدين بغطاء يحمله . أزاح الولد الغطاء عن جسمه ثم اعتدل فى جلسته وبدأ متأففا • لم يكن صـاحيا تماما • كان يتباكى وهو يقول : قلت لكم ألف مرة ما بحب الملجأ • اتركونى أطلع عالبيت •

ثم أخذ يضرب الارض بقدميه ويبكي • أفاقت الفتـاة على بـكاء أخيها لكنها عادت الى النوم من جديد • ألقت عليه نظرة زائغة ثم عادت تغمض عينيها رغم عنف القصف • سمعت كلاما فالتفت • رجل متقدم فى السن يقف بجانبى يكلمنى :

ـ لا تقلق ، قال : اعتدنا أكثر من هذا •

يقول هذا ويبتسم ليطمئننى . يقدر طبعا معنى أن أكون غريبا. الآن. كثيرون فى الملجأ كانوا من حين لآخر رغم انشغالهم بالقصف ، ينظرون الى تلك النظرات ! لا شك انهم يستغربون قدومى اليهم فى ظروف مثل هذه • وسألت الرجل الذى عرفنى بنفسـه ، اسـمه أبو سليمان ، سألته ان كانوا ينزلون غالبا الى الملجأ .

ـ أحيانا كل يوم • وبعض الاحيان تمر أسابيع أو أشهر لا ننزل فيها • يبدو أنهم خرقوا الهدنة •• وما كان أحد يتوقع ذلك • خمسة أسابيع بالتحديد ، قال • بعض الاحيان تدوم ساعات وأحيانا تصمد

لم يكمل الرجل جملته . قذيفة على ما يبدو سقطت فى مكان غير بعيد . من ناحيتى شعرت أن المبنى يميل نحو اليسـار . لكن الرجل أشار بسبابته الى الجهة اليمنى . ثم سحب نفسا عميقا ليقول :

ـ من هنا • لابد أنها وقعت هنا •

وعاد الولد يضرب الارض بقدميه ويقول لابيه :

(*) الملجأ

ـ بدى أطلع عالبيت ، قلتلك ألف مرة ما بحب أنام بالملجا • بدى أطلع لفوق • بالملجأ فى قصف •

ـ أسكت • قال الوالد الشاب للطفل ، هلق بعد شوية منطلع كلنا لفوق ، بس لما يهدأ القصف •

ويبدو أن الولد لم يقتنع • ظل يلح على والده أن يأخذه لفوق • وتدخلت أمه تكلمه همسا وبدا صبرها نافدا قبل بدء الكلام • سمعتها كأنها تهدده بمصـــير شخص يعرفه تبين لى فيما بعد أن اسمه عمـو سامى :

ـ يا حرام عمو سامى • اذا طلعنا لفوق بيصيبنـــا الشى ذاتو • خلينا هون أحسن ما يصيبنا الشى ذاتو •

واعترضها الولد بالقول :

ـ بس عمو سامى ما انقطع راسو • صحيح انقطع راسو ياماما ؟

ـ لا • مات • بس راسو ما انقطع •

ـ انقطعت عينو ؟

ـ لا • ما انقطعت عينو •

وقلتلك ما بيقولو انقطعت عينو •

ـ بس بيقولو انقطع راسو ؟

ـ اسكت خالص •

ـ طيب ، كيف مات عمو سامى ؟

ـ مات من القصف • قلت لك مات من القصف • أسكت خلص •

ـ يعنى كيف مات من القصف • يعنى هلق يا ماما نحن كمان رح نموت من القصف ؟

ـ لا يا حبيبى • ما تقول هيك • الله لا يقدر • الله يبعد الشر• عمو سامى مات لانو ما نزل عالملجأ • وقع عليه الصاروخ •

ـ كل الصاروخ ؟ الصاروخ كلو يا ماما وقع عليه ؟

ـ لا مش كلو • شظية صغيرة بس • اسـكت يا حبيبى • وطى صوتك عيب علشان الناس • عيب •

ـ ليش يا ماما يعنى عيب الواحد يوقع عليه الصاروخ ؟

ـ لا مش عيب • بعدين بفهمك • أسكت هلق • نام •

ـ بس عمو سامى ما كان عندو ملجا ؟

ـ لا ما كان عندو ملجأ • علشان هيك مات •

ـ يعنى كل الناس اللى ما عندهم ملجا رح يموتوا •

ـ بعيد الشر . ان شاء الله ما بيموتوا . الله يحميهم ويحمينا ويحمي كل الناس الكويسين .

ـ طيب ليش الله ما حمى عمو سامي . يعني عو عمو سامي ما كان كويس ؟

نفد صبر الرجل الذى بدا خائفا اكثر من زوجته . عيناه بين الحين والحين تتسعان وتبرقان ، ليست بالضرورة كلما وقعت قديمة لكن هكذا بين الحين والحين . ربما كان هو الاخر يفكر بعمو سامي .

سحب الولد من يده بعصبية وقال له :

ـ اسكت ، خلص . اسكت . يالا نام .

اطفات السيجارة والرجل قريبي يحاول اطفاء سيجارته وانا في العادة لا أدخن . لعله قدمها لي ولم أرفض . كفه ترتعش وخيل لي أن عينيه تدمعان .

رجل آخر متوسط السن . يجلس قريبا من باب الملجأ يبدو منجهم الوجه . قال ان المدفعية الثقيلة هي التي تقصف . وكان يسمي أنواع القذائف التي تئز باسماء لا أعرفها ويحدد وجهاتها ايضا . كيف تنطلق وأين تسقط . وصواريخ ذات أرقام . لم يكن خائفا بالتحديد أكثر من غيره ، لكنه بدا مقدرا الخطر . نظراته تقول ذلك والبعض يلاحقها كأنما لم يعلم الورطة التي نحن فيها . ترك الرجل كرسيه الصغير وجلس أرضا . أسند كفيه الى الارض . تنهد وقال : عسى أن تمر هذه الليلة على خير . ثم ابتسم مستدركا وقال يكلم جارته : ستمر على خير ان شاء الله . الملجأ هذا أمان . حديد . شهدت بنفسي العمارة وهي تبنى . يقول ذلك وهو يضرب الجدار بكفه ، يشير الى متانة المبنى . واضح أن سكان العمارة يحترمون كلامه .

من ناحيتي ، اتخذت تلك الليلة قرارا قاطعا بمغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن . غدا اذا هدأت الاحوال أو حال تسنح الفرصة . سألت الرجل ان كان يتوقع هدنة ثانية فقال : كل شيء معقول في هذا البلد . وقلت في نفسي : شر البطاش ولا هذه البلوى . نعم أنا ايضا أخاف من القصف . ضربات قلبي تضج . ها انى أسمع ضجيجها في صدري . ومن يدري ! ربما كانت عيناي تبرقان وتتسعان من الهلع مثل عيني هذا الرجل . ويداي ترتجفان ايضا مثلما ترتجف يدا

أبى سليمان • وربما لهذا ينظر الى الاخرون وليس لانى حديث العهد بينهم

الولد الصغير استسلم الى سلطة أبيه فغفا • استند الى حضن أمه رافضا التمدد على الارض قرب أخته • كان اذا وقمت قذيفة غير بعيد قام ونظر الينا بعينين زائغتين ثم عاد الى نوم ثقيل • يتمايل فى حضن أمه فتميل هى معه تمايل سفينة طائشة فى بحر هائج . وحين تسترد انفاسها تعود وتربت كتفه وتعدل من جلستها ومن استلقائه . وقليلا قليلا اخذ القصف يخف دون ان يتوقف نهائيا . ولدهشتى رأيتهم يغادرون الملجأ .

سألت الرجل أبا سليمان عن مغزى ذلك فقال :

ـ خف القصف ولعله لن يلبث أن يتوقف •

ثم وبعد تردد قال :

ـ يمكنك أن تبيت عندى •• الطوابق العليا لا تعطى احساسا بالأمان • رغم أن التجارب قد علمتنا أنه ليس لاخطار القصف أى منطق انما •• ما رأيك تفضل ، بيتى هو بيتك •

شكرت الرجل • كنت فى الحقيقة رغم المفاجأة والخوف أفضل المبيت فى شقتى وكنا قد أصبحنا أمام شقته تماما حين قال : بيتى هو بيتك فاعتذرت •

فعل الارهاق فعله فركنت الى النوم أغالب النعاس ومخيلتى تعيد الى تفاصيل ما جرى . الدوى اضحى الآن بعيدا ، رغم ذلك فالسرير يتمايل والولد وأمه يتمايلان • بأية سهولة فتح الامين باب الشقة ! كأنه يفتح باب بيته • صبية حسناء فى عينيها دهشة وحب استطلاع تجلس مع امرأة هى فى الاغلب أمها وقربها يجلس شاب هو بالتأكيد أخوها • العيون السوداء الواسعة ذاتها ، لكن التعبير فيهما مختلف • تتأملنى بنظرات متفحصة ، واذا لاح منى انتباه اليها حولت بصرها عنى الى السقف • وحين خف القصف استبقت أمها وأخاها فى الخروج • مشية رشيقة متحفزة ونظرة القتها على فيها فضول وشىء آخر • امرأة حامل بطنها كبير وثقيل • ظننت أن معها توأمين تضع يدها على بطنها كأنها تخشى عليه من السقوط . ترى ماذا تفعل لو فاجأها المخاض فى الملجأ ؟ لم تكن قلقة • قالت لجارتها : الحمل السابق الشىء ذاته والقصف كان أشد لكن مشيئة الله أقوى ••توقف القصف وأولدت فى المستشفى • عسى أن يكون حظى هذه المرة مثل سابقه •

فأجابتها صديقتها : عسى أن يكون كذلك • ما شاء الله بطنك كبيرة ابتسمت الحامل وقالت بثقة : توأم • قال الطبيب توأم •

قبالتي في الملجأ تجلس الصبية تلك • لا تتجاوز السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر • تلاحقني منذ قدومي بنظرات فيهما دهشة وعناد • ووضح أن قدومي يثير عندها التساؤلات • قريبهـا تجلس سيدة متوسطة السن هي دون شك أمها • الفتاة قلما تتحادث مع أمها تتبادلان أحيانا كلمة أو جملة ثم تعودان الى الصمت • قلة هم الشبان في الملجأ • المسلحان اللذان رحبا بي في اليوم التالي لقدومي لم أرهما ولا مرة واحدة • انهما كما قالا يحرسان في الحي •

غالبية رواد الملجأ من الاولاد والنساء أو الرجال الذين تجـاوزوا سنا معينة،جاءوا هنا ينشدون مخبأ من النار والدمار•والصبية تنتفض أحيانا لسقوط قذيفة وأحيانا تظل ساهمة كأنها لا تسـمع شيئا • الكتاب الذي أنزلته معي منذ فترة أحاول قراءته يرد عني نظرات منها عنيدةتنفذ الى عالمي وتتدخل بين الصفحة والصفحة. أحاولان ابدد خوفي بالقراءة لكنها لا تدعني وشأني • تبدو رغم بساطة مظهرها على جانب من الشقاوة • لم ألتق بها في الخـارج ولا مـرة واحـدة لكني صادفت أمها مرة في الدكان • ومرة جمع أهل الملجأ مبلغا من المـال لشراء بطارية تستمر اضاءتها بضع ساعات في حال انقطاع الكهربا قالوا انها أفضل من الشـــموع • كنت أمقت ظلمة الملجأ فتحمست للفكرة • لكن الشاب الذي كان يجمع المال تردد في طلب مساهمتي• رحت اليه وامتدحت فكرته ودفعت المبلغ المستحق وبدت الفتاةأثناء ذلك مهتمة بحديثي معه •

المرأة التي تلعب الورق في الملجأ بدينة بعض الشيء • وجهها حيوي ومرح . اغتظت منها لانها تلعب الورق وتبدو غير خائفة . كان الخوف حائط تدير له ظهرها • حين يعنف القصف تتوقف عن اللعب برهة وتصيخ السمع . ثم تتابع اللعب . ان كانت غير خائفة حقا فلم تنزل الى الملجأ ؟ وان كانت تخاف مثل كل خلق الله فلـم لا تتـوقف عن اللعب ؟ فطنت أخيرا الى أنها هي أو غيرها • قد تستغرب انكبابي على القراءة استغرابي انهماكها في لعب الورق • وخمنت في ما بعـد أن عدم خوفها مرده الى ذاك اليقين بأن القذيفة ستسقط حتما في مكان آخر •

في مابعد ، أصبحت بين الحين والاخر أتخيل نفسي مثل شخصية درامية في فيلم سينمائي • كتبت لجوانا أصف لها رتابة حياتي في هذه العمارة • سأضع الرسالة في البريد حال تهدأ الاحوال • سير الامور هو ذاته كل يوم ورغم ضخامة الاحداث تبقى التغييرات فيه ضئيلة • يبدأ القصف غالبا في المساء ، الملم أغراضي وأنزل • في البدء لم اكن احمل شيئا . والان املك عدة كاملة . غطاء . راديو ترانزستور ، كتاب ، براد شاى • وبالدور هو ذاته أيضا : الملم حاجياتي والبس ثياب الملجأ • بنطلونا فضفاضا مريحا وأتلكا بالنزول مثل محارب قديم الى أن يعنف القصف • ففي الملجأ يطالعني وجه الصبية العنيد وعيناها الواسعتان الدهشتان • أبو سليمان يحافظ على وداعته ولياقته فلا يقتحم وحدتي دون استئذان • وذاكي الولد الصغير ما فتيء يتذمر من النزول الى الملجأ • إسمه هادى • يتذمر ولا يسكت الا بعد أن ينهره والده • أمه تحدثنا همسا عن عمو سامي وهو يذكرها بأن رأسه لم ينقطع بل مات من القصف • توقف قلبه ومات البارحة سألها لم لم يحضر عمو سامي الى ملجئنا ليختبيء بدل أن يموت في شقته • شرحت له المرأة أن بيته بعيد • قال :

ـ طيب ليش ما اجا بالسيارة ؟

ـ ما بعرف • صحيح • كان لازم يجي بالسيارة •

ـ اى وليش ما اجا ؟

ـ ما بعرف • كان لازم يجي لهون ويتخبا معنا •

الوالد الشاب يدعو ابنه للنوم قرب اخته التي لا تستيقظ الا لتشرب أو تأكل • حين يكف هادى عن القاء الاسئلة يزبد وجهه من الخوف ويقول لامه : بدى نام •

فاجأتني الصبية اليوم بكتاب تحاول قراءته • خشيت أن يلفت سلوكها النظر لكن شيئا من هذا لم يحصل • رغم ذلك أحسست بالحرج • لا أحد غيرى يقرأ في الملجأ • البعض يحمل الجريدة اليومية يتصفحها أحيانا أو يستمع الى الاذاعات لكن لا أحد يقرأ كتابا ، لا أدرى لماذا • تجاهلت محاولتها واصرارها على لفت انتباهي • لكني في الحقيقة كنت متشوقا لمعرفة ما تقرأ • تمكنت رغم تظاهري بالقراءة أن الح العنوان : أحدب نوتردام • كنت قد قرأته مترجما وأنا في مثل سنها أو أصغر بقليل ثم شاهدته فيلما فيما بعد • ستأخذها الرواية هذه اذا ما قرأتها في رحلة ممتعة الى عالم فيكتور هوغو وفرنسا •

والاحداث التي جرت آنذاك ستدغدغ خيال فتاة لم تبلغ السابعة عشرة كانت تقرأ الكتاب بعض الوقت وحين يشتد القصف ترفع رأسها وتحدق بالسقف تثبت فيه نظرات قوية . وربما كانت هذه طريقتها في معالجة الخوف • بين الحين والحين تلقي على نظرة تطول أو تقصر • الكل يجلس ارضا على أغطية • نشأت بيننا مودة صامتة • أسلم عليهم ويسلمون علي • الشبان يبدون أكثر تبرما من غيرهم• لايظهرون خوفا بل ضيقا • أحدهم يتجادل مع أمه • مراهق لم يبلغ الثامنة عشرة بعد . كل مرة يؤكد لها رغبته في البقاء فوق في البيت وأمه تقول له لا . يجيبها ان الخطر موجود في أي مكان والصدف وحدها تقرر مصير الناس ويعطيها أمثلة على أناس قضوا في الملاجيء وآخرين نجوا في البيوت • ورغم تأففه ظل يأتي الى الملجأ • لم يتغيب عنه ولا مرة واحدة • في اليومين الاخيرين تغيرت الاسطوانة • يبدو أن فكرة الاشتراك في القتال تراوده وأمه تقول له :

ـ لا • لا نريد أن نحارب أحدا •

ويجيبها ساخرا :

ـ أنتم لا • أما نحن فبلى •

ـ لكنك مثلنا لا تحب الحرب •

ـ لا أحب الحرب . لكن الدفاع عن النفس واجب وساذهب لاحارب • ساذهب الان •

قال هذا واندفع نحو المدخل ولحقت به أمه تتمسك به • وكاد يفلت منها • أخذت تتوسل اليه • أخيرا أذعن لتوسلاتها لكنه بدا حانقا غير مقتنع • قال كأنه يوبخها :

ـ رفاقي كلهم يقاتلون ويحرسون وأنا أجلس هنا مثل الاولاد والنساء ، صديقي لطفي ذهب أيضا .

ـ أنت غير لطفي . لطفي عنده ستة اخوة واخوات .

ـ كلام فاضي عاق الشاب . الموت موت . واحد أو ستة .

وعاد يسخر من أمه يهددها : قريبا ستسمعين من الاخرين أني ذهبت • الغلطة غلطتي لاني أحاول اقناعك •

لاعبة الورق تبدو ساخطة على الولد • تتابع نقاشه مع أمه دون تعليق ، انما وجهها يقول : جيل فاسد • جيل دلع • كان الولد يطالب ليس بالذهاب الى القتال بل الى مرقص • تنظر الى الشاب ثم تعود وتنهمك بصف الاوراق واعادة تشكيلها • انضمت اليهما سيدة ثالثة والقصف يعنف • قالت : نحاول أن ننسى • أكيد أن بعض

الناس يخاف من القصف أكثر من البعض الاخر · تلك المرأة النحيلة لا حد لخوفها · هذا ليس خوفا ، هذا ذعر ، هول · لم لا تتدبر نفسها وتهجر هذا المكان ؟ تهرب منه الى أية بقعة فى العالم لا يتقاتل فيها الناس ؟ فهمت من أبى سليمان أن زوجها مسافر وأنها تنوى اللحاق به لكن هناك صعوبات تتعلق بالفيزا · لم يقدر على حلها بعد · حين تهدر الصواريخ أخالها ستغيب عن الوعى · وجهها لا يصفر كما تصفر الوجوه · بل يغدو بلون الحائط رماديا · وتضم المخدة الى صدرها عند المعدة وتشد · هذه المرأة ستموت من الهلع · لاحظت أنها تنظر الى باستعطاف كما لو كان فى امكانى مساعدتها · فكرت أن أنصحها بلعب الورق أو حياكة الصوف · أى شىء ينسيها هذا الخوف · لكنها لا تفعل شيئا · فقط تراقب سقوط القذائف وتتلوى كأنها تتوجع وتصرخ أحيانا : صاروخ · يا الهى صاروخ · والكل يعرف انه صاروخ حتى أنا أصبحت أميز الصـــاروخ من القذيفة العادية · حين ينتهى القصف تنهض وتتجه بقوى خائرة الى فوق · تغدو مشيتها عندئذ مثل امرأة على وشك الولادة · لا أدرى لم تغـدو مشـــيتها ورغم الهـزال مثل امرأة على وشك الولادة ؟

والصبية تتحادث أحيانا مع صديقة لها فى الملجأ تتحـــادثان وأحيانا توجهان لى نظراتهما · وهى لا تفعل شيئا فى العادة سـوى أنها فى الايام الاخيرة أخذت تحضر معها هذا الكتاب · فتـــاة نحيلة وليست هزيلة · لها مشية متحفزة كأنها غاضـبة · تمضى وقتهـا ساهمة تسبح فى عوالم أخرى · عندما دخلنا اليوم الى الملجأ لم تكن قد وصلت اليه بعد · لمحت أمها فقط · فرشـــت الغطاء وجلسـت وجلس أبو سليمان قربى · كنا نتحادث فلم أنتبه لهـا حين دخلت · لكنى لمحت ظلا يعبر المكان · ساقان ممشوقتان وقدمان صـغيرتان فعرفتها على الفور · واستغربت احســاسى بالارتيـاح لمجيئها · لم أكن متلهفا حضورها البتة لكنى رغم ذلك ارتحت . مثل استاذ فى الفصل كان ينتظر اكتمال الحضور ليبدأ الشرح ، وهى طالبة تأخر وصولها ولما جاءت اكتمل الفصل بها · جلست قرب أمهـا وأخـذت تقرأ · حاولت أن استشف موقف الام من ذلك · لا يبـدو عليهـا انفعال خاص · تنظر الى ابنتها تتأملها كأنها مخلـوق متمم لهـا · لا تكف عن تأملها · تحاول فلا تفلح ولعلها تحاول اكتشـــاف شىء لا أعلم ما هو · وربما كانت هى نفسها لا تعلم ·

اطفال الملجأ عددهم غير قليل . واليوم بكوا كعادتهم فأطعمتهم أمهاتهم السندويتشات وسقينهم الماء والمرطبات . بعضهم تسبب لنفسه بضربة كف ثم غفا وظل البعض يقظا ، عيناه معلقتان بالجدران وبأصوات القصف . اذا ما انفجرت قذيفة في مكان غير بعيد ينتفضون يجلسون ويتطلعون حولهم بعيون زائغة فتعيدهم امهاتهم الى الرقاد . وفتاة لم تتجاوز السادسة من عمرها تختلف عن أترابها في اليقظة والرقاد . كلما عنف القصف انتابها القيء . والدتها تحتاط لذلك فتحضر معها وعاء من البلاستيك وحين تنتهي تغسل الام وجه ابنتها وتمسح يديها بالسبرتو . تقول ان هذا ينعشها . ثم تهرع الى الخارج عند مدخل الملجأ ، تضع الوعاء وتعود مسرعة . الحاضرون يتعاطفون مع الصغيرة ولا يبدون استياء . الصغير هادى سأل أمه :

ـ ليش كل مرة فريال بتستفرغ يا ماما ؟

ـ من الخوف يا حبيبي . بتتعب وبتستفرغ .

ـ طيب وليش نحن ما بنستفرغ يا ماما ؟

قربته الام منها وطلبت اليه أن يسكت ثم انبته لانه يتدخل في كل شيء قال لها ان رائحة القيء غير مستحبة . والصغيرة تبدو كل مرة خائرة القوى . تعطيها أمها دواء ضد القيء ودواء آخر خمنت انه من صنف المنومات . تأخذه الفتاة وبعد قليل تتمدد وتغفو للحظة . تبدو متلاشية تماما كالاموات . لكنها كلما سقطت قذيفة عاودت النهوض بقوى خائرة . فكرت أن المنوم في حالات مثل هذه ومن وجهة نظر عملية يضايق الفتاة . واضح أنها ترغب في مواجهة القصف وهي صاحية . وفكرت أن أتدخل واشرح للام وجهة نظري ، لكني عدلت . ومع الوقت لاحظت ان الفتاة نفسها اخذت ترفض المنوم . تقول لأمها : ما بدي الدواء يا ماما ما بدي المنوم ما بدي نام . أجابتها أمها بأن الطبيب وصفه لها وانها ان لم تأخذه فستظل تتقيأ وانه لا فائدة لها سوى في النوم . أقسمت الصغيرة لامها بألا تتقيأ بعد الان . ورحمة خي عباس ، قالت ، ورحمة عباس يا ماما . بتشوفي يا ماما مش رح استفرغ أبدا .

التزمت الفتاة بقسمها ولم تتقيأ بعد ذلك . وكفت أمها عن اعطائها الدواء ، كم عمره عباس يا ترى وكيف مات ؟ الرجل الذي يراقب وجهة القصف ويبدي رأيا موضوعيا قال انهم يقصفون بالهاون . قال ذلك ثم أخلد الى الصمت . قدرت من صمته ومن نظرات الاخرين أن الموقف خطير .

أبو سليمان حدثني قليلا ثم انشغل عني بنفسه • القصف يتوالى دون رحمة وهو كما فهمت مريض بالقلب • تناول حبة دواء وضعها تحت لسانه • حبة صغيرة • للطوارىء ، توسع الشرايين • الخوف يابني يضيق الصدر • وهل ابن آدم مطبوخ من حديد ؟ ورأيته يغمض عينيه • وجه أصفر وجفون متضخمة • ويستلقي الى الجدار يستجدي هدوءا صعبا ويتحسس بلسانه الحبة الصغيرة • أسمع أنفاسه • الرجل الاخر صامت • المرأة التي لا حد لخوفها صامتة أيضا لكنها بين الحين والاخر تدعو ربها أن يساعدها ويرحمها ، ارحمنا يارب • وعيناها تمتلئان بالدمع • لم لا تتدبر أمرها وتجد مكانا اخر يدل أن تتكور على نفسها هكذا مثل هيكل عظمي وضعه أجدادها الفينيقيون في جرة ؟ صديقتها تسقيها ماء الزهر وحبة مهدىء • وسكان الملجأ يتعاطفون معها ولا يعلقون بشيء • الكل صامت الان • لا أحد يقول شيئا ولا حتى الاطفال • ليس سوى القذائف والصمت • الصمت هو لحظة الانتظار وترقب الخطر •

توقف القتال . خمسة ايام متتالية لم نسمع فيها صوت قذيفة ولا احد يعلم لم توقف القتال لم تعلن هدنة ولم يطلب وقف النار ورغم ذلك ساد الهدوء فجأة . اية سعادة ان يستيقظ ابن آدم فى فراشه على همس السكون ! سكان العمارة لا يخفون غبطتهم . يلتقون على السلالم فيتضاحكون . كان الهدوء امر غريب يضحكهم . أو لعلهم يتذكرون الحماقات التى ارتكبوها فى حمى الذعر . وأنا رغم حداثة عهدى بهم أحس بنفسى واحدا منهم . ألقاهم فى المدخل أو على الدرج فيسلمون على بتلك الطريقة التى تفصح عما بيننا من ذكريات . التقيت المرأة التى تشارف على الاغماء كلما اشتد القصف . كدت لا أعرفها . لم أرها قط منتصبة القامة هكذا ! وهى الآن فى اناقتها وزينتها لا تبدو هزيلة بل نحيلة كغصن وهى فرحة بنفسها . جميلة . لونها ليس كالحائط انما كالعاج النقى وعيناها ليست مذعورتين بل هادئتين كعينى غزال . تبدو فى سيرها مثل عارضة ازياء طال مرضها ثم تماثلت للشفاء .

وطالت فترة الهدنة ولف حياة المدينة انتعاش ذكرنى بايام ما قبل الحرب . وحاولت رغم الحيطة ان اتصل بالأصدقاء القدامى فقيل لى ان سمير يتابع دراسته فى امريكا وعبد الله سافر الى الخليج وهو يعمل فى حقل الكومبيوتر وشوقى منذ أن تخرج يعمل طبيبا فى الجبل ، على الأرجح فى مسقط رأسه . وليس فى وسعى الذهاب اليه ، عدت الى قراءاتى وحاولت اكمال بحث كنت بدأته فى باريس لنشره ضمن مجموعة ابحاث هناك . غير أنى لم أكن راغبا فى التركيز . رحت اقلب أوراقا كتبتها من وحى تجربتى هنا فانتابنى احساس بالاغتراب . كأننى اكتب عن شخص آخر ! والأمين لم يأت سوى مرتين اخبرنى فيهما ان تسوية المسألة قيد الترتيب .

وفى المرة الثانية خطر لى ان أسأله ان كان عمى يفكر بالاعتراف بالبطاش أو أستزيده علما حول تحركاته ، هل عاد فعلا الى البلدة وهل رآه الناس بأم العين أم انه ما يزال كعهده يدور فى الجوار ؟ ورغبت فى الاستفسار عن مغزى سلوكه هذا لكنى لم أجرؤ . كنت أخشى سماع التفاصيل . لازمت شقتى اياما مكتفيا بالتجول فى محيط الحى تطالعنى واجهات لا تهمنى وأدخل مخازن حفظت

انواع بضاعتها عن ظهر قلب . أشترى منها بعض الأصناف للايام المقبلة وابتاع الصحف والمجلات وأقرأها بالدقة البالغة فلا أوفر التفاصيل . وتطالعنى الاعلانات المبوبة فالاحظ حركة السوق وتغيراتها ومناخ العرض والطلب . هناك اقبال نسبى على عمال الدرزه ومعلمى الباطون والنجارة والحدادة وعمال البناء . ومعظم الاعلانات تفترض فى السكرتيرة معرفة لغات من بينها الفرنسية والانكليزية . اعلان واحد يطلب اللغة الالمانية وآخر الاسبانية . اسعار الشقق فى ارتفاع والايجارات معظمها يخلو والملابس الجاهزة وفيرة ومكاتب لتخليص البضائع واخرى لتجهيز معاملات الفيز الى الخارج واعلانات كثيرة تقول : نسجل الطلاب فى جامعات أمريكا وأوروبا ونسهل كافة المعاملات للراغبين فى الهجرة أو توظيف الأموال والاستثمارات فى الخارج . اشتر أرضا فى أجمل بقاع الدنيا ! بالتقسيط ! وصور لسترات واقية من الرصاص وأخرى لسيارات مصفحة وشركات تأمين ضد الحرائق . الحرائق الطبيعية فقط يقول الاعلان ، لا نؤمن ضد الحرائق الناتجة عن الحرب . ومركز للاطراف الصناعية والتدليك الطبى يطلب اخصائيين للمنطقتين الشرقية والغربية ومركز للعيون الاصطناعية ايضا وطبيب مختص فى ذلك . بعض المدارس التى اضطرت للانتقال من مناطقها بسبب الوضع الامنى تخطر الطلاب وذويهم بمقرها الجديد . والخادمات الآسيويات معروضات ومطلوبات واحيانا تهرب احداهن من الخدمة فتظهر صورتها فى الصفحة مع تحذير شديد اللهجة لمن يستخدمها « تحت طائلة المسئولية » يقول الاعلان . ويقول ان جواز السفر محجوز لدى مستخدميها الاصليين لكنه احيانا لا يذكر شيئا فيما يتعلق بالجواز . أهالى المخطوفين يناشدون المسئولين مساعدتهم فى الافراج عن ابنائهم وصور لأشخاص خرجوا بتواريخ محددة ولم يعودوا . « الرجاء ممن يعرف عنهم شيئا الاتصال بالارقام التالية وله مكافأة »

ابو سليمان ذهب الى الجبل يزور شقيقته ، قال انها عادت من الجزائر . ذهب يطمئنها عن نفسه . الشاب الذى يتدمر ويهدد والدته برغبته فى حمل السلاح رأيته يصعد الدرجات اثنتين اثنتين. يرتدى ثياب الباسكيت . استوقفته وسألته عن هوايته فحدثنى عن الفريق وعن المدرب . وقال انه يحلم بأن يصبح لاعبا عالميا . اخبرنى انهم كانوا ينوون الاشتراك فى دورة فى بلغاريا لكن الأحداث

منعتهم من السفر وهو حزين لذلك . وفرح حين علم انى فى مثل سنه كنت اهوى الباسكيت ايضا .

انصرف الجميع الى تدبير شئونه وذهب البعض الى عمله . والولد الصغير صاحب عمو سامى ، اخذه والده ، الى مدينة الملاهى وتنزها على الكورنيش وحين عاد كان سعيدا . رغم ذلك سمعته يكلم والده بلهجة لا هى بالسؤال ولا هى بالجواب يقول له : خلصت الحرب يا بابا ؟ اى خلصت الحرب ؟ والاب يجيبه : ان شاء الله يا حبيبى خلصت . ان شاء الله بتخلص . ويسأل الولد : ليش بتقول ان شاء الله بتخلص ، ليش ما بتقول خلصت !

لم تمض سوى أيام على وقف القتال حتى رأيت التلامذة ينتظرون الباصات فى الخارج . يرتدون أزياء المدرسة ويحملون حافظات الكتب . وصل أحد الباصات فهرول الاولاد نحوه وهلل لهم رفاقهم الذين سبقوهم اليه ولوحوا لهم بأيديهم كأنهم يحيون فريق كرة القدم . الرءوس الصغيرة والاذرع تمتد من النوافذ ومسئولة الباص تحاول تنظيم الهرج دون جدوى . لا أحد يستمع اليها . يتضاحكون ويعبثون كأنهم فى نزهة . يقهقهون ملء جوارحهم من أعماق افئدتهم الصغيرة يقهقهون ! ما أجمل هذا الضحك المسئولة تحاول اسكاتهم . أقول لها ، ليتنى أقول لها ، دعيهم يعبثون . ما أجملهم هكذا وما أعذب هذا الضحك ! الآن سيجوب الباص الشوارع فتراه الامهات وتفرح ، أية سعادة هذه أن تراهم . تشكر رب السماوات الذى اذن لهم برحلة الباص هذه بحمل حافظة الكتب كتب القراءة والحساب . بالأمس أخبرت بان اليوم مدرسة فارتبكت . لا شيء يربك انما هى ارتبكت . رأحت الى اغراضه تتفقد أشياءه الصغيرة . فتحت المقلمة لتتأكد من وجود المحاة والقلم وتحسست دفاتره وفتحت كتابه . ابتسمت للصورة التى تزينه ، صور أرانب وعصافير وقطط وصورة طفل يقرأ وأمه جالسة قربه تصغى ، بالهذه البهجة ! اغلقت الأم الكتاب وتحسسته ثانية قبل أن تودعه المحفظة . انه آمن فيها . ثم اغلقتها وقالت له : هذه كتبك حافظ عليها . لعلها ما كانت تقصد ذلك لكنها أكدت عليه بأن يحافظ عليها .

والاولاد نهضوا باكرا اليوم ، فاليوم عادت المدرسة كما تعود أيام العيد . البستهم أمهاتهم الأحذية الصغيرة والجوارب والبستهم

الثياب . حضرت لهم السندويتشات وقبلتهم ساعة الخروج . أوصتهم أن ينتبهوا لأنفسهم ودعت لهم بالسلامة . ترجعون بالسلامة قالت . ولما أغلقت الباب دعت ربها أن يرجعوا اليها بالسلامة .

تدافع الاولاد الى الباص والسائق يضحك . يلتفت نحوهم ويضحك . واضح انه يستعذب هذا الهرج . والمسئولة بدت أخيرا مستسلمة . لم يجلس الاولاد فى أماكنهم بل ظل معظمهم واقفا بين ضحك وهرج . وتراءت لى اشياء ... ما كانوا يحملون بالونات ملونة زرقاء صفراء وحمراء . لا ماكانوا يحملونها انما خيل الى ذلك ... يحملون تلك البالونات الملونة ، يلوحون بها من النوافذ ويتمايلون فى مراجيح مدينة الملاهى ، والمراجيح ترتفع شاهقا ثم تهبط وهم يقهقهون ملء الصدور وعاود الباص سيره . وتمنيت لو الحق بهم . هناك فى ملعب المدرسة سيتابعون اللهو . لن يدخلوا الصفوف ولن يتعلموا بل سيطلقون فى السماء طائرات من ورق ملون أو يلوحون فى الجو بدواليب هيلاهوب . لن يعترضهم المدرسون ولن يجبروهم على شىء . فقط سيأذنون لهم بهذه المتعة . أراهم الآن يضعون كتبهم جانبا ويتدافعون . يلحق الواحد منهم بالآخر ويتراكضون بلا انتظام فى مهرجان ، وشيئا فشيئا تأخذ اللعبة مجراها وتتناسق الالوان . ويدورون فى ساحة الملعب مثل دولاب الهواء . ثيابهم الآن تتوهج وتلمع بألف لون ولون لمعان قوس قزح ، جسر فرح ملائكى يتسلقه هؤلاء الصغار الذين لو امعنت النظر فى وجه كل منهم لطالعتك عيناه باسطورته التى عاشها فى تلك الاهوال ، واذا ما نظرت اليهم مجتمعين خلتهم كلا واحدا له شكل وايقاع ونغم .

مرت أيام على وقف القتال فواجهت للمرة الاولى منذ قدومى حقيقة حياتى فى بيروت . غريب ! تعلمت بسرعة كيف أقضى فيها أيام الحرب وها أنا عاجز عن التكيف معها أيام السلم . فى الفترة الاولى لازمت غرفتى ورتبت كتبى وأغراضى وسرحت شئونى وجلست أقرأ . وفى الايام التالية فكرت أن أخرج من البيت لكنى لم أجرؤ . ليس من المحمود أن اذهب الى بيت أهلى . فكرت باصدقائى القدامى . استعرضتهم واحدا واحدا . معظمهم سافر . من بقى منهم فى بيروت على أن أبحث عنه . وتمنيت لو كان أبو سليمان هنا لأزجى الوقت معه . كنت قد زرته فى بيته .

بعد الهول الذى شهدته فى الايام الاولى ، قطعت الرأى على مغادرة الحى . قلت شر البطاش ولا هذه البلوى . غير انى فى اليوم

التالي حين استعدت الرشد رحت اناقش صحة قراري فالقضية شائكة والبوح غير مامون والدنيا قد تغيرت كما يقول الامين وليس من يمكن الاحتكام لرأيه . غير أبي سليمان . وأنا في العادة آنس لطريقته في التعامل . كان اذا ما لاحظ مني تحفظا في مسالة سارع في تغيير وجهة السؤال . هكذا لم يلح علي في نيل الجواب حين مازحني مرة بالقول : ما الذي جاء بك الى هذه المنطقة ؟ . قلت له انها الصدف فلم يعلق بشيء . وهكذا خطر لي ان أزوره في بيته استشف منه رأيا . اكلمه بالعموميات فيجري الكلام على اللسان ويفيدني بما يتعلق بخصوصياتي .

فتح لي الباب ولم يبد استغرابا . كأنه ينتظر الزيارة . ودعاني مرحبا للدخول فدخلت . بيت مرتب ونظيف مثل بيت رجل متزوج. الأشياء تركن الى اماكنها مستقرة . الاشياء كالاشخاص وسائر الكائنات تعبر عن الفتها اماكنها وهي في منزله تبدو اليفة مستقرة . دعاني للجلوس فجلست . وجرى الحديث عفويا . مثل أصدقاء قدامى فرقهم الزمن ثم جمعتهم الصدفة فانطلقوا يتحدثون بما مضى ... اخبرني بأن زوجته ماتت منذ عامين . واضح انه يلقى مشقة في اخفاء حزنه . وأخبرني كذلك ان له ولدين أحدهما في أمريكا والآخر في المانيا . سألته لم لا يذهب اليهما .

ـ هذا ما يرجونه قال . طلبا مني اكثر من مرة أن الحق بهما بعد وفاة المرحومة . لا يمكن ... في تلك الأماكن النائية ، الوحدة شعور مقيت ، ليس افظع من الوحدة . كيف يمكن لرجل في مثل سني أن يقضي نهاره وحيدا داخل جدران ! الاشياء هناك جميلة ومنظمة والناس لا ينقصهم التهذيب ولا اللياقة . لكن تنقصهم الحياة . ابني يعمل طوال النهار وفي المساء يهرول لشراء اغراضه. زوجته تركض الى الحضانة لتحضر الطفل . يعودون مساء ، نتناول العشاء . الجلسة الوحيدة التي احس فيها بالانس . لكنهم سرعان ما ينعسون . يحل بهم تعب النهار فياوون الى فراشهم وابقى انا ساهرا طيلة الاسبوع انتظر الويك اند ، وطيلة الوقت انتظر المساء. ثم ضحك وقال : ليت كل الايام ويك اند وكل الاوقات امسيات . كنت حين أسالهم كيف يطيقون العيش في تلك البلاد الباردة البعيدة يضحكون مني ويقولون : وانتم كيف تطيقون الحرب ؟ أقول لهم ان الحرب ظرف طارىء كنا قبلها سعداء . الجار بانس لجاره والناس تكلم بعضها دون تكلف . العلاقات الانسانية موجودة بالطبيعة . هناك ليس سوى الصمت والهرولة . العجائز يكلمون انفسهم في الشوارع هذه ليست بلادا . هذه منفى .

وتحادثنا بأمور شتى . قال ان الحروب برهنت على أن الانسان اكثر حيوانية من وحوش الغاب . هل سمعت بنمر افترس نمرا ؟ قلت له صادقا ان ابن آدم لا يولد متوحشا ، الظروف هي التى تجعله كذلك . وسألته عن أشياء سمعنا بها فى اوروبا . قيل ان كثيرا من المجانين شفوا بعد خروجهم من المستشفيات ، وكثيرا من الاشقياء تابوا بعد الهرب من السجون . وأن هناك نظرية تميل الى الاعتقاد بأن الناس فى حروب كهذه تنسى مآسيها الخاصة وأن العنف العام يذوب فى العنف الخاص .

ضحك وقال : لا عجب . فمن رأى جنونا كهذا شفى فى جنونه. ثم استعاد جديته وقال : لا شىء غريب فى البلد . شفى اناس كثيرون من جنونهم هذا صحيح .. انما الصحيح أيضا . أن آخرين تحت وطأة الاحداث جنوا ، والحرب صنعت مجرمين جددا لا مثيل لهم. ليس من قاعدة . الشىء الوحيد الذى اثبتته هذه الحرب أن العنف يجر عنفا أكبر منه . أما الخلافات الشخصية ، يا الهى ! دعك من النظريات واسألنى عما يجرى فى هذه الساحة مرتع ولا اخصب للانتقامات الشخصية . معارك ضارية تدور لخلافات تافهة بين مسلحين ، اما الثارات المروعة فنسمع بها كل يوم . اعطيك عشرات الأمثلة على ذلك ، قال وقد امتلأ انفعالا . الشهر الماضى ، جارنا المختار ، راح ضحية ثأر قديم ثار عمره عشرون سنة . تصور !. عشرون سنة لم تكن كافية لازالة الاحقاد .

منذ زيارتى له وأبو سليمان مهتم بنقل أخبار الجرائم الشخصية آخر مرة نزلنا الى الملجأ احضر لى جريدة .

- إقرأ هذا النبأ . قال .

اخذت الصحيفة نرتع بصرى على الصورة . وسمعته يلح على بالقول ، وقد بدت لهجته عصبية بالفعل ، « اقرأ التفاصيل » . فى الصورة اربعة قتلى . جثثهم ملقاة فى غرفة نوم . القتلى فى ثياب النوم . جثة أحدهم تتدلى من السرير ، نصفها على الارض . مجزرة عائلية . العنوان الكبير : رجل وامرأته وولداه . لم أتمكن من قراءة التفاصيل . بقيت أحدق بالصورة لاانتزع عينى منها . الصورة وتفاصيلها . البيجاما التى يرتديها الرجل ذات خطوط عريضة . المرأة رأسها مائل كأنها نائمة . كنت مذهولا وسمعت ابو سليمان يقرأ الخبر :

- شاب يخرج من السجن ويثأر لأبيه . مجزرة عائلية .
- ياالهى ! عائلة بأكملها !

ـ نعم . كل يوم نسمع ونقرأ قصصا مثل هذه . هل تعرف لم قتل هؤلاء الناس ؟

ـ لا . لا أعرف .

وكنت فى الحقيقة لا اريد ان اعرف . لا شك فى أن القاتل قد غدر بهؤلاء الناس وهم نيام . وسمعته يقول :

ـ يدعى القاتل ان القتيل هذا قد احتال على والده وسلبه المال .

ـ لهذا فقط قتل عائلة باكملها ؟

ـ نعم . لا حسيب ولا رقيب . اقتل واهرب . لا محاكم ولا سجون . كل واحد يفعل ما يحلو له والشاطر من ينجو بنفسه. انظر . قتل عائلة الرجل بالرصاص أمام عينيه ثم طعنه بالخنجر سبع عشرة طعنة . تصور !

ـ لا . لا يمكننى أن اتصور .

ـ طبعا ، فانت لم تشهد شيئا من هذا .

يا الهى . سبع عشرة طعنة وعائلة باكملها من اجل ذلك فقط. ان ان كان هذا قد فعل ذاك من اجل المال فما الذى سيفعله البطاش بى اذن ؟ كنت فى الواقع مغتاظا من أبى سليمان ولمت نفسى على زيارتى تلك . الجهل فى أحوال كهذه فضيلة . لكن ... فى الحقيقة انها خدمة يسديها الرجل لى بعفوية وبساطة . والا كنت حملت نفسى وذهبت مثل ابله أطلب عقد صلح غير متكافىء مع ذاك البطاش الذى يطلب راسى .

فى هذه اللحظة وكان القصف قد خف تدريجيا ، استحليت الجلوس فى الملجا . شر القذائف ولا الطعنات السبع عشرة !

تلك الليلة كنت مستعجلا الصعود الى البيت راغبا فى ان اخلو لنفسى . وما أن خف القصف حتى استاذنته وغادرت الملجا والبعض قد بدأ يغادره مثلى . وصعدت الطوابق الستة فارغ القلب وأفكار تتطاحن فى رأسى . اجرجر قدمى مثل عجوز . أمشى بخطى بطيئة ثقيلة مملة . لكن المفاجاة التى كانت تنتظرنى هناك نقلتنى وبشكل مفاجىء الى مزاج آخر . رسالة دستها يد من تحت الباب وجدتها ملقاة على الارض . استعجلت فى فتحها وأفكار شتى تضرب فى رأسى . ورقة صغيرة كتبتها يد غير متمرسة تقول : لا تتعجب من رسالتى . وجودك لفت انتباهى منذ اول مرة . وعرفت انك تسكن فى هذه الشقة منذ فترة . اكتب لك لانى اطمئن اليك . وجهك يوحى بالثقة ؛ انك الوحيد الذى يمكنه مساعدتى . الى اللقاء .

المخلصة حنان

(٦)

منذ أن توقف القتال ازداد احساسي بالغربة . عرفت الوحدة والضجر وفكرت بالسجناء . هذا سجن في الهواء الطلق لم يفرضه على احد بل فرضته أنا على نفسي بسبب حكاية البطاش والامين لا ياتي ! هل خانني الامين ؟ اهي خدعة أوقعني في شرها ومضى ! فخ يدعونه الهدنة نصبه لي في مفترق اسابيع من وقف القتال ؟ انتظر قدومي ليقدمني كالطعم ! ما اغباني ! لو كان الامر كذلك لمضى الامين في خدعته الى النهاية ولجاء بالبطاش يجهز على في المكان عينه الذي اختاره لي ، ومن يمنعه من ذلك ؟ انه الاثم دفعني في لحظة يأس وطيش الى الظن به سوءا . وانا آثم بظني . ليس الامين من الذين يخونون ، أو لعله الخوف أودى بي الى سوء الظن ! انا اسير خوف . ان قامت الحرب فانا مهدد بالموت وان حل السلم فانا مهدد به ايضا . مرة بصاروخ واخرى برشاش أو خنجر . وتلك التي تدعى حنان والتي كتبت لي رسالة لم المحها ولا مرة واحدة منذ وقف القتال . بعد تلك الرسالة لا ادري كيف اتصرف معها ولا يمكنني التنبؤ بما ستفعله هي الاخرى . أبوسليمان يقول ان سكان العمارة اناس طيبون . سألته عن علاقته بالجيران فقال انهم بشكل عام ناس بسطاء . طيبون وبسطاء . امكانية السلوى معهم محدودة . ابو سليمان انسان مثقف . عمل مدرسا فترة طويلة قبل ان يصبح مديرا لمدرسة تكميلية . ومنذ سنوات قلائل أحيل الى التقاعد . لو كان هنا لامضيت معه وقتا طيبا ولخفف عني وحشة الاسر هذا . اتذكر الآن فيلما يحكى عن تجربة رجل شقي في احد سجون القرون الوسطى . الفيلم يدعى « الرجل الملعون » . اذكر أن كيرك دوغلاس هو الذي لعب هذا الدور الرائع ! السجن قلعة ضخمة وسط صحراء والسجين هائم في هوس لا يفارقه : الفرار . يخطط له بطريقة جهنمية تنبه لها عجوز يقاسمه الزنزانة ويحاول أن يثنيه عن عزمه بالحجج الدامغة ، غير أن حجج العجوز الصريق في محاولات الهرب لم تزد الملعون الا اصرارا . كثيرون حاولوا قبلك . لا فائدة . اما القتل واما العودة الى القلعة .

ـ وماذا تراني فاعل هنا طيلة حياتي ؟ سأل الشقي ؟
ـ افعل كما فعلت انا . دبر لنفسك عملا ... هو ايه ... امرا تهتم به .
ـ عمل ؟ هواية ؟ كيف ؟
كما اقول لك ، اجابه العجوز بحكمته القاهرة . السجن يابني يسلبك حرية الحركة ، انما ليس من قوة في الدنيا يمكنها أن تسلبك حرية الخيال . ومثلك قضيت سنوات في تلك المحاولات ولما اكتشفت الحقيقة تلك ، وجدت ضالتي .
ـ اية حقيقة ؟
ـ تلك التي احدثك بها . بواسطتها تعلمت اكثر من مهنة وشغف قلبي باكثر من هواية حتى استقر الرأى ورسا المركب في الميناء . ومنذ ذلك اليوم عرفت الراحة . كان ذلك منذ اربعين عاما يوم حققت الحلم واقمت المزرعة . تلك التي اقوم بخدمتها حتى الآن . اذهب اليها كل يوم . فيها من الحيوانات أصناف شتى . خنازير وبقر ، دجاج وبط وفيها حقل وبستان . في الشتاء اقطف ثمار الشتاء . واحصد في الصيف محاصيل الصيف . لا اتعب من العمل فيها ولا اكل . وهل يمنعني أحد من ذلك ؟ منذ اربعين عاما وانا على هذه الحال . في الصباح امتطي جوادي واذهب . وان حلت لي النزهة وكان الطقس ملائما ذهبت اليها سيرا على الاقدام . وما تخلفت عن العمل فيها يوما . اعطيها فتعطيني . ازيدها عطاء فتزداد تألقا . الغرس اكثر من مرة اولدت مهورا جميلة اهديتها لاصدقائي والمواسم اذا ما فاضت وزعت فائضها على الآخرين ، فحب التملك ليس من طبعي . ما رايك لو شاركتني العمل فيها ؟ ارى أن لديك متسعا من الوقت فانت شاب وانا عجوز وفي المشاركة فائدة وسلوى. وسترى كم ستنتعش الارض وكم سنجني من ثمار ...
كلام العجوز أذهل الرجل الملعون فمضى يرسم خطته كمجنون . وفازت الخطة الجهنمية ! مثل قائد حرب في ساحل اقتتال جند بالحيلة ساجين القلعة جميعا . أعطى كلا منهم وعدا كاذبا بالخلاص. لوح له بامل الحرية . اى جبروت تحركه بسجين .. مؤبد حين تقول له ان الحرية تنتظرك هناك وانه ما عليك سوى استلامها . الشقي فعل هذا لينال مأربه . قاد ثورة كاذبة قوامها سجناء . تعلقوا بوهم خلاص . تمردوا . حطموا كل ما وقع في ايديهم .

نوافذ وابواب ، طاولات وكراسى . لم يبق من القلعة سوى الجدران . وتصارعوا مع الحرس . كأنهم يتصارعون فى طاحونة باس ! وفى حمى المعارك هذه امتطى الشقى جواده وغافل الجميع الماخوذ بجحيم القتال والامل ومضى ..

وانا ؟ انا فى سجن الحرب والهدنة . هذا ماذا ترانى فاعل ؟ ان هربت هرب الرجل الشقى اكون مثله قد حكمت على نفسى باللعنة . فصاحب السبع عشرة طعنة يترصد خطاى مثل الثعبان الذى كان يقف لذاك الشقى بالمرصاد . يلازمه كظله مثل لعنة تسكن أعماقه . انها لعنته هو تجسدت فى هيأة ثعبان انتفض مدافعا عن مملكته . ومملكته جحر أودع فيه الملعون ماله والكنز المسروق. انتفض الثعبان فانطلق السهم ونال منه مقتلا فى عنقه عند تفاحة آدم . وانا لو شئت اتباع نصيحة العجوز هذا لانفادى المصير المحتوم فماذا افعل ؟ آكل واشرب وأنزل الى الملجأ واكتب قصة هى قصتى؟ نعم لابد أن اكتب هذه القصة العجيبة . لطالما فكرت بانى ذات يوم سأكتب رواية فلم لا ابدأ الآن ؟ شىء من الخيال وأشياء من الواقع وامضى هكذا دون حاجة كبيرة للابتكار ...

طالت لحيته وتهدل شارباه ولم يكن من العسير عليه تدبير أمر القبعة . هكذا تم التنكر . غادر المبنى بخطى حثيثة يستعجل شيئا لا يعرفه بالضبط . انه خروجه الاول منذ قدومه الى بيروت . لم يعرز وجهته بعد لكنه يعرف أن الخاتمة ستكون هناك في ذلك المكان .. وهو ما كان ليخالف نصيحة الامين وينزل في الشوارع الرئيسية او لم ياخذه حنين عظيم الى تلك الايام .. ورغم ذلك فقد امتثل للنصيحة وتنكر ! لم يكن خائفا وكأنه شخص اخر راح يجوب الشوارع قاصدا الاماكن التي كانوا يرتادونها أيام الجامعة . ومر بالمطاعم والمقاهي باحثا عن وجوه يعرفها . لكنه ما لبث أن نسي ذلك واستغرق في تأمل ما يطالعه في الطرقات . هؤلاء الناس غيرهم الذين كان يصادفهم في ما مضى . وتغييرات طرأت على الاماكن .. تلفته فلا يجد لها صفة محددة مثل ذاك التغيير الذي طالعه ساعة وطأة قدماه ارض المطار وفوجيء كيف ضاقت مساحته حتى غدا أشبه بملعب المدرسة . كيف تضاءلت مساحته ؟ لا يدري . هكذا طالعته المدينة وقد ضاقت شوارعها . رغم ذلك لم يكن حزينا فهو الآن سعيد بحريته . يعاوده ذاك الاحساس بالانطلاق شبيه بالذي نعم فيه خلال السنوات الجامعية . تلك كانت أيام .. انها مجموعة الاصدقاء والصديقات . شلة العم موسى كما كانوا يسمونها . عرفوا تنوع المكان وتعدد الانشطة أيام الأمان . ودأبوا على الاكتشاف . ما من مرة سمعوا بمبقعة ممزة من بقاع لبنان الا وسعوا اليها . المطارح كلها كانت وسع أيديهم . البحر والجبل . الساحل والداخل . مثل الكشافة كانوا يخيمون في أعالي القمم أو في سفوحها على مشارف البحر . نشطوا في أندية السينما وفي الرياضة وساهموا في مشاريع اجتماعية وأنشأوا مستوصفات ومراكز لمحو الامية طوعوا فيها أساليب حديثة لتعليم الكبار . وبعضهم نشط في السياسة . مثل خلية نحل كانوا يسعون دون ملل . بعضهم خاض تجارب حب قوية . أدت به الى الزواج المبكر وقرر البعض الاخر الذهاب في التجربة الى أبعد من ذلك .. أن يعيش عمره ملء طاقاته . جيل فريد يحيا تجارب قوية . حياته فرح وتوتر . معاناة وترقب فنتائجها لم تقرر سلفا والتجربة بالنسبة له هي الينبوع . التجربة

هى مسقى الحقيقة الاخير ولما تخرجوا من الجامعة سافر بعضهم لمتابعة دراسته فى الخارج • ثم وقعت الحرب فسافر من سافر بسببها وبقى من بقى • رغم ذلك كانوا موقنين أنهم سيلتقون ثانية •• بشكل أو باخر سيحدث اللقاء • فى تلك الفترة تعرفوا بالعم موسى • فى ذاك المكان على شاطىء البحر قبالة الصخرة الشاهقة اهتدوا الى درب وعر ينزلون منه . هناك كانوا يصادفونه ومثلهم كان يهوى الصيد . لكنه كان أبرع منهم فيه . حتى خيل اليهم انه محترف . كان على الرغم من تقدمه فى السن قادرا على الجلوس طويلا على تلك الصخرة • يلقى بصنارته فى الماء وينتظر دون حراك • مثل تمثال قديم ألقت به الايام فى ذاك المكان . صلب الذراع لا تهتز له انملة . ويراقبونه فيخيل اليهم انه لا ينظر فى الماء بل يمضى وقتا ما ساهما فى ذاك الحد الفاصل بين البحر والسماء . كان كتلة من احاسيس متنبها لما يجرى فى الماء عارفا بتحركات الاسماك فيها . وكان يدهشهم أنه دائما يصطاد أكبرها • كأنه يختارها اختيارا أو يناديها فتلبى النداء ؟ واصابتهم منه غيرة فقرروا أن يرموا للسمك فى المكان عينه الذى يرمى هو فيه • وظلت النتيجة هى ذاتها • اسماكهم صغيرة مثل اصابع اليد واسماكه كبيرة بحجم الاكف • ينتشلها فتتراقص فى طرف الصنارة بين وهج البحر ووهج الشمس فيغتاظون • اذ يتأكد لهم أنه يصطاد فى عمق المحيط وهم يصطادون على شاطىء ضحل • لكنهم ما لبثوا أن أخذوا بتلك الظاهرة الفريدة فسلموا له واذعنوا لقصورهم • راحت المنافسة وحلت مكانها مشاعر صادقة من الاعجاب والتحبب . هكذا تم التعارف . ذات يوم دعاهم الى بيته .. وغدوا منذ تلك الدعوة اصدقاء •• اعتبروا ان العم موسى عالم قائم بذاته وأن اكتشافه صدفة ، حظ لم يتيسر لغيرهم . كان رغم اختلافه عنهم قريبا منهم فى كل شىء • يسألهم عن دراستهم وشئون القلب • واذا ما لاحظ اكتئابا لدى أحدهم عرف السبيل الى أعماقه ولطالما قال ما يثلج الصدر • يخاطبهم بحصيلة عمرها زمن • ورغم هذه الصداقة كان العم موسى يضن عليهم بالحديث عن نفسه فظلت تجربته فى أذهانهم ضربا من الاسرار • هكذا أحبوه مثلما أحبه الجيران وغير الجيران ممن عرفوه • أشخاص وشخصيات من أنماط وفئات عديدة لم يكن يمضى أسبوع أو أسبوعان الا ويمرون به أو يرسلون من يتفقده • وهم أيضا كانوا يفعلون . ثم أخذ الود بينهم يقوى وتتقارب اللقاءات . أيامها كان هو مع صديقته فى الجامعة حنان . هى أيضا تدعى حنان .

حين تلقى الرسالة غاب عنه التطابق فى الاسم ، حنان • قابلها لاول مرة فى اجتماع هيئة الطلبة وكانوا يقررون النشاطات السنوية فى الكلية • جذبته حيويتها وروح الفكاهة عندها • وبدت واثقة بنفسها من غير ادعاء • وفيما كانوا مجتمعين رن جرس الباب فنهضت تفتحه واستدار هو يلاحقها بنظراته • ولم يتنبه لسلوكه هذا الا حين همست فى اذنه وهى عائدة : لا تستعجل • سيكون لديك متسع من الوقت لمراقبتى • ولم يحرجه قولها لما فيه من دعابه وخفه دم • وكانت حنان الى جانب دراستها مهتمه بالمسرح وبالحركه المسرحيه فى لبنان تقول عن المخرجين الاوائل • انظر هؤلاء الشجعان انهم أصحاب رساله • لقد ابتدعوا مسرحا من لا شىء • وكان العم موسى يكن لهما احتراما خاصا • وتاخذه الدهشة كلما قالا له ان اوان زواجهما لم يحن بعد وانهما يتوقان لانجازات اكبر • كان يتعجب منهما ويقول : وهل يتعارض هذا مع ذاك • تزوجوا ثم حققوا ما تتوقون اليه •

وحين لعبا فى مسرحية « المعلم بانتيلا وتابعه ماتى لعب هو دور ماتى ولعبت حنان دور الخادمة . كانت اذا ما صرخ « المعلم » بهـا موبخا افرطت بالضحك • وكان هذا يعيق التمرينات ويغضب المخرج مما اضطره لتهديدها باقصائها عن المسرحية • عندها فقـط امتثلت لاصول الدور •

منزل العم موسى قديم • لا يطل على البحر لكنه غير بعيد عنه • يفصل بينهما الشـارع الرئيسى . وهو من طراز البيوت المتوسطية . الدار المكشـــوفة فى الوســـط تنتهى الى حديقة صـغيرة . أو لعل الحديقة كانت جزءا من الدار حولها هو الى ما يشبه حوضا كبيرا زرعة شتلات وازهارا وشجيرات .. شجرة ياسمين وشـجرة رائعة اسمها الجميلة ، وهى حقا جميلة بازهارها البنفسجية واشكالها التى تشبه أفواه الاسماك . تعريش على الحائط الذى يفصله عن الجيران وتتدلى وراءه • جيران العم موسى يحبونه ويحترمون استقلالية حياته وفرادتها • يكلمهم ويكلمونه من خلف الحائط بصوت يكاد لا يسمع فيردون عليه بالمثل كأنهم على الدوام يقفون وراء الحائط ينتظرون منه اشارة .

وكان العم موسى يحدثهم عن بيروت أيام زمان وكان له ذوق خاص فى كل شىء .

فى مواسم انشغالهم بالدراسة كان العم موسى يصـطاد وحده •

وفي المساء يمرون به أحيانا فيشوى السمك ويطعمهم ولا ياكل منه سوى القليل . واحيانا يوزعه على الجيران . كانوا يستغربون كيف يعيش وبأية موارد لكنهم كانوا يستحون أن يسألون .. ولطالما ذكر أن الانسان لا يحتاج الى الكثير من المال لكي يحظى بالسعادة . رغم هذا ما كان العم موسى زاهدا بالحياة بل مستمتعا بها . ومتعته الفضلى البحر والصيد . وكانت له أغان يحبها ، تلك التي عرفها أيام شبابه وما زال على عهده بها . أغان قديمة يحدثهم بها والبعض منهم بسبب من تربيته الموسيقية يشاركه الحديث . شوقي عازف ناي هاو ووالده بارع في العزف على العود وهو ايضا . وكانت آمال صديقة شوقي مهتمة بالفنون . ولها صوت رائع يذكر بصوت أسمهان . حين تغني يسكت الكل ويسود صمت عميق في المكان ويبقى صوتها وحده يوقظ مشاعر قوية كامنة في الاعماق . كانوا يستغربون كيف لا يخطر لها احتراف الغناء فتجيبهم أن مسألة مثل هذه لا تهمها . بل يهمها الاسهام في نشر الثقافة الفنية . وتضحك قائلة عندنا مدارس بارعة في تلقين العلوم مبدعة في قتل الفنون . كانت تعلم بدار فن للصغار وتؤكد على انها بعد تخرجها ستسعى لاقامة مثل هذه الدار . تؤمن انه لو حقق كل واحد في الزاوية التي هو فيها شيئا يكون قد غرس الغرسة التي سيستلمها من بعده الاخرون وانه لا فائدة من العمومات . كان يحلو للعم موسى ان يطلب منها ومن شوقي أن يسمعاه شيئا من القديم . وبمرور الوقت تبين لهم أن للعم موسى معرفة وثيقة بالموسيقى والايقاع وانه فيما مضى كان يعزف على الناى مع فرقة لم يتسن لها الاستمرار وان له بعض التسجيلات في الاذاعة . لكنه منذ زمن تخلى عن هوايته . يقول أن الاغاني الجديدة هذه تشعره بعدم التآلف ، أو ربما بأن العصر قد تجاوزه . وكان العم موسى يذكر شوقي بالحان قديمة ، هو يدندن اللحن وشوقي يسحبه على الوتر . وهكذا تيسر لهم أن يتعلموا عددا لا بأس به من الاغنيات القديمة والموشحات ... وذات مرة جاء شوقي بصحبة والده ودعاهم جميعا الى سهرة عنده في البيت . تلك الليلة لبس العم موسى بدلة . لاول مرة منذ معرفتهم به رأوه مرتديا بدلة . في بداية السهرة بدا مرتبكا كأنه جالس في غير مكانه . لكن وجهه كان يطفح سعادة . والد شوقي يعزف على العود وشوقي على الناى والكل يغني . ثم جيء للعم موسى بالناى فتمنع وقال انه عجوز لكن والد شوقي استحلفه واصروا هم عليه

فاذعن . وراح يستذكر ويجرب وحواسهم ﺷ... دة نحوه ، هل يتمكن من كان فى مثل سنه من النفخ ! وظلما هكذا برهة ملقين حتى سيطر على الموقف وانبعث اللحن من الناى شجيا وساد فى المكان جو من التوحد والخشوع كانهم فى معبد . ولم يبرؤ احدمنهم على الغناء. يخشون ان تعكر اصواتهم غير المدربة صفو اللحظة الفريدة . وحدها آمال انطلقت بالغناء ترافق العم موسى وهو يعزف .

وذات مرة عزموا على تقديم هدية له واقترحت آمال تسجيل أغانيه المفضلة ولاقى اقتراحها استحسانا . وتكلفت هى بالمهمة . استغربوا كيف أن العم موسى رغم لياقته لم ينفعل للمفاجأة . شكرهم وكرر شكره أكثر من مرة لكن طريقته فى مسك الشرائط والمسجل لم تنم عن الفرحة التى انتظروها . كانه يمسك كتابا بالمقلوب . رغم هذا قام وأفرد للمسجل والشرائط طاولة صغيرة . لكنه ظل ولفترة طويلة لا يبادر الى الاستماع اليها بنفسه بل يترك لهم مهمة وضع الشريط المحبب اليه . وكان يهز راسه ويطرب . يطرب للفكرة وللاختراع . اما هو فقد حافظ ولفترة طويلة على عادته تلك فى الاستماع الى أغانيه من محطات الاذاعة . هكذا لا يستعجل قدوم الاشياء . ينتظرها فتأتى وان تاخرت لا يتذمر . تأتى اليه تماما كما تأتى اليه الاسماك حين يغمض عينيه . كمن يقوم برياضة روحية يدعوها دعوة او يقول رقية فتستجيب . ثم يوزعها على أصدقائه وصحبه ويتلقى منهم بدوره هدايا ومؤنا . هكذا تنتظم الاشياء فى حياته بشكل تلقائى دون حسابات . البحر الان يبدو هادئا . محيط ازرق يحاذى رمالا تلمع تحت اشعة باهرة . فوقه عند الافق تتكثف أضواء تتجمع وتبيض مثل ندف ثلج هشة تدورها الشمس الهدوء هذا ، كلما طالعه اثار فى نفسه الدهشة . هذا شاطىء بدء الخليقة . جمال كهذا يثير فى نفسه ذكريات ظنها ، ولطملة سنوات ، أصبحت جزءا من ماض . واذا بها تنتصب عملاقة فى المخيلة وتحرك أعماق الفؤاد . خلع جاكيته وحذاءه وجواربه وثنى طرفى البنطلون حتى الركبة ونزل فى الماء . كان وحده على الشاطىء من بعيد لاح له طيف امرأة قادمة تمسك بيد طفلة . أتراها المرأة التى احبها العم موسى جاءت مثله تتقفى اثرا وتنشد ذكريات ؟ هو لم يعرفها كما لم يتعرف بها أى منهم . كانت تلك حكاية سابقة لعهدهم به ، لكنه وصفها له . تقدمت المرأة ومعها الطفلة . لو تزوجت العم موسى لكانت الطفلة هذه حفيدتها .

تلك حكاية لم يخبر بها احدا غيره • كان يحبهم جميعا انما يانس له بصورة خاصة • كشف له عن حكايته لتعود سرا محفورا فى الاعماق لا تلوح خفاياها الا فى اللحظات النادرة التى يخلد فيها العم موسى الى نفسه . يحادثها بصمت عميق . لغة خاصة هى لغته التى لم يتعلمها من احد • لا تحكى ولا تقرأ بل تنقل بالحس وتستقر فى الاعماق •

يشعر انه اذا ما كتب فلابد أن يبدأ من البدء • فهو حين يرجع بذاكرته الى ذلك الحد الفاصل بين الوعي واللاوعي تنتصب في خياله صورة الامين ملازما والده • هو جزء من تلك العائلة المتماسكة السعيدة ولكم شاركه عبث الخيال ! ما احس بحنين لعائلته وتلك الدار حنينه اليهما الان • هذا حقا منزل عائلي • حديقته الفسيحة مرتع للصغار ومنتزه للكبار • له اطلالة وطقوس • يتبدى من الخارج بمناظره العالية وتلك الفيراندا الفسيحة • مثل سفينة قديمة ألقت مراسيها واعتزلت الابحار الى الابد • سفينة نبت حولها بستان صغير منلما تنبت للطير اجنحة • حديقة أزهار وبعض الاشجار • وخلف الحديقة شقت لها في السماء دربا ، أشجار شاهقة من السرو . ما أروعها منطلقة بقامة مخروطية تعانق السماء. لا تنهزم أمام خريف أو شتاء. ولونهاالداكن المشبع يمنحها مزيد قوة ومزيد جمال • ورائحة مميزة حامضة يفتتبا باصابعه فتفوح ليس كرائحة بل كمذاق • لا شيء يضاهيها زكاء سوى اغصان الكازوربنا ، الشجرة الوحيدة من نوعها في الحديقة • ابنة عم السرو واقل منها تكبرا ، ارتمت على السور بدلال تحضنه . أمه تتحدث دائما عن ورشة اصلاحات . ايحتاج فعلا هذا المنزل الى اصلاح أو تعديل ؟ انه جميل هكذا • حسبه أنه يستند الى سرو ويطل على بحر • اينما وقف خيل اليه أنه يطل على البحر • للبحر في المدينة حضور كثيف • لا يحيط بها من كل الجهات انما يخيل اليك ذلك • وهي طافيه على سطحه مثل حيوان مائي تحجر بفعل الزمن وعوامل طبيعية غامضة • وتذكر كتب التاريخ أن الاسكندر المقدوني هو السبب في ذلك • عاندته فعاندها وكانت فيما مضى جزيرة . تمنعت عليه حين نزل الساحل الجنوبي. قارعته سبعة اشهر ولم يكن يملك عصا موسى ففارعها بالقوة • قال اهدموا ما حول الجزيرة واردموه في البحر وليكن ممرا • هكذا هي هذه المدينة • ممر متصل ببيوت ممتدة في البحر . تخالها ستقع . ستغور سيطفو عليها اليم . انما لا يحدث أي شيء من هذا . البحر يدور حولها ، يلفها وله في الشتاء رهبة وطغيان . الصيف يهل بتؤدة والشتاء يداهمها مداهمة . البحر هو الاساس والمدينة تابعة له . وهو يحب البحر.

ولطالما تمنى ان يظل على حاله من الرقة فلا يفور او يجن كما فى الشتاء .

كان فى صغره حين يسمع دويه يغمر رأسه بالغطاء . العواصف تشتد والرعود . والامواج تتلاطم وتستولى عليه الرهبة . هل سيطغو على الشاطىء ويتجاوزه الى المدينة ويغرق البيوت والناس ، فى ليال مثل هذه لا ينام جيدا . يتذكر القوم الذين تحدثه بهم جدته ويفكر بسفينة نوح . الماء تزمجر والبحر يتجاوز حدوده يبتلع الرمال ويصل الى الطريق العام . والامواج مستمرة على حال من الاقتتال مريع . الامين يحاول أن يبدد مخاوفه . يحكى له حكايات . يخبره أنه فى كل عام . تحاول حورية من الحوريات مغادرة الماء الى اليابسة ، فيغضب والدها البحر ويرسل جنوده البرق والرعود والعواصف والامواج لتمنعها من الهرب . يحصل هذا فى فصل الشتاء . وفى الربيع تستكين الحوريات الى موطنها . لكن لم تهرب الحوريات ؟ لترى الدنيا قال الامين . لتشاهد عالمنا ، عالم اليابسة . الا تنجح ابدا ؟ بلى . بعضها ينجح فى الهرب لكنها لا تجرؤ على الابتعاد عن الشاطىء . مالان يلمحها أحد على الرمال حتى تقفز فى الماء عائدة الى موطنها . ويسأل الامين عن موطن الحوريات . فيقول له انه مكان رائع يخلب اللب . تلال من مرجان واصداف ولآلىء تزحف على رمال ناصعة ، ينبعث منها بريق والوان ، وأسماك لا ترى لها مثيلا ، مخططة ، برقالة سفسحية صفراء وخضراء . أشياء مثل الحلم .. وحوريات لا مثيل لجمالهن . نصفها الاعلى انسان ونصفها الاسفل سمكة . للامين طريقه فى الوصف ! وقد سر فى الحقيقة لان النصف السمكى هو الاسفل فقد كان يحب الفتيات ذوات الشعر الطويل . جاءه الامين مرة بمجلة فيها رسم حورية شعرها يتطاير وراءها ، كأنه لا يرى جديدا . هكذا تخيلها بالضبط حين وصفها له .

وراقت له حكاية الحورية ولطالما ساورته الخشية أن يصدقها وهو وحده على الشاطىء . لكنه كان يحدس أنها لا تقترب ناحية المدينة بل تظل بعيدة كما يقول الامين . هكذا كان يحدق باخر مكان يطوله النظر لعله يلمحها وهى تقفز أمامه فى الماء مثل السمكة .

ومع الايام بدت له حكاية الامين خرافة . لكن خوفه من هياج البحر فى الشتاء لم يتبدد وظل يحلم بسفينة نوح . كان فى حقيقة الامر عاتبا على سيدنا نوح لانه حمل سفينته بالحيوانات وترك الناس يغرقون . شرحت له جدته أمورا لم تقنعه . وفكر أن سفينته هو وقت

الطوفان سيحمل كل الناس . والده والامين . أمه وأخته . خاله واعمامه وكل الاقارب والجيران ـ اهل البلدة كلهم سيركبون فى السفينة التى ستطوف بهم الى ان ينخفض الماء . وسأل الامين لم لا يشترون سفينة .

ـ سفينة ؟

ـ نعم سفينة .

ـ سفينة لا قال الامين انما مركب صغير معقول . ما رأيك ؟

ـ صغير ؟

ـ نعم .

ـ وماذا نفعل به ؟

ـ ماذا تريد أن نفعل به ؟

ـ نركب فيه . نتنزه ، قال وفكره منشغل بمسألة أخرى .

ـ حسنا . سنصعد في المركب ونتنزه كما تريد .

ـ لكن المركب الصغير ينقلب بنا ونغرق .

ـ لا تخف ، قال . نركب فيه حين يكون البحر هادئا .

كان حزينا لان الامين لم يفطن الى ما يدور فى خلده . ولشدة خوفه من الطوفان خرج عن صمته وقال :

ـ الا تمر سفينة نوح من هنا ؟

ـ سفينة نوح ؟

وضحك الامين ضحكته المتلئة وداعب شعره وقال له :

ـ سنطلب من البابا أن يشترى لنا سفينة قوية . كبيرة مثل سفينة سيدنا نوح

البحر فى الربيع والصيف شيء اخر . وفى أوائل الخريف أيضا . يسعى الى الشاطيء برفق .. يلقى عليه موجات ترتمى على الرمال بدلال . حين ترتمى هكذا يسمع لها وشوشة .. ماذا تقول الموجات ؟ ترتفع هكذا قليلا مثل ثنيات الثوب ثم تنحنى لتهبط بتؤدة قبل أن ترتمى على الرمال المبتلة . وينتشر زبد أبيض . الماء هذه ليست زرقاء بل بيضاء . ويجرفها بكفه فيتأكد له أنها بيضاء . كيف تكون الماء بيضاء هنا وزرقاء هناك ؟ وذات مرة سمع جدته تقول : البحر مرآة السماء .. واعجبه القول . واستغرب كيف يكون لجدته رأى مثل هذا وطريقة فى التعبير .. علاقة جدته بالبحر يراها مختلفة . ايام الشتاء والخريف ، تطل من النافذة تلقى نظرة على الافق واخرى على

الماء ثم تقول : غدا يوم ممطر . أو تقول شيئا اخر يتعلق بالطقس - وما خطر له يوما أن اهتمام جدته بالبحر ليتجاوز هذا ، لكن جملتها ظلت عالقة فى خاطره . « البحر مرآة السماء » . والسماء زرقاء . كان من حين لآخر يستعيد هذا القول فى ذهنه . حتى انه لم يجد أية صعوبة فى الجواب حين سألتهم المدرسة لم يتغير لون البحر . البحر مرآة السماء أجابها وسط دهشتها ودهشة رفاقه فى الصف . حين تكون السماء زرقاء يكون البحر مثلها ازرق وهى حين تمتلىء بالغيوم يصبح البحر رماديا مثل الغيوم . لكنه لم يخبرها أن جدته هى التى علمته هذا ، وكان كلما تذكر الحادثة هذه أحس بانه قد سرق من جدته شيئا .

وكان يحلو له أن يراقب البحر . يقف على الفراندة ، يستند الى الحائط ويفكر بحكاية الامين عن الحورية وعن المدن الملونة . بيضاء زرقاء وزهرية . وحكاية بنت الملك التى وعده الامين أن يزوجه بها . كان يفضل حكاية الحورية بدل الزواج هذا .

تعبت عيناه من التحديق بالافق . وسمع وقع اقدام ناعمة . انها وقع اقدام أمه . ناعمة ومنتظمة . يعرف أنها ستأتى اليه . تنحنى عليه وتقبله . تضع يدها على رأسه تداعب شعره . ويشم رائحة عطر لا يذكر متى عرفه . عطر حميم ودافىء . وستطل هكذا جانبه ورأسها يلامس رأسه ، وتسأله لم هو واقف هكذا وحده ، لم لا ينزل ليلعب مع رفاقه ؟

ويسألها وهو يشير بأصبعه :

ـ الى أين يذهب هذا الشاطىء ؟

وتمسك بيده تحدق بالاتجاه الذى يشير اليه . وبدا أنها لم تفهم قصده فقالت له انه لا يذهب الى اى مكان . يبقى هنا . ويعود هو فيؤكد على أنه يذهب بعيدا ..

ـ انظرى . اله هناك بعيدا . الى أين يصل ؟

ومن جديد تقبله وتتأمله وتقول له انه أجمل ولد فى العالم . وهو يعرف انها ستقول هذا . هذه الجملة بسبقها فى الوجه تعبير ما .. تقطب ما بين الجبين وتصبح نظراتها عميقة وتقول له انه لا شك أجمل ولد فى العالم .

وقرر الا يسألها شيئا عن البحر بعد ذلك . ربما ان عمه يفيده بشىء آخر . لكن عمه أخبره بما يخيب الامل ! قال له ان حوض البحر

المتوسط هذا مستطيل شبه دائري لذا لو مشينا على الشاطىء فلابد ان نعود الى النقطة ذاتها التي انطلقنا منها . وقال له ايضـــا أن رحلة مثل هذه كانت فيما مضى ، اما الان فلم يعد في الامكان السير على الشاطىء بحرية كما في السابق .

ـ لماذا ؟

ـ بسبب اسرائيل .

ـ اسرائيل ؟

ـ نعم اسرائيل

واخبره عمه اشياء كثيرة لم يفهمها بالضبط . لكنه عاد واختصر كلامه بالقول ان اليهود طردوا شعب فلسطين من فلسطين وأخذوا كل كل شيء وقعدوا فيها .

ـ كل شيء ؟

ـ نعم كل شيء .

ـ والبيوت والبساتين ؟

والبيوت والبساتين

ـ مثل بساتين الليمون والموز هذه ؟

ـ مثلها تماما .

ـ واخذوا أثاث البيوت والمقاعد والاسرة ؟

ـ نعم اخذوا اثاث البيوت والمقاعد والاسرة . اخذوها واستملكوا كل شيء . قال عمه .

استغرب هو كيف تحدث أمور مثل هذه ولا يمنع حدوثها أحد . اخبره عما انهم قد حاولوا ، لكن التحضيرات للحرب لم تكن كافية ، وقال : سياتي يوم تقع فيه حرب طاحنة يشارك فيهـــا الناس كل الناس من أجل اعادة الفلسطينيين الى فلسطين .

اخيرا قرر أن يسأل الامين . لا أحد يجيبه بما يشفي الغليل مثل الامين . أين يذهب هذا الشاطىء ؟ حين نجتاز البيوت ونجتاز بساتين الليمون والموز وينتهي كل شيء ونمشي على الشاطىء شهورا وسنين الى أين نصل ؟

وعلى الفور فهم الامين قصده. ضحك فبانت اسنانه القوية وانتفخ خداه الكبيران كما انتفخت عضلات رقبته . تغييرات مثل هذه كانت للفته في حياة الامين حين يضحك . وهو هل يرتفع خداه مثل الامين ؟

وقال الامين وهو يشير الى البحر :

ـ انظر يا حبيبي . هذا الشاطىء يذهب بعيدا حتى أننا لا نرى آخره ابدا . وهو في رحلته يمر ببلدان جميلة ومدن لا شبيه لها في

العالم • مدينة بيضاء • ومدينة زرقاء واخرى زهرية اللون • وهتف هو بحماس •

ـ أود الذهاب الى المدينة الزرقاء •

فقال الامين بالحماس ذاته :

ـ وأنا الى الزهرية •

ـ والبيضاء ؟ سأله •

ـ نعطيها للبابا •

ـ ولون نوافذها ، اقصد الزرقاء •

ـ لون نوافذها ازرق • كلها ازرق بازرق •

ـ الا نذهب اليها ؟

وأجابه الامين بثقته المعهودة :

ـ سآخذك اليها •

ـ وهل هي بعيدة ؟

ـ نعم بعيدة • لكني سآخذك معي يوما تزورها •

ـ ونبقى هناك ؟

عندئذ سأله الامين :

ـ اتريد أن تبقى هناك ؟

ـ نعم • اريد ان ابقى هناك •

وبدا صوت الامين معاتبا وهو يقول :

ـ وتترك البابا والماما والامين ؟

وفكر قليلا قبل أن يجيب :

ـ نأخذهم معنا •

من جديد ضحك الامين ضحكته المتلئلة ثم انزله عن ركبتيه وقال له :

ـ سآخذك يوما الى المدينة الزرقاء ، لكن شرط ••

وتوقف الامين هنية بعد كلمة شرط • وركز نظره في وجهه • واضح انه قبل الشرط .

ـ شرط ـ أن تعود •• قال الامين •

انتظر طويلا والامين لا يفي بوعده • كل مرة يدعي انه مشغول أو أن والده كلفه بمهمة لا يمكن تأجيلها . حتى انه صار يمقت منظره حين يراه منهمكا مع والده مستعجلا الخروج من البيت • دائما يراهما مأخوذين بامور هامة • يتناقشان بعض الوقت ثم يخرجان • يصعدان

فى السيارة وهما يتابعان النقاش ولا يتنبها لوجوده . لم لا يذهبان الى تلك المدن الملونة ! طالما أن الامين راغب وباستطاعته أن يفعل ، فهو سيد نفسه فلم لا يذهب !

يئس اخيرا من وعود الأمين فقرر الذهاب وحده الى تلك المدينة. لبس ثياب الكشافة وعقد المنديل حول رقبته ثم عبأ المطرة ماء وحضر زاده من الجبن والخبز . دون أن يخبر احدا تسلل من المنزل باتجاه الشاطىء .

كان البحر هادئا يومذاك . شديد الصفاء . انه ليذكر هذا تماما . مثل هدوء البحيرات التى يحكون عنها . شاهد الصيادين يجرون مراكب الصيد الصغيرة من الشاطىء الى البحر ويتجهون بها الى الداخل وآخرون يجرون على الشاطىء شبكة كبيرة يفرغون أسماكها على الرمال والاسماك تتراقص . ثم رأى احداها تقفز من الشاطىء الى البحر . فرح لأن السمكة تمكنت من الفرار كما تفعل الحورية . هناك ستلقاها أمها واخوتها وستحكى لهم عن مغامرتها الفريدة وعن عالمنا ...

ورأى المراكب الكبيرة تغيب فى الداخل ويصغر حجمها. والمراكب الصغيرة تتهادى ولا تبالغ فى الابتعاد . هل يذهب اولئك الناس الى المدن الملونة ؟ كان يغامره ذاك الشعور بأن تلك المدن ومنذ ان حدثه بهذا الامين اصبحت تخصه هل سيمر بالمدينة الزهرية قبل وصوله الى الزرقاء ؟ الشمس ساطعة اشعتها تضرب الرمال والماء . حل رباط عنقه ولفه حول رأسه ثم وضع القبعة فوقه . هكذا علمهم مدرب الكشافة . تابع السير . ومن بعيد بدت له المدينة كتلة من الحجارة بيضاء وملونة . انها الوان النوافذ .

الحر شديد والسير اتعبه . مر ببساتين الليمون والموز . فكر أن يجلس تحت جذع شجرة برتاح . فتح المطرة وشرب . ثم فتح زاده واكل الجبن التى احضرها معه وبعض حبات الزيتون . كان ذلك اشهى طعام ذاقه فى حياته !

لا يدرى كم من الوقت مضى عليه وهو على هذه الحال جالسا تحت أشجار الليمون . البحر أمامه ، وخلفه تتراءى البيوت بعيدة . لكن عطشه لا يطاق . مد يده وقطف ليمونة من الشجرة التى تظله . فكر انه اذا جاء صاحب البستان وضبطه فيشرح له انه لم يفعل ذلك بدافع السرقة . وهو أكيد من أن الرجل سيقدر موقفه . سمع والده يقول مرة عن شخص قطف ثمارا من بستانه

دون اذن منه : لا بأس فهو لم يفعل هذا بدافع السرقة . ثم بعد ذلك لم يعد يذكر كيف مضى الوقت او كم من الساعات مرت وهو هنا . وفكر أنه لابد له من متابعة الرحلة لكنه ما ان هم بالوقوف واستدار قليلا حتى .. يا للمفاجأة !! اخته قد لحقت به !

يا لتلك العفريتة كيف جاءت وحدها ! لو ضلت الدرب لأوقعته فى ورطة مع والده . راح اليها يكلمها بلطف . سألها :

ـ ما الذى اتى بك الى هنا ياجا ؟

ـ رأيتك فلحقت بك . اعرف الى اين انت ذاهب . انا ايضا اريد أن أزور المدينة الزرقاء والمدينة البيضاء والمدينة الزهرية .

فقال لها :

ـ عودى الى البيت ياجاجا . ارجعى قبل ان تفتقدك الماما . اذا عرفت الماما فستضربك .

ـ وانت ؟ قالت بدلعها المعتاد وهى تتمايل ويدها على خصرها ، سيضربك البابا اذا عرف ، كبت غيظه وفكر أنه لابد له من أن يعاملها حسب سنها فقال لها :

ـ اسمعى ياجاجا . انت صغيرة ولا يجوز أن تتركى البيت دون أن تخبرى الماما . ثم لا تنسى ... أنت بنت وأنا صبى .

ـ اذا فأنا آخذ المدينة الزهرية .

ـ الزهرية ؟ لماذا ؟

ـ لانى بنت كما تقول . اللون الزهرى للبنات ياشاطر . الا تعرف ذلك ؟ الزهرية لى لانثى بنت والزرقاء لك لانك صبى .

وقال فى نفسه : ولم لا . لكنه تذكر الامين . المدينة الزهرية له. هكذا اتفقا منذ البدء . وسمعها تسأله ان كانت المدينة الزهريةبعيدة عن المدينة الزرقاء .

ـ لا . ليست بعيدة جدا . قال بثقة تشبه ثقة الامين بنفسه حين يتكلم .

ـ يعنى . ملاصقة لها ؟

ـ ليس تماما . يلزمها مشى . ومن الافضل الذهاب اليها بالسيارة .

ـ اذن آخذ المدينة الزهرية ونذهب اليها بسيارة بابا .

اجابها وهو يحاول التحلى بالصبر :

ـ اسمعى ياجاجا ، المدينة الزهرية للأمين . قال انه يريدها لنفسه . لكن اذا رضى البابا اعطاك البيضاء ..

لم يكن يعلم ان المسالة ستغيظها لهذا الحد . رآها تجلس ارضا تبعثر الرمل بقدميها وتبكي . تنتحب وتقول : الزهرية لي . اريد الزهرية .

أضحكه منظرها ولم يتمكن من كتم ضحكه مما زاد في غضبها، فقامت من مكانها وهجمت عليه وراحت تضربه وتشتمه وهومستمر في الضحك ، تركله بقدميها وتضربه بيدها حيث تطول وهو لا يتمكن من ايقاف نفسه من الضحك . حاول أن يكلمها ، يطمئنها ، يقول لها انه سيعطيها ليس فقط المدينة الزهرية بل المدن الملونة كلها . لكنه ما يكاد يفتح فمه ليتكلم حتى ينتابه الضحك من جديد فتزداد هي غيظا وتعاود ضربه . واستمرت تضربه وهو يضحك حتى احس باعياء شديد ارتخت مفاصله فتمدد على الارض واغمض عينيه ، أحس انه على حافة الاغماء . لم يكن ضيقا ، كان تلاشيا .

ويبدو أن جاجا قد خافت من هيئته هذه ، اذ ربما خيل اليها انه قد مات ، وتمنى أن يتكلم ليقول لها شيئا يطمئنها عن حاله ، حاول فأحس بضحكة مكتومة في حلقه وشبه ابتسامة باهتة تتبدد على فمه . لم يعد قادرا على الضحك او الكلام . عندئذ راحت جاجا تصرخ تناديه تتوسل اليه أن ينهض وتقبله وتطلب منه الاعتذار . ثم .. أحس بها تهزه .. تهزه .. وظلت تهزه حتى أفاق .

كانت هناك بالفعل يد تهزه .. يد سمراء غامقة عليها نقوش منمنمة زرقاء وامرأة تبتسم له ، تلبس ثوبا فضفاضا اسود مطرزا بالوان مختلفة . وجهها يوحي بالثقة وعلى راسها منديل اسود ينتهي طرفه بحواش مطرزة . وكانت تبتسم .

ـ من انت سالها ؟

ـ من انا ؟ انا اريد ان اسالك من انت وما الذى اتى بك الى هنا ؟ ابن من انت ومن اين جئت ؟

ـ انا ؟

وادرك في تلك اللحظة انه كان نائما ولما اعتدل في جلسته ورأى بقايا زاده والمطرة استرجع ما حصل . ماذا يقول لها ؟ ووجد نفسه يقول ، لا يعلم كيف جاءته الفكرة :

ـ كنت مع رفاق لي في الكشافة ، لعلهم تركوني وذهبوا أو ربما تهت عنهم لا أدرى .

ـ ساعيدك الى البلدة . قالت .

ثم هبت واقفة تنتشله . وبين ذراعيها اصبح فوق . كانت

طويلة شديدة البنية فاحس نفسه خفيفا كالدجاجة . قال لها :
ـ دعيني أمشي .
ـ ستمشي بعد قليل ربثما تصحو جيدا .
ثم بدا انها لم تصدق كذبته اذ عادت تسأله .
ـ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ قل الحقيقة .
ـ الكشافة . قلت لك جئت مع رفاقي والمدرب .
ـ اين هم رفاقك . واين هو هذا المدرب الذي تركك وذهب ؟
ـ لا أعرف .
ـ قل الحقيقة . لا تكذب .
ـ لا أعرف .
ـ الا تخاف أن تأتي وحدك الى هذا المكان البعيد ؟
كيف حزرت يا ترى انه جاء وحده ! وفجأة ساوره خوف منها فسألها :
ـ هل انت نورية ؟
ضحكت ثم عادت وعبست في وجهه لتقول :
ـ نورية امك . انا بدوية من العرب . نحن بدو . بدو سكان البساتين .

تذكر أن والدته شرحت له مرة الفارق بين النور والبدو . كان لا يميز فيما بينهم بسبب اختلافهم عن عامة الناس في الملبس . وفكر أن يسألها عن المدينة الزرقاء فهي غريبة وتسكن بعيدا وقد تكون لها معرفة بهذه الحكاية . سألها فضحكت وقالت :
ـ هذه خرافة . ليس هناك مدن زرقاء ولا صفراء . اياك ان تخرج وحدك ثانية والا أخذتك ، ليس النورية بل الغولية .
اجابها بثقة وحزم ، كما علمه الامين :
ـ الغولية خرافة . ليس هناك غولية سوى في الحكايات .
كانت الشمس قد مالت كلها الى المغيب وهما في طريقهما الى البيت . راح يلحظ ظله وظل المرأة وهي ممسكة بيده . أذرعهما على الأرض تبدو طويلة متشابكة . لم يكن خائفا . وعلى العكس فقد شعر بنفسه خفيفا واحساس دافيء كان الظلال ورطوبة البحر وهمس الامواج عند المغيب كل هذا المناخ يلامس جسده بنعومة بالغة ويترك فيه خدرا لذيذا . سارا معا حتى وصلا البلدة .
استوقفت البدوية أحد المارة لتخبره انها وجدت ولدا ضائعا

على شاطىء البحر في البساتين . في البدء ظنها تتكلم عن شخص آخر . ثم رأى الرجل يتأمله ويقول :

ـ هذا ابن فلان .. هاته آخذه لأهله . لابد أن يكونوا مشغولين البال عليه الآن .

وكم كانت دهشته كبيرة أن يعرفه الرجل وهو لا يذكر أنه رأى له صورة وجه من قبل ، كان اسمه واسم ابيه وعائلته محفوران على جبينه . فكر أن يسأله كيف عرفه لكنه لم يفعل . سار الرجل معهما حتى وصلوا الى البيت .

(٩)

كان الوقت قبل المساء وكنت ماضيا فى تدوين تلك الأشياء حين سمعت ضربا خفيفا على الباب . استرقت النظر من المنظار فلم ار أحدا ولم يتناه الى اذنى همس . هل اكتشف البطاش مخبأى ؟ او لعلى اكثرت من التجوال فانكشف أمرى ؟ وتبددت مخاوفى حين سمعت صوتا انثويا يطلب الى ان افتح . انها الصبية نفسها تلاحقنى ففتحت . وما كنت افعل حتى رأيتها تندفع الى الداخل ثم تقفل الباب بنفسها . كنت ماخوذا بما يجرى وقالت هى بانفعال واضح :

ـ ارجو الا يلاحظ مجيئى احد .

وقفت هنيهة قبالتى . عينان متحفزتان ووجه غاضب كانها تلقت لتوها اهانة لم تقو على احتمالها . قالت :

ـ ارجو الا اكون قد ازعجتك بحضورى .

وقبل ان يتبادر اى رد الى ذهنى قالت :

ـ وأرجو الا تكون رسالتى قد ازعجتك .

ـ تفضلى . قلت لها فتابعت :

ـ كن صريحا . ان كانت هذه الاشياء تزعجك انزل فى الحال .

وكانت تعود . استدارت بعصبية فقلت لها دون اصرار :

ـ تفضلى يا آنسة . تفضلى . أنا لا أدرى عن أى الاشياء تتكلمين، انما يمكنك ان تجلسى .

جلست الى اقرب كنبة للباب وكان ارتباكها واضحا . فكرت ان احدثها لاخفف عنها . وترددت قبل ان اسالها :

ـ لم المحك ابان الهدنة . لعلك تذهبين الى المدرسة ؟

رفعت عينيها الى السقف ، كما تفعل فى الملجا وقالت :

ـ لا . ذهبت مع والدتى الى القرية .

ـ لكم مسكن فيها ؟

ـ نعم .

ـ وكأنها فهمت قصدى فتابعت :

ـ والدى قرر العيش هناك نهائيا وعاد يزرع الأرض . واخوتى معه .

ـ صغار ؟
ـ لى أخت تكبرنى تهتم بهم . انما والدتى تصر على البقـاء هنا .
ـ فى هذه الحرب ؟
ـ نعم من أجل أخى .
ـ أخوك ؟
ـ نعم . الشاب الذى رايته معنا فى الملجأ أول قدومك .
عفريتة تذكر كل شىء ! كنت لمحت أخاها ، كان ذلك فى بدء اقامتى هنا او ربما فى أول مرة نزلت فيها الى الملجأ . رايته مرة واحدة ثم لم أقابله بعد ذلك .
ـ وأخوك ماذا يفعل ؟ سألتها .
ـ مقاتل ومسئولياته كثيرة . بسببه أمى لا تفارق بيروت .
ـ لكننا لا نراه أبدا .
ـ يأتى من حين لآخر . فى هذه الأيام قلما يأتى . هو ليس مقاتلا عاديا بل مسئولا ووالدتى تكره ان تكون بعيدة عنه . تبقى هنـا لتطمئن على اخبـاره . وحين يأتى الى البيت تغسـل ثيابه وترتب اغراضه . ضحكت واردفت : وانا اطبخ له الماكولات التى يحبها .
حكاية غريبة ! اذا كان اخوها مقاتلا ومسـئولا ويبيت معظم أوقاته خارج المنزل فما حاجته بأمه وبرعايتها ! الفتاة تبدو معجبة بأخيها . وكلمة مسئول تخرج من فمها بكثير من الاكبار .
ـ أنت لا تذهبين الى المدرسة اذن . اقصد أوقات السلم ؟
ـ لا .
وعادت تنظر الى السقف . زال الغضب والتحفز عن وجهها فبقى حياديا دون تعبير . ثم خرجت عن صمتها لتقول :
ـ فيما مضى كنت أذهب الى المدرسة لكنى تركتها منذ سنتين.
ـ لماذا ؟
ـ من أجل اخوتى .
وكأنما أدركت انى لم أفهم قصدها فقالت :
ـ المدرسة التى كان يتعلم فيها اخوتى تقع وراء طريق القناص. توجد درب لا يطالها القناص . تقريبا لا يطالها . لكنهـا بعيـدة ومعقدة . كنا نخاف عليهم أن يتوهوا . تركت أنا المدرسة لأصحبهم اليها فى الذهاب والاياب . صغار ولا يمكنهم الاسـتدلال عليهـا

بمفردهم . لو تاهوا وقعوا فى شارع القناص . كثيرون قتلوا بالقنص هناك مثلما حدث لعباس ابن الجيران .

ــ لم لم تلتحقى بمدرسة أخوتك ذاتها ؟

ــ مدرستهم ابتدائية وانا كنت فى الاعدادى .

سادت فترة صمت . وكأنها قرأت أفكارى فقالت :

ــ حين تركت المدرسة كنت فى الرابع اعدادى وكان أمامى سنتان لآخذ البكالوريا . لكن الظروف ...

ولذنا بالصمت من جديد ، وعاد وجهها متحفزا فبدت غاضبة مرتبكة . تجلس على الكنبة ، لا تستند اليها فتريح جسدها ، بل تكتفى بالجلوس على حافتها . تبدو خجلة من نفسها ومستغربة . فكرت أن أبدد غربتها بشىء فسألتها :

ــ وكيف تقضون أوقات السلم هنا ؟

تنهدت ، نظرت الى السقف وهى تقول :

ــ نضجر . نموت من الضجر . منذ سنوات ونحن على هذه الحال لا نعرف من الدنيا سوى جدران البيت والمخابىء والصواريخ .

ــ وأيام السلم ؟

ــ ايام السلم نموت من الضجر ايضا .

ــ غريب . ولم تموتون من الضجر ؟ أوليس لك صديقات واقارب ؟

أنا وصديقتى تغريد نموت من الضجر . وكدت أسألها عن صديقتها تغريد لكنى أمسكت ولم أقل شيئا وقالت هى :

ــ صديقتى تغريد سافرت الى الشام . لهم أقارب فى الشام . ذهبوا اليهم لقضاء فترة . لكنهم سيرجعون حتما . وحين تكون هنا يكون الوضع افضل لكن أهلنا لا يدعوننا نخرج . يخشون أن يتجدد القصف فى اية لحظة . نبقى هنا فى الجوار . واحيانا اذهب مع أمى الى بعض الاقارب فيمضون الوقت بالحديث عن القذائف . كل واحدة تحكى قصة الصاروخ الذى كاد يقع على راسها لكنه لم يقع .

وضحكت انا للفكاهة . لكن وجهها الذى بدا ضجرا فى تلك اللحظة أعاد الى رصانتى فسألتها :

ــ ماذا تشربين ؟

ــ لا شىء . ارجوك لا تتعب نفسك . يكفى أنك تستقبلنى . لا أطلب اكثر من ذلك .

صوتها الآن مضطرب وذليل . لا كفتاة تهرب من طاعة أهلها بل كامراة ريفية رمتها ظروف قاهرة فى خضم مدينة صاخبة ، هل انا ذاك الرجل الذى كما فى الافلام تقابله تلك المرأة وتتنسم فيه بارقة أمل ؟ والفتاة هذه لعلها تشعر بوطأة النظر اليها ففى لحظات قصار رايت وميض التحفز فى عينيها يتحول الى ضوء خافت ومستسلم . عيناها السوداوان توقفتا فجأة عن التوهج لتلقيا على الاشياء فى الصالة وعلى ايضا كل هذا الاستسلام . لم هذا التعب كله وأين التحفز الذى لاح منذ لحظات والذى يبرق فى وجهها حين تكون فى الملجا ؟ فتاة مراهقة تتحول لا أدرى كيف الى امراة ناضجة مكتملة الصورة ، رزينة وذليلة . حولت النظر عنها وقمت افتح النافذة واسألها :

ـ ما رايك بقدح شاى ؟

انكفأت على نفسها وكأننى رايت كتفيها تنقوسان الى الامام . اخفضت راسها فتولت نظراتها عنى وهى توميء بالايجاب .

دخلت المطبخ أحضر الشاى وقد اعترانى فجأة هدوء كبير . ما حكايتها ياترى ؟

وفرغ راسى من الأفكار والاحتمالات التى ضربت فيه حين فتحت لها الباب . وأحس بها الآن تلاحقنى وتراقب تحركاتى وانا أحضر الشاى واضع الأقداح على الصينية .

حملت الشاى الى الصالة فقامت وقربت على الطاولة الصغيرة لاضع الصينية عليها . قدمته لها مع قطعة كيك . مالت برأسها قليلا ثم عادت واعتدلت فى جلستها وشبه ابتسامة ظهرت على شفتيها . كأنها تسخر من مجيئها الى . وتحولت الابتسامة الى ضحكة قصيرة باهتة ما لبثت أن تلاشت بينما كانت تتناول الشاى وقطعة الكيك ، تركز نظراتها على حافة القدح أو فى زاوية ما قبالتها . وانا اصبحت مثل هيكل بشرى فرغ من المشاعر والتساؤلات ولم يبق فيه سوى ذاك الاحساس الغريب ، بانى هرمت فجأة ورحت الى جزيرة نائية فى عرض البحر اعيش فيها وحدى حياة بدائية . واذا بمخلوقة تفاجئنى بحضورها . تخرج الى من عمق البحر وانا نسيت أصول التعامل مع امثالها . وفيما انا ماخوذ بافكارى حدث ما لم يكن فى الحسبان . ما كادت الفتاة تنهى قدح الشاى وتضعه جانبا على الطاولة حتى رايتها ، وبحركة عصبية تندفع نحوى لتركع

امامى ، بينى وبينها الطاولة الصغيرة فقط . وتقول تسترحمنى وهى على كافة البكاء ، تقول :

ـ ارجوك ساعدنى . انت الوحيد الذى يمكنه مساعدتى .

وهبطت على الحكمة مثلما هبطت هذه الصغيرة وركعت امامى تسألنى أن اساعدها لا أدرى بأى شىء ! أنا هو ذاك المجـوز الذى اصبح بعمر التاريخ . له عين مثل منظار يكشف ما كان يحدث قبل آلاف السنين وعين اخرى . ساهرة تراقب ما يحدث هنا بقبـول تام لا اعتراض فيه ولا تذمر . وهذه الصـبية تسـأل ، تلح أن أساعدها .

ـ ارجوك ساعدنى .

ـ اساعدك طبعا ، ان كان فى مقدورى ذلك . لكنى يا آنسـة لست على علم بشىء . اين اهلك ؟

ـ دعك من اهلى . قلت لك ان امى فى القرية واخى لا يأتى الا نادرا . دعك من هذا وساعدنى أنا .

ارغب حقا فى مساعدتها لكن كيف ؟ اتكون باترى واقعة فى ورطة لا قدرة لها عليها . اتكون هى الاخرى ملاحقة من شخص ما لاستطيع الفكاك منه ؟ لا . لايبدو انها من صنف الفتيات هذا . اهى حامل دون زواج ؟ ان كانت كذلك فلتذهب عنى . تكفينى الورطـة التى انا فيها . وان كانت تبغى مساعدة ما فلتذهب الى غيرى . بمكننى مساعدتها بالمال ولتحل هى مشكلتها بنفسها . ثم لم هى راكعة هكذا ! لم لا تجلسين كما كنت . الى الكنبة ؟ لم لا يهبط عليها ذاك الحزن الذى كان يلوح وجهها منذ لحظات ويحيلها الى امراة ناضـجة ومسئولة !

تناولت من جيبى بعض المال مددته لها وقلت :

ـ عودى الى مقعدك . وان كنت تحتاجين اكثر فانا مستعد .

دفعت يدى : بكفها وعاد الغضب والتحفز الى وجهها .

ـ لا أطلب المال ، ولا حاجة لى به .

ـ ما الذى تطلبينه اذن ولم انت راكعة هكذا ؟ عودى الى نفسك يا آنسة واحكى لى مشكلتك لكى افهم .

ـ لا . لا اقدر . لا أقدر ان اشرح لك . لابـد وان تعتبرنى مجنونة . نعم انا مجنونة لو قلت لك ما سأقوله لاعتبرتنى فاقـدة العقل . لكن لابد من ذلك .

لابد ! لابد من ماذا ؟ أى شيء تبتغيه هذه الفتاة ؟ وقبل ان افتح فمى لاقول لها ان صبرى قد نفد وانه ليس لدى وقت اضيعه فى ترهات كهذه وانى اضيق بمنظرها راكعة هكذا اذا بى اسمعها تقول، وباستعطاف :

ــ تزوجنى . ارجوك تزوجنى . لابد ان تتزوجنى . ان تزوجتنى تحل المشكلة .

قالت هذا ثم قامت وتراجعت الى الوراء كأنها لتتفادى منى ضربات تخشى أن انزلها بها . كنت غير مصدق ما يجرى . والحكمة التى تفتحت لى مغالقها منذ لحظات ؛ كأنها أثلجت حولى وتركتنى مستسلما متأملا . لم أعد أراها . اعرف انها رجعت الى المقعـــد لكنى لا اراها . لا ادرى لم عدت فى تلك اللحظة شـــاهدا فى عمر التاريخ . رأيت الانسان الاول فى بدء الخليقة يسعى فى الادغال بحثا عن الرزق . مخلوقا لا يشبه غيره فى المخاوقات . أناس يتنقلون كيفما اتفق من أرض لارض . يعبون كصغار القطط بلا انتقام ويدبون كجيوش النمل من مكان لمكان . وناء تنمو فى احشائهن ثمار وصـال لا يعرفن كيف حدث . يتكاثرون ويخلفون قبيلة هنا وقبائل هناك والأرض تمتلىء وتفيض بالبشر ثم تكمل دورتها . نعم كل شيء بدا لى معقولا فى تلك اللحظة : الاقتتال والسلم والاستسلام والعفـــة والنزاهة والدعارة والغش والأمانة ، كلها من مسلمات هذا الكون ؛ فالحكمة فى البقاء والاستمرار فى العيش هو الأساس وسمعتها تكرر القول !

ــ اقسم لكَ انى ساجعلكَ اسعد رجل فىَ الدنيا .

نعم تراءت لى العصور تتوالى كالفصول . عصـــور امطار والانسان فى بدء تجربته يلوذ الى مغاور فى بطون الجبال . ينظر من شقوقها الى خارج يضرب فيه سيل نازل من سماء . أين حـدود الكون ؟ يتملكه خوف وتستولى عليه مشاعر غامضة . متى ينتهى كل هذا ؟ وعصور جفاف ، جسده ظمآن والأرض أرض يابسة ، يستعطف السماء قطرة ماء . لا فائدة . شمس حارقة تحـدق بأرض مستعرة وهو يطوف بأسمال من غبار . ثم تدور الطبيعة دورتها وتصطدم العناصر بعضها ببعض ويبرق البرق ويقصـف الرعد ويهطل المطر وأسمعها تستعطف تلح بالقول :

ــ أم انكَ لا تصدقنى ! تاكد ساجعلك اسعد رجل فىَ الدنيا .

نعم وجيوش الاسكندرية تغزو سواحل بيضاء زرقاء تتمنع عليه

مدن وتستقبله مدن . يهدم ويردم . وأباطرة رومان يختـــالون في أروقة الحكم يقررون شرائع ويقيمون حروبا وعساكر التتار تتدفق في بقاع الارض . عصور تجل وعصور انحطاط . فصـــول ازدهـــار وفصول كســاد . حضارات سائدة واخرى بائدة ، وتكر المســـبحة ويتشكل العالم على الصورة التي نحن فيها وتنشب الحرب الاهلية ويخرج البطاش من السجن ويطلبني للثار واتلقى انا البرقيـــــة القائلة : عودتك ضرورية . واعود لاشغل هذا المكان الغريب وتاتيني هذه الفتاة المتحفزة الذليلة لتنشر الارتباك في قلبي وتوقعني في شرك الحيرة وتطلبني للزواج واســـالها برفق ابوي وانا ما ازال متسترا في مكاني مثل تمثال سيدتنا مريم العذراء ، اقول لها :

ـ هلَ انت حاملَ ؟

واسمعها تصرخ مستهجنة :

ـ حامل !

واحس بضربة كف منها تنزلَ على وجهي وهي تقولَ :

ـ انتم الرجال لا يهمكم في الدنيا سوى هذه الاشياء الدنيئة .

نعم . ضربة كف تلقيتها كهذا منها على وجهي ! والغريب انه لم يصدر عني اي رد فعل . لا .. ولا اي انفعال ابدا ! مثل قديس ينظر الى ما يدور حوله لا باعتبار ما كان بل بتصور ما يكـون . لا اشعر بالكف وقد انهال على بل ياخذني ذلك الوجه المعذب وجنون هذه الفتاة التي تطلبني للزواج . كثيرون جنوا بسبب الحـــرب

او اصيبوا بلوثات وقد تكون هي واحدة منهـــم ، ما الذي يدريني فانا لا اعرفها . لم اقابلها سوى في الملجا . هذا لا يؤكد ولا ينفي شيئا فالكل هناك يبدو عاقلا مجنونا . لكن وجهها في الحقيقة لا يوحي بهذا . وتقاسيمها ـ لولا هذا التحفز وذاك الغضب ـ تنم عن اتساق يقارب الكمال . وبدت لي اكثر من اي وقت اشبه بمنحوتة يونانية برع فنان في نحت دقائقها . لكن ان تطلبني للزواج ! في هذا مايثير الشك فعلا . لعلها مجنونة ! من اين لي ان اعرف ، وهـــل لكل مجانين العالم تقاسيم متطابرة ؟ ما اسـخف افكاري ! ثم لا ادري كيف خطر لي ان اقول لها :

ـ انا يا آنسة متزوج ولا يمكنني باي حال ان اتزوجكَ .

ـ لا . غير صحيح . قالت محتجة وعادت تقف وراء الكنبـة تخاف ان الحق بها اضربها او اطردها . لست متزوجا . لا اصدق .

لا يبدو عليك ذلك . هيئتك لا تدل على انك متزوج . لو كنت متزوجا لما سكنت هنا . اعرف كل شيء . كنت مسافرا ورجعت . تزوجني. لن تخسر شيئا . لم تضعني في هذا الموقف الصعب ؟ ام انك تريد مزيدا من الاستعطاف ؟ تاكد انك لن تخسر شيئا لو تزوجتني . على اي حال ان لم اعجبك تطلقني .

يا الهي .. لم لا تغادرني اسباب الحكمة فاثور في وجه هذه المجنونة او اطردها ؟ لا اعرفها ولا تعرفني وما رايت لها صـــورة وجه في حياتي وتطلب مني هكذا ان اتزوجها واطلقها ! انها مجنونة لاشك في ذلك . وها هي تتوســـــل الى طالبة الجواب وتدعي أن الذي يضع الاخر في موقف حرج انا وليس هي . من هي هذه المخلوقة، وما هي حكايتها ؟ لابد وان تخبرني بالحقيقة ، اهي مطاردة ؟ ملاحقة مثلي ام انها مطرودة مشردة تركها ذووها ورحلوا او تخلوا عنهـــا الى الابد ؟ وقلت لها :

ــ لابد أن تخبرني بحكايتك ياآنسة . حاولي . اهدئي ، اجلسي واخبريني .

لاحظت اني .. كلما سالتها ان تخبرني بقصتها عاد الغضب الى وجهها والتبرم . تعابير رافضة تقول : مستحيل .. لا . لن احكي. ابدا لن اقول . وتهز راسها بالنفي وتقول وقد بدا صبرها نافدا :

ــ فيما بعد . فيما بعد اخبرك بكل شيء . تزوجني الان . قلت لك ان لم اعجبك تطلقني . غريب امرك وما الذي ستخسره ان فعلت؟

قالت هذا ثم عادت تجلس على الكنبـة . وكانهـا تلعب دورا في مسرحية اخذت تعدد :

ــ ساكون زوجة مثالية . والبي كل طلباتك . ثم اني ربة بيت ممتازة . وطباخة ماهرة . اخي يفضل الطعـــام الذي اطبخـه أنا . تصور ! واتقن الاعمال المنزلية ايضا . بيتنا يظل نظيفا كمستشفى. ويشهد الجران على ذلك . لو جئت يوما الينا فسترى كيف أن ..

ثم .. نعم رايتها تهب واقفة وتندفع نحو المطبخ فظننتهـا تبغي كوب ماء . ولما سمعت رنة الكئوس تاكد ظني فتركتها تفعل . لكنها حين ابطأت في العودة وتلاحقت اصوات الكئوس المنبعثة من هنـــاك ساورني شك ما .. قمت ولحقت بها . كانت قد رتبت الصـــحون والاقداح في الحوض وبدات بغسلها . اما كيف تسنى لها ترتيب ذلك كله في لحظة ؟ لا أدري . وعاء مملوء ماء تطفو منه رغوة الصـــابون واسفنجة التنظيف في يد والصحن في اليد الاخرى . كانت قد بدات

العمل عصبية رشيقة ومتحمسة . حاولت انتزاع الصحن من يدها . مستحيل . لا فائدة . « سترى بعينيك وتشهد على مهارتي » .

وتحولت يداها والرغوة والصحون الى سلسلة من حركة رشيقة متوترة وشعرها الاسود يهتز على كتفيها وانا الح عليها أن تكف عن ذلك . أمسكتها وشددتها الى الوراء . قلت هكذا يفلت الصحن من يدها فينكسر من تلقاء نفسه . لا فائدة . تشبثت به ورغوة الصابون آخذة في التكاثر أمامها تعلو وترتفع . لا أدري ماذا فعلت لتحصل على هذه الرغوة !

لا شك في أنها قد افرغت سائل الصابون كله في الوعاء .

الفقاقيع تتدفق على الحوض وجوانبه وبعضها يعلو . بلهاء قلت لها . نعم أنا بلهاء . وسترى كيف تغسل البلهاء الصحون .

تركتها ورحت اقف عند باب المطبخ أنظر اليها مترددا في ماأفعل احتكاك السكاكين والملاعق والشوك يحدث أصواتا صغيرة متناغمة . تيك تاك . تيك تاك تيك تاك . كأنها تغسل على انغام معزوفة والرغوة مع الانغام تتعالى . أهي تغسل أم تضرب على درامز ؟ الرغوة مستمرة في الارتفاع حتى أصبحت أعلى من قامتها . تطايرت في كل الاتجاهات أمام وجهها فوق راسها وانا اتمنى لو اضربها . ارجوها أن تكف رجاءها أن أتزوجها وهي تتابع عملها بعناد واصرار . تيك تاك تيتك تاك وقامتها منتصبة مثل غصن الخيزران وشعرها يتراقص على كتفيها مع أنغام الغسيل والرغوة تتطاير في فضاء المطبخ بيضاء مثل ندف الثلج وتخرج من النافذة ومن الباب وتتدافع وتمر أمامي الى الدار وتسقط على الارض وتقبع عليها مثل بالونات صغيرة شفافة تتكدس . هي تغسل هناك والبونات تتكدس هنا وظلت على هذه الحالة حتى انتهت من غسل الصحون .

جاء دور التنشيف . طبعا حسب الاصول ولكي تثبت لي جدارتها راحت تنشف الاواني التي غسلتها . تنشفها وتضعها جانبا بالرشاقة ذاتها وحركة العزف على الدرامز . يداها والصحن وقطعة قماش لا أدري من أين أحضرتها . حفيف القماش على الاواني يبعث صوتا لا كالتكتكة بل كالوشوشة . وش وش ... وش وش .. ثم ترمي الآنية جانبا فأخالها ستنكسر . لو رميتها أنا هكذا لانكسرت بالتأكيد لكنها بين أناملها الرشيقة ، كأن سرا في أناملها ، ترن ولا تنكسر . ولما تكدست الصحون حملتها وذهبت بها الى خزانة الاواني ووضعتها

في مكانها تماما • نعم • لم تخطيء المكان • ولما انتهت حمدت الله على ان العملية قد تمت بسلام •

حين رأيتها تقف في باب المطبخ تتأمل الصالة وتتلفت نحو الغرفة توجست شرا • تتفحص أركان البيت تصر على اسنانها كأنها تصمم امرا • توجست شرا وقد وقع بالفعل ما كنت أخشاه • رأيتها تندفع الى الدار تماما كما اندفعت الى المطبخ منذ لحظات • سأدبر كل هـذا الان • قالت تكلم نفسها ولا تكلمني • يجب أن انتهي من كل هذا • كم الساعة الان ؟ نظرت الى ساعتها ولم تنظر الى ثم راحت تعمل •

كانت الظلمة منتشرة في كل مكان في الخارج والليل حالكا • وضوء الغاز الحاد يتلألأ كأنه يتلألأ خصيصا ليغيظني وانا اتأمل هذه المخلوقة العنيدة • لا أدري كيف تم ذلك •• مثل الحكايات وقصص الف ليلة وليلة • تعمل لا كامرأة بل كساحرة دبت في أناملها جنيات عشر يقمن بالعمل بدلا عنها • هكذا انقضت على كل شيء وأنا غير مصدق ما أرى • وحتى بعد ذلك بزمن ظلت صورتها تعاودني وهي تتسـلق النوافذ ، تتأرجح على الابواب تصعد فوق الخزانة • تنزل وتطلع • تكنس وتمسح . تنظف وترتب . تنفض الغبار وتخرج الى البلكـونة تنفض القماش من غباره ثم تعود لتجر كرسيا بيد وباليد الاخـــرى تصلح من وضع الطاولة • تتحرك والنوافذ مشرعة والدنيـــا ليـــل والصمت مطبق وليس من ضوء سوى مصباح الغاز • تتحرك لا كآلة بل كعشر فتيات اتفقن على أن يعملن معا • ينسقن ويتبادلن فيما بينهن اخالها وهي رائحة غادية كأنها تلتقي بظلها أو تنعكس صـــورتها في الادوار • لا تستقر لحظة في مكان وكأنها موجودة في كل الاماكن معا اخالها وهي رائحة غادية كأنها تلتقي بظلها أو تنعكس صورتها في مرآة أو تتقاطع خطواتها بخطوات قرينة لها فلا تصطدم بها بل تخلي لها الطريق • تؤدي لها التحية ثم تتابع مهمتها والاغرب من هذا أنها لم تكن تطلب مني استشارة أو رأيا • تتناول جريدة لتلميع الزجاج دون استئذان وهي أكيدة أني سارمي الجريدة في الزبالة • أو تأخذ قطعة قماش تمسح بها الغبار فلا تسألني ان كنت سأستعملها لغاية اخرى • ودون أن تسألني عرفت مواضع المكنسة والمقصف والمقشة واوعية الماء والاغراض والادوية اللازمة للتنظيف • وخطر لي لشـــدة غيظي وتجاوزها ارادتي أن أقوم والخبط كل شيء . اومي الزبالةعلى الصحون والماء المتسخ على الارض والخبط الكراسي والمقاعد وأعيد نثر

التراب والغبار فى فضاء البيت . لكن خشيت ان ادخل واياها فى حلقة مفرغة . هى تنظف وترتب وانا الخيط واوسخ الى ما لا نهاية. جلست مكانى فاقد الارادة . ولم الاعتـــراض ؟ فرغبتهـــا هى التى ستنتصر فى نهاية الامر . اكلمها فلا تصغى بل تتابع مهمتها منتصبة القامة عنيفة الحركات وشعرها المتراقص على كتفيها يزيدها عنادا وانا اشاهد كل ذلك على ضوء مصباح الغاز مشاهدتى فيلما سينمائيا او صورا تراءت لى فى المنام . وكان الظلام فى الخارج وبعض طلقـــات الرصاص التى من حين لاخر تشق صدر الصـــمت يزيدان من غرابة الاشياء وهذا الاحساس بأن انفصاما كونيا قد حل فى المكان فطلـع علينا النهار فى الداخل وظل الخارج يغط فى ليل كثيف .

وعندما انتهت من كل شىء دخلت الحمام . قدرت أن تكون راغبة بالاستحمام بعد كل هذه المشقة . لم يكن هذا ليدهشنى ابدا . ماأحل الدهشـة فى قلبى منظرها وهى خارجة منه . لم تكن ترتدى بنطالها الجينز وقميصها اللذين حين جاءت الى كانت تلبسـهما . بل خرجت من الحمام بعباءة بيضاء طويلة وقد عقصت منشفتها الزرقاء حول راسها وتركتها تتدلى من الخلف كالضفيرة . من اين اتت بالعباءة ؟ أكانت تحملها معها منذ قدومها وفى غمرة الاحداث لم أتنبه انا لذلك ؟ وهى الان بهذين اللونين الازرق والابيض تبدو مثل فتيات معابد الرومان . حين خرجت لم تنظر الى بل اتجهت الى الصالة هادئة مسترخية . كانها ليست فى بيتى بل فى بيتها . حتى اننى شككت فى الامر . اهى الفتاة ذاتها التى كانت منذ لحظات تنظف البيت ام انها اخرى هذه دخلت الحمـــام وخرجت تلك منه ؟ وهى . وهى ، بهذه العباءة المسترخية التى لاتكاد تلامس جسدها وتلك الضفيرة التى تتهدل دون مشقة. تبدو مثل اميرة فى بلاطها . نامت الحاشية ونام سكان القصر وظلت هى ســـاهرة دون ارق . تحلم بالقمر والنجوم وتتامل السكون واشياء غامضة .. لم اكن أنوى على الاطلاق ان افعل اى شىء واظنها هى ايضا كانت قد اقلعت عن فكرة الزواج بى بل ونسيتها تماما . لم تكن تنظـر الى . واحسست بنفسى اقوم اليها وآخذها فى احضانى واقبلهـا بلهفـة عاشق انتظر محبوبته دهرا وتستسلم هى لقبلاتى . نعم أحسست بذلك واظننى أنها من ناحيتها كانت تدرك ان شيئا من هذا القبـــل قد يحصل . مثل عاشقين أسرا زمنا فى حالة انتظار كحصار ولما التقيا قاما فى غمرة اللهفة والاندفاع بالاشياء التى طال الحلم بها . تأرجحا فى أرجوحة الشوق والرغبات المستحيلة . كلما حاولا ابتعادا انزلقا

حنايا الجوى وازدادا اقترابا والتحما ذاك الالتحام الذى لا يحدث
في المنام • ولما بلغهما ما يشبه الصحو وجدا نفسيهما على حافة
ربان • هكذا لما أفقت كنت مشلولا برغبتى فى عناقها عناقا لاينتهى
فوذا بهذه الاحاسيس العنيدة ، منتظرا حدوث ما لم يحدث حتى
كلماحاولت استذكار ما جرى أتتنى صور مغبشة من حلم قديم ،
أعود متيقنا من شيء • ويخيل لى أنها تركتنى مســـتلقيا على ذاك
د أعالج أحاسيسى وقربى مصباح الغاز وقد تضاءل فيه النور حتى
ينطفيء • ودون أن تكلمنى فتحت الباب فلم يبدر عنه أى صوت
نت بالجو ، وألقت على تلك النظرة •• عيناها الان ليستا متحفزتين
هادئتين مستقرتين كعينى اخيها • ألقت على نظرة لا أقول انها باردة
اكاد أقول منسحبة . وبخطى اثيرية رقيقة غادرت المكان وتركتنى
ى فاقد السيطرة على استرجاع ما حصل •

منذ تلك الحادثة حادثة أم فادي فقدت الرغبة في تدوين الاوراق اي شيء يدعوني لاسترجاع المأساة بالكلمة . الا تكفيني شر معايشتها في الواقع ! ثم من ذا الذي يرغب في مشاطرة الاخرين الاهــوال ! وتذكرت عجوز القلعة ومملكته الرحبة التي شادها في صرح خياله وفكرت أنه من الاجدى لي أن أحذو حذوه ولتدفن هــذه الحادثة في خاطر زمن منحني . لكن هناك أشياء لا تفلت من الذاكرة الا لتعـود اليها .. كل واحد يدرك بالتجربة ان ابن ادم مفطور على النسيان . تلك فضيلة يداوي بها الالم حتى ليخيل اليه ان ما جرى له البارحة ليس سوى كابوس فرد عليه جناحيه ومضى ، أو لعله أشبه بحادث وقع في زمن عابر غارت بصماته في اعماق لا يجهد النفس في نبشها

. لكنه فيما بعد .. حين تنقشع الذاكرة وتطفو بؤرة الوعي على السطح يروح يستذكر ما جرى فيذهله كيف أن أمورا كهذه ظل يخالها طوال حياته وقفا على الاخرين ، قد حدثت له هو أيضا ! وتشده بؤرة الوعي الى تفاصيل ماحدث فيقاوم . لكنه يعود وينهزم . فيتذكر كيف ألقت المرأة الحامل برأسها على الجدار تميل به مرة الى هذه الناحية ومرة الى تلك ويدها على بطنها وآم لا صوت لها بل لها معالم وهمسات تتحرك على ذاك الوجه المعذب . ويتذكر كيف تحلقت النســوة حـول المرأة يستفسرون عن حالها وكيف تجمع الرجال بعيدا يتســاءلون هل في الامكان نقلها الى المستشفى ، ويتساءلون عن ســيارة الصـليب الاحمر . ويسألون عن قابلة قانونية ويســألون عن طبيب . لكنهم يتذكرون أن الدنيا ليل والظلام شديد والقصف أشد وأن المتقاتلين لا يميزون في حلكة الليل والمعارك ســيارة الاسعاف العسكرية أو المدنية وأن لا أحد يغامر في التنقل الان فالمستشفى بعيد والخطر شبه أكيد . من يأتي لها بطبيب ؟ اي طبيب يجرؤ على الوصــول الى خط النار ؟ وهؤلاء الرجال ، كل واحد منهم متورط بذاك الاحســاس أنه هو المسئول عن نقل المرأة الى المستشفى . كل واحد منهم يتمنى لو تحصل معجزة فيتوقف المتحاربون عن الاقتتال ويســوى الامــر . والاطفال لاذوا بصمت مهيب . يحملقون بالمرأة ولا يعلقــون بشيء

وابنها فادى غفا قبل ان ياتيها المخاض والمرأة الشاحبة دخلت في حالة من الاعياء كالانهيار كانها ستلد هي الاخرى · لكن لا أحد يوليهـا اهتماما هذه المرة ، فالكل منشغل بما يجرى في الناحية الاخرى من الملجا · والنسوة تشجع المرأة بالقول ان المسلحين يفكرون باحضار طبيب والمرأة لا تعلق بشيء ، تبدو مستسلمة لمصير ما يائس · عيناها مثل رقاص الساعة ، تنتقلان بين الحاضرين تستعرضهم فردا فردا تسترحمهم بالنظر دون الكلام . ولما القتهما عليه احس بنفسـه وقد اصبح مشدودا الى فكرة ثابتة استقرت في ذهنه لا تغادره الا لتعـود اليه · يقلبها فيراها منطقية ويخطر له أن يصارح أبا سليمان ثم يعود لينزعها من رأسه اذ تبدو له فاقدة المنطق تماما · حكايات كثيرة يتناقلها الناس عن عجائب حصلت في الحرب · تقول ان القيادات هنا تتصل أحيانا بالقيادات هناك ، يتفقان على هدنة صغيرة لنقـل امرأة تلد أو فتح معبر لنازحين من ضفة أخرى · هكذا خدمات تلبى حاجات تكون نتيجتها وقف الاقتتال . القذائف تتساقط قريبا وبعيدا والعمارة تميل هذه المرة ليس فقط الى ناحية اليسـار بل تتمايل كارجوحة في كل اتجاه وأبو سليمان يقول ان عجائب مثل هذه قد حدثت بالفعل انما في ظروف استثنائية · عجائب مثل هـذه وأكثر انما في أحوال خاصة · عجائب أشد من العجائب لكن بنـاء لطلب هيئات عالمية ونحن وأمثـالنا ، يا حسرة ، أناس لا حول لنا ولا قوة الولادات تحدث كل يوم في الملاجيء تحت اقتتال فاجر ماجور هـذا وأكثر · كيف تتم ؟ لا أعلم ، يقول ، ولا أحد يعلم والكل يدور مكانه يحدث نفسه ويحدث الاخرين ولا يقول شيئا مفيدا ويتدخل الرجـل المسن ليبادر الى اتخاذ الموقف بالقول : يا أخوان لابد من اخلاء الملجا للمرأة الحامل ، وكلمة الرجل مسموعة ويهم الرجال بمغـادرة الملجا واقتحام منفذ الخطر عند المدخل لكن لابد من ذلك · والخـروج من الملجأ يثير مسألة أخرى : الى أين يذهب هؤلاء ومعهم الاطفال ؟ وتتعدد الاقتراحات : المدخل أكثر أمانا · لا الطوابق السفلى هي الاكثر أمانا وتصيح المرأة الشاحبة · السلالم هي الاكثر أمانا · وتبدو السـلالم مطلبا ملحا في كلامها ويعترضها الشاب لاعب الباسكيت بالقـول ان السلالم تكون بالعادة عشة وعرضة للسقوط · لكنها محاطة من كل الجهات تقول المرأة · ترد عنا الشظايا · تقولها بهلع · الشـظايا ! ويحسم الرجل الجدال حين يؤكد على ضرورة اخلاء الملجأ ويقترح أن

يجلس كل واحد منهم حيث يشعر بالامان . هكذا أخلى الملجأ . الواحد منهم تلو الاخر عليه أن يجازف بالخروج واللحظة الحرجة هى لحظة اجتياز المداخل .

المراة ام الصغير هادى كانت وحدها هذه المرة . صديقتها تساعدها تحمل الابنة الصغيرة وهى تحمل هادى ، تقدمت مثل غيرها ثم بدت وهى تقف وراء الباب متلكئة . القت على الواقفين وراءها نظرة زائغة تماما مثل نظرات المراة الشاحبة والرجل يشجعها بالقول : ان شاء الله بالسلامة . تندفع هى بالخروج ويدوى صاروخ فوق الرءوس ليتبعه صاروخ . صاروخان انفجر الواحد منهما قبيل الاخر والمراة تزعزعت مشيتها وترنح جسدها وكادت تقع بالطفل لكنها لم تقع . لزعيق الصواريخ هذا اليوم ريح تنفخ في الاذان . هل سيصابون بالصمم ؟ هل ستتمزق ضلوعهم ؟ سمع بحكايات عن اناس اصيبوا بانفجار فى ادمغتهم فى ظروف كهذه وها هى الدماء تنسحب الى راسه والريح تنفخ فى اذنيه ويكاد يغيب عن الوعى وهو يعبر العتبة . نعم لن يكون فى مقدوره استرجاع كل هذا . لا يدرى لم يشعر بالذل .. كلما استعاد ذلك فى ذهنه أحس بالمهانة . والصغير هادى يسال امه عن فادى ، ابن التانت أم فادى ليش ما بيفيق من النوم وليش التانت ام فادى بتقول . اى . اى . وبتحط ايدها على بطنها . ويلح فى نيل الجواب وتجيبه امه بلهجة تربوية ان التانت أم فادى عم تولد فسالها اذا كان البيبى مريض وراح يموت . وتبين الجزع على وجه المراة الشابة فتؤكد لصغيرها على أن البيبى ان شاء الله بخير وعافية وتدعو لأمه أن تقوم بالسلامة . ان شاء الله التانت أم فادى بتقوم بالسلامة هى والبيبى يا حبيبى . والشبان المسلحون الذين جاءوا يناقشون وضع المراة يقولون انه من المستحيل نقلها الى المستشفى وأن ما من مستشفى قريب وليس من قابلة قانونية فى الحى الان . والتى كانت تسكن هنا ؟ ذهبت ولم تعد . والحل ؟ اليس من حل ؟ بلى هناك حل هو الحل . أن تلد المراة فى الملجأ وأن تساعدها النسوة . نعم هذا هو الحل ولا حل غيره . هكذا قالوا ولم يعلق أحد بشىء . رجال ونساء وأطفال وصمت مطبق وحمل يتأرجح فى فضاء تجتاحه صواعق . فى تلك اللحظة لم يعد أحد ليسمع دوى القذائف ولا يبالى بالعمارة تتأرجح ولا بذاك الاحساس بأنها مثل نسر يهب من مكانه استعدادا للانطلاق . الحرب فى تلك اللحظة لم تعد نزاعا بين أطراف بل حربا كونية تدور رحاها فى أحشاء عالم قديم وغامض لا أمرة لاحد عليه .

وامراة تصارع لتلد وليدها . هل سيكون في وسعه وصف ذلك ! حين تشده تلك الدائرة المغناطيسية يذكر انه نودى على أم سمير لاعبة الورق ذاتها فجاءت مهرولة وبدت رغم البداعة حيوية نشيطة . لم تسرع الخطى حين عبرت منفذ الخطر ولم تتريث خلف الباب . نودى على أم سمير . لماذا أم سمير ؟ لا أحد غيرها يقدر على هذا . كانت فيما مضى تعمل ممرضة في مستشفى . المسلحون يكلمونها . كأن الواحد منهم يكلم أمه أو خالته . يتناقشون معها . يحاولون اقناعها ، همسا فتتعمد هي أن ترد عليهم بصوت مسموع . تكلمهم عن المسئولية . من يتحمل المسئولية ، من يتحمل المسئولية ؟ . نحن نتحمل المسئولية . يقولونها بالكلام ويقولونها بالاشارة . يهزون رءوسهم بالتأكيد وترتفع الاكف الى الصدور بالثقة ذاتها تلك القائلة: نحن نتحمل المسئولية . ولاذت أم سمير بالصمت تفكر . واجالت بصرها في السقف والجدران تراجع الاحتمالات والكل ينتظر الجواب يخرج من فمها . ينتظر أن توافق فتقول نعم . حاضر . وقالت أم سمير حاضر . كان يكفي أن تتفوه بهذه الكلمة لكي يشهد الحاضرون وتبدأ عملية الولادة في أذهانهم . حينئذ تعود أم سمير الى الملجأ . اي اشفاق يفيض من قلوب هؤلاء المجتمعين؟ كأن زوجة كل منهم هي التي تلد .. أو كان كل منهن هي التي تلد . والمراة التي وجهها بلون الجدار اجهشت ببكاء عصبي ، تكورت على نفسها مثل كومة عظام ترتجف وصديقتها تفرغ الحقيبة وتعطيها دواء تقول انه مهدىء ثم تهرع الى الداخل وتحضر كوب ماء وتعطيها حبة ثانية . الولد الصغير هادىء التصق بأمه ووضع راسه على كتفها وقال لها : يامابدى نام . دخلت المراة الى المنزل وبدت كأنها ستقع في سيرها ، خطواتها تهتز باهتزاز المبنى . هذه المرة كان السقف يعلو ويهبط مثل فراش من مطاطا وجدرانه تضغط وتفتح كرئتي مريض ينازع الموت . هل يقدر ابن آدم على تحمل هذا ؟ وهو هل يقوى على تحمل هذا ؟ يذكر أنه قرأ رأيا فلسفيا لاحد الفلاسفة ، من الرواقيين على الارجح. يقول ان الموت ، أعظم الشرور ، لا يعني شيئا . لاننا مادمنا موجودين فهو غير موجود وهو حين يحل بنا نكون غير موجودين .. وقد ظل طوال حياته يحاول التمثل بهذا الراى . واذا به الآن يكتشف حقيقة اخرى . الموت ليس أعظم الشرور بل انتظاره على هذا النحو هو الشر الاعظم . الموت شبح يقف بالجوار بين هؤلاء الشهداء الأحياء وامراة تصارع لتلد وليدها وصمت أقوى من الصمت

له زفرات انفاس تقارع هول ضجيج هول اقتتال . كل واحد منهم في برهة ما ينتظر أن يحدث شيء . وحواس هي حواس المجتمعين تعلقت بالداخل تتارجح في تلك المسافة التي تصلهم بالملجا . وانطلقت صرخة وليد وهرعت امراة الى الداخل غير آبهة بمنفذ الخطر ولحقت بها بعض النسوة وانفاس الجمع في الخارج كأنها توقفت تنتظر احداهن تخرج لتقول ان المراة بخير . لم تخرج ولا امراة واحدة لتقول هذا . وساد صمت . حتى القذائف توقفت في تلك اللحظة وساد الصمت . كيف توقفت القذائف في تلك اللحظة ؟ لم توقفت ؟ عشر دقائق مضت كعشر ساعات . كل واحد منهم ينظر الى الآخر ليقرأ على وجهه شيئا لكنه لا يقرأ شيئا . ثم ، ومن الداخل تعالت أصوات تتكلم بانفعال عظيم . أصوات أن قلت هي أصوات بكاء تكون قد أصبت ، وان قلت هي أصوات فرح تكون قد أصبت ايضا .. أصوات النساء تقول لها : الحمد لله على سلامتك يا أم فادي . الحمد لله على السلامة . هل سيكون في وسعه وصف كل هذا ؟

نزلنا والقصف خفيف .. ربما لهذا لم تنزل حنان وامها بعد . تقول انهم اعتادوه خفيفا ، تنام خلاله ولا تشعر بشيء . لكن حين يشتد ، ياربي ! تقول هذا وتتسع عيناها وتثبتهما برهة فى السقف.

بعد تلك الزيارة نشأت بيننا صداقة ودية فاصبحت تاتينى بين الحين والآخر . واصبح سلوكها معى فى الملجأ عاديا . اقنعتها بانى خاطب منذ زمن وبانى لم اكذب حين قلت لها بانى متزوج فانا اعتبر نفسى كذلك . صدقت كلامى وانست لى . قالت انها تجدنى متفهما وهى لا تطلب اكثر من صداقة انسان متفهم . الحياة فى هذه الحرب اصبحت صعبة . وموحشة . تقول موحشة وتقطب جبينها كانها ستبكى لكنها لا تبكى . تتحول فجاة من البكاء الى الضحك . وتقول : التقيت اخيرا بانسان متفهم ومثقف . لكنه خاطب . ترفع كتفيها وتقول : حظ ! واسالها ماذا تقول سكان العمارة لو عرفوا بزياراتها لى فتجيبنى بان سكان العمارة متفهمون ويحترمونك ثم انهم لن يعلموا بشيء . جوابها هو نفسه كل مرة لذا لم اعرف ان كان سكان العمارة يتقبلون مثل هذه الزيارات ام لا .

وتسالنى عن رايى بسكان العمارة وعن تجربتى معهم فى الملجأ. واقول لها صادقا انهم اناس طيبون وانى سعيد بمعرفتهم . وتسالنى : لم انت سعيد بمعرفتهم ؟ ومرة كدت اقول لها بانى سعيد بالعيش مع اناس مختلفين عن الذين عرفتهم فى حياتى ، لكنى تداركت وسكت . خشيت أن تسيء فهم كلامى فتلاحقنى باسئلتها شانها حين يكتنف كلامى فى ذهنها غموض أو التباس . واكتفيت بالقول صادقا انى احس معهم بتآلف كبير مثل الذى احسه مع أصدقائى القدامى .

هذا الولد الصغير . قالت لى البارحة . مسلّ جدا . وضحكت. تراها تستظرفه هى أيضا . ثم نهضت واخذت تقلد الشاب الذى يتجادل مع أمه : ماما أريد أن أحارب . ماما انت لا تقدرين الموقف . ماما . ماما . هذا ليس شاب . هذا ولد مدلوع . ربما كان ينتظر أن تشترى له امه رشاشا من محلات الالعاب وذخيرة من الاسهم النارية . هكذا يخيل اليه أن الحرب لعبة . قل لى بربك هل يعقل أن يستاذن شاب امه فى الذهاب الى الحرب ؟ وهل من أم فى الدنيا ترضى ؟ وهل رضيت أمى حين انضم اخى الى المقاتلين ؟

ـ لم تكن راضية ؟

ـ طبعا لا . وهو لم يستاذنها اساسا . لم يستاذن احدا . هل تدرى ماذا فعل ؟

ـ ماذا ؟

ـ ذات يوم خرج من البيت ولم يعد . حان وقت عودته ولم يعد امى احست بشىء . راحت الى اغراضه وملابسه فوجدتها ناقصة . حزرت على الفور . قالت لابى : ابنك ذهب مع المقاتلين . فى اليوم التالى جاء شاب لا نعرفه وسلم والدى رسالة منه يعتذر فيها لانه شغل بالنا . وقال ان الواجب يدعوه وانه يفعل هذا من اجل الوطن ومن اجل الحق . نعم هكذا يذهب الرجال الى الحرب .

ضحكت وقلت لها :

ـ من يدرى لعلى اذهب اليها يوما برشاش حقيقى وليس بلعبة .

نظرت الى نظرة فاحصة ثم قالت :

ـ لا . انت لا تشبه المقاتلين . انت تشبه زعماء السياسة الذين نشاهدهم فى التليفزيون ونرى صورهم فى المجلات .

وبدت مرحة ، واضح انها اقلعت عن فكرة الزواج بى فانطلقت على سجيتها تحكى لى أخبار الحى وتحدثنى بآرائها فى الحياة والاشياء . قمت ووضعت موسيقى هادئة ثم حضرت شايا وقدمته لها . سالتها عن رايها بالموسيقى ، فقالت ان اعظم مطرب فى العالم هو عبد الحليم حافظ . داريت ابتسامة كانت تفلت منى ثم سمعتها تسالنى رايى به فقلت لها انى أجد صوته رائعا حين يغنى اغنيته تلك « بادى المزامير وبقلبى المسامير » . ضحكت وهى تهز راسها اسفا لجهلى تسكت ثم تعود تضحك وتهز راسها آسفة . ثم قالت : ياأبله ، هذه الاغنية ليست لعبد الحليم حافظ ، هذه لمحمد رشدى . انت جاهل بالاغانى العربية . انتم المتعلمون ، خاصة الذين تسافرون الى الخارج لا تهتمون بعبد الحليم حافظ . خسارة . قالتها باللهجة المصرية . خسارة . خجلت من نفسى وسالتها ان تذكرنى باغنية يغنيها عبد الحليم حافظ تشبه تلك التى يغنيها محمد رشدى . حاولت ان تتذكر فلم تفلح . عددت لى أغنيات اعرفها لكنها لم تعثر فى ذاكرتها على ضالتى . ثم .. هكذا فجاة لمعت فى ذهنى . وهتفت بانتصار : كامل الاوصاف فتنى .

وراحت تغنيها وهي تقول : والعيون السود خدوني . ووجدتني مطروبا بالغناء . فتابعت واياها : من هواهم رحت اغني . آه ياليل آه ياعين ..

توقفت عن الغناء وسألتني بشقاوتها التي أعرفها :

ـ تحب العيون السود اذن ؟

ادركت مغزى سؤالها فقلت لها :

ـ أحب العيون الجميلة أيا كان لونها .

ضحكت وغيرت مجرى الحديث . سألتني رايي بأغاني فيروز فقلت لها اني اعشق صوت فيروز . فقالت بغنج :

ـ يعني انت عاشق امراة غير خطيبتك . كويس . هذا يعزبني.

هي فتاة ، رغم بساطتها ، مرحة منطلقة ولا تتوانى عن ابداء رايها بالاشياء . قمت ووضعت في المسجل كاسيت موسيقى كلاسيكية . لم تعلق بشيء . سألتها رايها بهذه الموسيقى فقالت انها لا تحب هذا النوع وعلقت على ذلك بقولها :

ـ احيانا تكون خافتة كالهمس وتتحول احيانا الى ضجيج . مهما حاولنا اخفاض الصوت يظل عاليا . لا ينخفض الا اذا اقفلنا الراديو تماما . ضجيج . ثم انهم لا يقولون شيئا في هذه الموسيقى . اصوات اصوات . لا يقولون كلمة واحدة . اليس لهؤلاء الناس مشاعر ؟

قلت لها جادا :

ـ هناك موسيقى وفيرة هذه الأيام لا كلام فيها فاجابت دون تردد :

ـ تلك موسيقى للرقص . لكن هذه الموسيقى لا تنفع لا للرقص ولا للكلام . سألتها كيف تعرفت بالموسيقى الكلاسيكية فقالت ان فتاة شابة سكنت فترة في شقتي هذه هي التي عرفتها بها . اسمها ماجدة . كانت مدرسة قالت : وكانت متعلمة جدا . لكنها لم تسافر مثلك الى فرنسا . اكتفت بالعلوم اللبنانية وان كانت تقرأ كتبا باللغة الفرنسية صعبة جدا . سألتها كيف عرفت انها صعبة فاجابت : الخط صغير جدا يكاد لا يرى .

سألتها ان كانت هي تقرأ الفرنسية . بالطبع اجابت . اقرأ لكن ليس كتبا مثل كتب الانسة ماجدة المدرسة . اقرأ اشياء بسيطة مثل فلان ذهب الى المدرسة . طوني اكل تفاحة . قلت لها : ساعلمك هذه اللغة . ما رايك ؟ اجالت بصرها في جوانب الشقة وقالت : ياريت !

فالفتاة بحد ذاتها لا تهمني كثيرا بالرغم من ان حكايتها مثيرة .. ومؤثرة واني لا اظن على اى حال انه سيأتى يوم القاها فيه . انا هنا عابر سبيل ليس أكثر . جئت الى هذا المكان بالصدف العجيبة ولن البث ان اغادره الى مكان آخر حال تسنح الفرصة . لكنى لم اقل لها شيئا من هذا حرصا على مشاعرها .

بعد تعارفي بأخيها اصبحت حنان تطرق بابى بتلقائية . وقد سرها ان اعجابا متبادلا قد نشأ بيني وبينه وازدادت ثقتها بنفسها حين احست بان اخاها يبارك فى اعماقه صداقتنا فقد قال لى على مسمعها : ليتك تقنعها بأن تتعلم شيئا او تكسب مهنة . وانه من ناحيته يحاول اقناعها .. يقول أن الظروف الحاضرة بالنسبة لفتيات من امثالها باتت صعبة . لا أدرى ماذا يقصد بكلمة « أمثالها » . واخبرنى أخوها أن حنان منذ حكاية القناص اصبحت ترفض الذهاب الى المدرسة . عجب ، قلت له ، فقد اخبرتنى هى القصة بشكل مختلف . لم يعلق على ملاحظتى بشىء بل قال ان حنان بعد مقتل عباس ابن الجيران برصاص القناص اقسمت على الا تذهب الى المدرسة . سألته كيف يحاول اقناعها بالعودة اليها رغم الخطر ! فقال ان هناك أكثر من طريقة لتفادى الخطر . والشارع المكشوف . شارع القناص كما يسمونه ، قد سد الآن بأكياس عالية من الرمال . يمكنها لو سارت بمحاذاة الاكياس هذه أن تضمن سلامتها ، انما عليها بالطبع حين تعبر الشارع هذا أن تنحنى كما يفعل سائر الناس حين يمرون به . فالزاوية التى يصوب منها القناص لا تطول المستويات الواطئة . وبعض الناس يزحف أو يحبو وحنان ترفض أن تفعل هذا . تحتج بانه يخجلها ان تمشى على اربعة مثل الماعز . قلت له لعلها على حق ؟ فاجابنى : اشياء كثيرة قبلناها فى هذه الحرب فلابد أن تقبل هى هذا لمصلحتها. وعلى أى حال فان اخوتى الصغار عندما كانوا فى بيروت . كانوا يفعلون هذا فى ذهابهم الى المدرسة . عجب . قلتها ثانية ؟ فقد اخبرتنى هى حكاية أخرى سكت . ثم أجابنى بهدوء : كل واحد يقدم الاشياء بالصيغة التى تلائم تصوراته . أعجبنى رده لما فيه من تفهم لم يكن حانقا أن تقدم حنان الاشياء على غير حقيقتها . شخص متسامح . هكذا بدا لى . وهذا على ما اظن السبب فى انى رغبت بتعميق معرفتى به . زرته فى بيته وزارنى هو مرة ثانية . واخبرنى كيف انه بعد أن تطوع للقتال فى بدء الحرب اللبنانية عاد

وانسحب . اشتغلَ ليكسب عيشه ثم عاد الى الدراسة . هكـذا تسنى له دخول كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية . وهو رغم اهتمامه باشياء اخرى كثيرة ، غير نادم على اختياره ، فالقوانين في حد ذاتها وكذلك نشأتها وتطورها مسالة تستهويه . يستهويه كيف طور الانسان تجربته عبر العصور فسن الشرائع لتنظيم حياته ومجتمعه، وكيف أن كل مجموعة من المجموعات البشرية قد خرجت بالصيغة التي تلائمها .

عجيب كيف ان حنان قد اغفلت ذكر هذه الأشياء لي واصرت على ان أخيهـا مازال مقاتلا مسئولا . كنت افكر بهذه الامور حين سمعته يسألني عن فرنسا وعن الفرنسيين . قال انه يحب الاطلاع على تجارب الشعوب الاخرى وانه حين تسنح له الفرص سيسافر ليشاهد مثل هذه التجارب عن كثب . وسألني عن راي الفرنسيين بالحرب الدائرة عندنا وعن نظرتهم للشعوب الأخرى والى شعبنا بشكل خاص . اخبرته انه في بدء اقامتي هناك في المرتين اللتين زرت فيهما باريس قبل ذلكَ ، لم الاحظ عند الفرنسيين احساسا عدائيا خاصا ازاءنا . لكن بمرور الوقت وأستمرار الحرب وانتشار العنف واعمال الارهاب اصبح للأوروبيين عموما موقف حذر أو ربما عدائي. ضحكَ وقالَ :

– وما راى مصانع الاسلحة بهذه المسالة ياترىَ ؟

قال هذا وهو يضحك . يبدو سعيدا بأن يجلى التباسا يضايقه. حين يضحك يبدو أصغر سنا مما يكون عليه وهو جاد . ولعله عندئذ يبدو أقرب الى سنه الحقيقي . تلمع عيناه وتظهر على وجهه شقاوة تذكر بشقاوة المراهقين . او بشقاوة أخته حنان حين تضحك .

لم تات حنان . جاءت أمها وبقيت هي في بيت خالتها . هكـــذا فهمت من الحديث الذي دار بين الأم وتغريد صـــديقة حنـــان . وقالت أمهـــا انها ستاتي غدا اذا عرفت بعودة الماء . من ناحيتي لم اكن مباليا بالقصف . وكنت متعبا لا ادري لماذا عاجزا ؛ عن التركيز .

ثم جاءت أم فادي مع وليدها واحتفى بها أهل الملجأ . وأم سمير جاءت ايضا نشطة باسمة كعادتها وسلمت على المراة وعلى الوليد . تكلمه كأنه يفهم الكـــلام . أم فادي تنظـــر اليهـــا بامتنـــان . تتامل وليدها ثم تعود وتلقي أم سمير امتنانهـــا . كلما دخل أحد الى الملجأ راح يطمئن على الوليد ويسأل أمه عنه رغم انهم قد عادوه جميعا في بيتها .

وقال أبو سليمان لام سمير يمازحها :

ــ أين الطفل الآخر يا أم سمير ؟ الطبيب قال ان هناك توامين .

ضحكت أم سمير واشارت الى الطفل وقالت :

ــ هذا كل ما وجدت .

ضحكت وضحكنا جميعا . أم سمير اكتسبت ثقة خاصة منذ تلك الحادثة . الكل ينظر الى الوليد بحنان لا يوصف . كل واحـد ولمجرد انه شهد ما شهد يخالجه ذاك الشعور بأن له حقـا مكتســبا في حبه . كأنهم جميعا أهله واخوته بالتبني . الوليد لا يبكي ولا توقظه المدافع .

وهادي الصغير يبدو منفعلا اليوم ؛ ولعله هو الاخر عارف بما جرى . يدور حول الرضيع ثم يركض في الملجأ يتحرش بالحاضرين يضاحكهم كأنه يركض في حديقة عامة . وسألته أم سمير عن سبب غبطته . قالت له :

ــ ليش هالقد مبسوط ياهادي ؟

اجابها وهو مستمر في اللهو :

ــ علشان اجت الى وتحممت . صرت نضيف . والماما كمان مبسوطة علشانها تحممت وصارت نضيفة . كانت وســـخة كثير وريحتها ظالعة .

خجلت المرأة الشابة من كلام ابنها لكنها لم تتمكن من كتمان ضحكها . ضحكت ثم عادت تؤنبه بالقول :

ـ مش عيب تقول هيك عن الماما ؟

ـ مش انا قلت . انت قلت انو صار لك اربعة ايام بدون حمام وانو ريحتك طالعة .

هادى الصغير أصبح منذ تلك الحادثة يغبط فادى ويكن له احتراما ظاهرا . يتحرش به ويقول لامه :

ـ قولى لفادى ابن التانت أم فادى يلعب معى .

وتجيبه الأم :

ـ قلوا انت .

ـ قلتلوا ما رد على .

ـ يمكن مابيحب يلعب .

ـ بيحب يلعب بس مابدو يلعب معى . انا بعرف ليش .

ـ ليش ؟

ـ انا بعرف . علشان التانت أم سمير جابت له ببى . من يوم ما التانت أم سمير جابتلو ببى وهو ما بيلعب معى .

ثم سكت لحظة يتأمل الطفل الرضيع وتابع وهو يندس بأمه :

وانا كمان عندى ببى . يعنى أختى نانو مش ببى ؟

ـ طبعا ببى .

وتدخلت أم سمير ، ضحكت وهى تقول لهادى :

ـ مش انا جبت البيبى . التانت أم فادى هى اللى جابتو .

ألقى هادى على أم سمير نظرة شك وعاد يدس نفسه بأمه ويقول لها همسا :

ـ ليش قلتو انو لولا التانت أم سمير ما اجا البيبى ؟

ـ اسكت . قالت الأم لابنها . ما فى حدا بالملجأ بيحكى قدك .

ـ طيب قولى لفادى يلعب معى .

وكاد صبر المرأة ينفد .

ـ هلق مش وقت لعب .

ـ ليش مش وقت لعب ؟

ـ مش سامع القصف والصواريخ ؟

ـ طيب امتى وقت اللعب ؟

ـ اقعد يا ماما . اقعد ياحبيبى . نام شوية .

ـ طيب امتى وقت اللعب ياماما ؟ اى ليش ما بتردى على ؟! امتى وقت اللعب ؟

أم حنان فى غيبة حنان تبدو نافدة الصبر . تتأمل الحاضرين دون أن تراهم بالضرورة ثم تثبت نظرها بالحائط أمامها . ضجرة . كأنها لا تختبىء فى ملجأ بل تنتظر دورها فى دائرة رسمية مكتظة بالناس وصلوا قبلها . وجود ابنتها معها على الرغم من قلة الاحاديث التى يتبادلانها يمنحها ما لا يمكننى تحديده . تتأملها طويلا تأمل من يحاول قراءة أعماق ممتنعة عليه . لا أدرى عم تبحث! وهى لاتبدو حائرة انما على الارجح تكون فى أعماقها حيرة . فما أن تحول نظرها عنها حتى تعود تتأملها من جديد . وسكان العمارة لايبدون استغرابا بل يلاحظون هذا بقبول تام مثل أمر طبيعى . فى زيارتها الاخيرة لى سألت حنان عن سبب استبقاء أمها لها فى بيروت بينما تلازم أختها القرية مع أبيها واخوتها الصغار ؟ أمى تبقى هذا من اجل أخى . واختى تلازم القرية لانها مخطوبة وخطيبها يخاف عليها من حرب بيروت ، ووالدى قال انه لن يرجع أبدا الى بيروت بعد الان واخوتى لم يعودوا صغارا . كبروا وهم يذهبون الى المدرسة والكبير يساعد أبى فى الارض أيام العطلة . ثم ان اخى يرغب فى بقائهم هناك . يقول ان أجواء الحرب باتت مخيفة ويجب أن يجنبهم هذا .

قلت لها انه رغم طول الشرح لم تجبنى على سؤالى حول اصرار أمها على استبقائها معها . فأجابتنى :

ـ أنا نفسى لا أحب الضيعة . الضيعة مضجرة .

ـ مضجرة أكثر من حرب بيروت ؟

ـ أيوه مضجرة أكثر من حرب بيروت . القعود فى الملجأ ولاالعيش فى القرية .

ضحكت وقلت لها امازحها :

ـ لم لا تعترفين بأن أمك متعلقة بك لدرجة لا تحتمل فيها بعدك عنها ؟

ضحكت من أعماقها ضحكا يقر بأن تلك هى الحقيقة . قهقهت وبدت مغتبطة باكتشافى . ثم صمتت برهة وبدت جادة فى كلامها وهى تقول :

ـ لا أدرى ان كانت متعلقة بى لهذا الحد لكنها على أى حال تخاف على . دائما تقول انها تخاف على لا أدرى لماذا ؟

نعم ، وكيف لا تخاف ! فهى كلما تأملتها اصطدمت بأعماق

متمنعة . هكذا .. افكار حائرة تحاول الامساك بعيون هاربة . وهكذا فسرت لى حنان بقولها ما لم اكن قادرا على تحديد، كلما عاودت الام تأمل وجه ابنتها .

اظن ان النوم قد أخذنى بعض الوقت وانا مستند الى الجدار. جاءنى الامين فهللت وقلت له : لكن اليوم ليس اربعاء . ابتسم وربت على كتفى وقال اعذر عدم دقتى . الاحوال هى التى تفرض المواعيد . جلس قربى بينى وبين ابى سليمان ثم اعطانى شيئا لم أميزه . طردا ملفوفا بورق اسمر مثل المغلفات الكبيرة . فتحت الطرد : علبة حلوى ارسلتها امى من صنعها ورسالة لا اذكر منها سوى الجملة الاولى : « ابنى الحبيب » قراتها مرتين تختلف الواحدة منهما عن الاخرى . مرة تقول ابنى الحبيب ، ومرة تكلمنى باسمى. والخط لصغر حروفه بدا غير مقروء . لكنى فهمت من نصف الرسالة انها تستدعينى اليهم لان مسالة البطاش قد سويت . الكلمة الوحيدة التى بدت واضحة فى الرسالة هى اسم البطاش . لكنها لم تخبرنى كيف سويت المسالة .. التفت نحو الامين اساله فرايته باكل الحلوى ويتطلع الى المكان الذى تجلس فيه حنان . استغربت ان ينظر اليها كانها موجودة وهى غير موجودة . تطلعت فى الاتجاه ذاته فرايتها جالسة تتأمل الامين وتتاملنى كانها تحاول ان تستشف بوجوده شيئا عنى وعن العلاقة التى تربطنى به . تماما مثل المرات الأولى التى كانت تلاحقنى فيها بنظراتها . وكانت تأكل من الحلوى ذاتها التى احضرها الامين . قلت فى نفسى : هاهى اخيرا قد جاءت .. ثم رايت الامين يميل برأسه الى ويقول شيئا لم اميزه تماما . حاولت الاستفسار فأجاب : « بلى هذا صحيح . » عدت استزيده فقال : « مثلما قالت امك فى الرسالة . » ثم مال على ووشوشنى . همس الكلام فى اذنى تماما رغم ذلك لم افهم . فعاد وتمتم جملة واهتزت جفونه كأنه اراد ان يقول شيئا ثم عدل عنه . قلت : ماذا ؟ اجاب : اخبرك فيما بعد . سألت وكنت قلقا : أهو ثأر قديم بينه وبين عائلتنا ؟ قال : هو شيء من هذا . ثأر او ما يشبه الثأر . فقلت له : اذن المشكلة .. واردت ان اتابع جملتى لكن انفجار كأنه وقع فى الملجأ ذاته غشى رؤيتى . ثم تناثر الغبار والتراب فى المكان فسلم أعد أميز شيئا . امتلأ فمى وانفى وحنجرتى ترابا وغبارا حتى كدت اختنق . حاولت التمسك بكتف الامين كذلك اردت ان اقول له : « هيا بنا نهرب من هنا » لكنى لم اقدر . الكلمات لا تخرج من حلقى

بل تمسكني في حنجرتي فيزداد شعوري بالاختناق والامين غير آبه بمساعدتي . يحاول التملص مني . يزحزح جسده الضخم باتجاه الباب . امسكه ، اسأله عن صديقة الجامعة حنان وعن وعده لي بالبحث عنها لتتزوج . وجهه اصبح اكثر غموضا . هز راسه بالايجاب وبلع ريقه كانه يقول : حصل . ثم اشار باصبعه كانه يقول « هذا هو الجواب » . نظرت الى حيث اشار فرايت حنان خارجة من بيتها الذي عرفته ايام الجامعة ومعها ولدان : صبي وبنت . الصورة لم تكن واضحة تماما ورغم ذلك فهمت كل شيء . نظرت الى الامين لكنه في تلك اللحظة كان يخرج من الباب والغبار مافتىء يتصاعد من المكان ويغشي الرؤية . فقط وجه الصبية في الملجأ مثل لوحة قديمة مغبشة ينظر الى بعينين ناعستين وراسها مائل قليلا كانه تريحه على كتفها .

انقت على صوت الانفجارات تتوالى دون استراحة . الرجل يقول : انفجار كل دقيقة . والوجوه امامي قلقة منهكة . الاطفال يتململون والكل خائف وصامت . وانا خائف ومنهك والامين لا ياتي . المبنى يهتز مثل يم متلاطم . ليت الامين ياتي لاصب عليه الغضب الذي يعتمل في داخلي . ماذا لو مت في هذا الجحيم ؟ قضيت حياتي ابحث عن امرين : الحب والمعرفة . اذا مت الان هنا اكون قد مت في الظلمات بلا حب ولا معرفة . المبنى مستمر في هياجه . هل سيقع فوق رءوسنا ؟ وتلك المراة التي كلما اشتد القصف تصاب بالاغماء او ما يشبه الاغماء ... آن لها ان تعتاد هذه الاهوال ! لم هي مصرة على الاغماء هكذا ! لونها الآن رماديا كالحائط وعيناها زائغتان . المراة التي تجلس قريبا ناولتها القنينة التي اعتادت ان تناولها اياها . تقول فيها ماء وسكر وماء زهر . واعطتها حبة فاليوم . وسمعت المراة تقول : رحنا خلص . يا الهي خلصنا من هذا الجحيم . الموت افضل من هذا الجحيم . والمراة تسترحم ربها ان يخلصها من هذا الشقاء . وتلقى على نظرات استعطاف ! نظرات تطلب العون ! لا ادري لم تختارني انا كل مرة هذا الاختيار الصامت كي اساعدها وانا ليس لدي اي مانع في مساعدتها ، لكن ما عساني فاعل في وقت كهذا ؟ انا مثلها مثل سائر الناس في هذا المكان مهدد بالقضاء تحت الردم . ان كان يخيل اليها اني طبيب فلاخبرها باني لست بطبيب . نعم سأقول لها . ماذا اقول لها ؟ لست بطبيب ياسيدتي . اقولها باللغة العادية وبكل ادب : اسمعي

ياست انا مثلى مثلك اكثر من حبة اسبرين ما بعرف . نعم قمت من مكانى .. لا . لن اذهب اليها الان لاباغتهابهذه الجملة والقصف عنيف وجدران الملجأ تدك دكا . لعل من حولى ينظر الى . مضت لحظات وانا اقف هكذا بين هؤلاء الناس الجالسين ! خيل لى ان الولد الصغير يمسك برباط حذائى ويفك الرباط . انحنيت لاعيد ربطه فاستحيت من نفسى . ترانى انحنيت فوق راس المراة ، امه التى القت على هى ايضا عينين زائغتين . ابتعدت ووقفت فى الزاوية. لا بأس . كثيرون يغيرون اماكنهم اوقات الشدة . يحدسون دون سبب وحيه ان مكانا ما هو اقل خطرا من الذى كانوا فيه . لا ادرى لماذا . ماذا قررت ان اقول للمراة ؟ انا ياسيدتى لست طبيبا ولا افهم بالطب ولا بالاغماء . ورايتنى اتجه نحوها وهى تنظر الى وانا اقترب ... وبدت مستسلمة كل الاستسلام ؛ وبدت مرتاحة لقدومى . ابتسامة باهتة ارتسمت على شفتها ونظرة امتنان فى العيون . انا الطبيب الذى طال انتظاره ثم جاء لحظة النزع الاخير ومعه ترياق العراق الشافى . والسيدة الجالسة قربها بدت ممتنة هى الاخرى لقدومى . تبتسم لى . ثم لا ادرى كيف حصل ذلك .. لا اذكر البتة كيف حصل .. وجدتنى اجلس قرب المراة امسك معصمها مثل طبيب مجرب . وسمعت نفسى اقول لها : تشجعى ياسيدتى . واحسست ان الكل ينظر الى المسالة بصورة طبيعية ودية وكانى طبيب بالفعل . نبضات قلبها بطيئة لكنها منتظمة وقوية . قلت لها : تماسكى يا سيدتى هى شدة وتنقضى كما انقضى غيرها . المراة تحاول ان تبتسم فترتسم على فمهاابتسامة باهتة كلون وجهها وتتمتم بشكر لا يسمع . القذائف تتوالى والجدران مستمرة فى هياجها والسقف يموج فوق رءوسنا ... وتلك السيدة ترجو منى خلاصا فى حمى اقتتال مجنون ، وانا مثلها واقع فى قبضة فخ منذر بالهلاك . جلست قرب المراة مستسلما منهكا . لا انتظر رجاء ولا خلاصا . المخلص كما يقول ابو سليمان لا ياتى من تلقاء نفسه . ياتى المخلص للذين ينتظرونه . وهنا فى هذه البقعة من العالم المنفى ، فى هذا السجن القاهر من النار والدمار لا احد ينتظر مخلصا ولا خلاصا .

ولطالما فكرت اني لو كتبت رواية ذات يوم فساكتب عن جوانا . أخالها احيانا شخصية درامية تصلح لروايه او مسرح . حين أقول لها هذه تضحك وتقول : امرك عجيب . وماذا تجد بى ألا شيء لافت أبدا لا شيء يفوق العادى . أنا نفسى حين تراودنى الرغبه فى الكتابة عن نفسي لا أجد ما اقوله . جوانا مخلوقة مرهفة وعلى جانب كبير من الطرافة وهى من اقرب الناس الى نفسي . تحب بيار وهو ايضا يحبها يستصعب الواحد منهما العيش دون الاخر . لذا قررا أن يتزوجا . مرتان اثنتان كاد أن يتم الزواج لكنهما وفى المرتين تراجعا فى آخر لحظه . فى المرة الاولى تراجعت هي . وتراجع هو فى المرة الثانية .

حين تراجعت هى جاءت الى تقول : اسمع ساخبرك شيئا اياك أن تنقله لبيار أخشى أن أجرح شعوره . تعرف حساسيته هذه الايام .. بيار ليس بالانسان الهادىء الذى يراه الآخرون . انه كتلة تفكير . تقولها باحتجاج . عقل لا يهدأ . ينهض صباحا وفى ذهنه موضوع جاهز : اقتصاديات الهند فى القرن التاسع عشر . التطور الصناعى لم يات آنذاك لصالح لا أدرى أية جهة وهذا ما ساهم فى تفاقم الصراعات والتحضير لدعوة غاندى . اذا حدثك بالتاريخ فلابد أن يبدأ من البدء . الانسان الاول . كيف تكونت العائلة . ثم يعرج على عصر الجليد وعصور الامطار والجفاف وعصور أخرى قبل أن ينتقل الى حضارتنا الحديثة . لو سمعته يتكلم لخيل اليك اننا ابناء هذه الكرة الارضية كلنا عائلة واحدة . وان الذين سكنوا المغارةوالكهوف ودجنوا الكلاب هم أولاد عمنا او جيراننا . وانه يكفى أن نطل من نافذة التاريخ القريبة لنزورهم فى مغاورهم تلك . وانما قد فاتتنا الفرصة لانشغالنا بتفاصيل حياتنا اليومية . يحدثك عن الفراعنة . كانهم يعيشون فى مصر الان . ويقول لك بثقة ، انه لمن الطبيعى أن ينهزم اخناتون فى دعوة التوحيد نظرا لسطوة رجال الدين على الداخل . لا يقول مثلا فى تلك الحقبة او فى ذاك العصر . لا . ثم يؤكد لك على أن فكرة التوحيد هى نفسها التى استمرت عبر موسى . وكأن موسى زميله فى مركز الابحاث وقد أخبره شخصيا بتجربته . التاريخ الحديث . سقوط القسطنطينية وبالطبع يشرحها لك بالاسهاب

ويستهويه أن يصف لك هجرة المفكرين والفلاسفة من القسطنطينيه الى روما ولشدة ما ينشرح صدره لمجيئهم ينقل لك أخبارهم تباعا حتى تتراءى لك تفاصيل أشيائهم الصغيرة ويخيل اليك أنهم قادمون ليس فى عربات خيل أو على ظهور جياد بل فى القطار أو المترو وانه ما عليك سوى أن تهب لاستقبالهم فى المحطة .

قلت لها اغيظها :

ـ واضح . تغارين من سعة اطلاعه وثقافته .

ـ لا ياعزيزى ، سعة ثقافته لا تضايقنى .. بالعكس انا فخورة بثقافته . يضايقنى رفضه الامور الغامضة .. الاسرار . لو قلت له أن عفريتا قفز من باطن الارض ودب الرعب فى قلوب الناس لقال : وما العجب فى ذلك . لا شك فى أن التناقضات الاساسية التى تتحكم فى التداخل التاريخى والجغرافى وفى تشكل العناصر المكونة لهذا الاطار قد بلغت حدا من التفاعل سمحت للعفريت بالظهور ، والا لما ظهر فى تلك اللحظة وفى هذا المكان بالذات .. ثم ان المهم فى كل هذا ليس العفريت ، بل دلالته الموضوعية فى اذهان الذين رأوه هى الامر المهم .. انشقت الارض ام لم تنشق ، تلك مسألة ثانوية . المسألة الاساسية تتمثل فى كيفية استقبال الناس العفريت وقبولهم بوجوده فيما بينهم . حتى ليخيل اليك وأنت تستمع اليه أن الناس قد رأوا العفريت بالفعل وأنهم تدافعوا ليحيوه وقد سلموا عليه باليد ودعاه البعض لتناول الشاى عنده فى البيت . فيعز عليك كيف فوت على نفسك مناسبة مثل هذه . لكنه يكاد يطمئنك بأن العفريت سيعود للظهور ثانية . نعم يا عزيزى كلما ازدادت المسائل غرابة ازداد هو عقلانية ورصانة .

على الرغم من لهجتها الساخرة . كانت جوانا حزينة . فقلت لها :

ـ لعله سيتغير مع الوقت .

ـ لن يتغير . قالت بأسى . لن يتغير .

وترددت قبل أن أسألها :

ـ ما الذى يجمعكما اذن ؟

ـ لا ادرى . الحب . الحب لا يقبل التفسير . الحب لا يقبل الجدل .

وعندما تراجع بيار عن الزواج اتصل بى فذهبت اليه ركان مضطربا . قال : لدى ما أقوله لك بخصوص جوانا لكن ارجو أن تدع

ذلك سرا بيننا . تعرف حساسيتها هذه الايام .. جوانا يا صديقي مخلوقه صعبة . تبدو للاصدقاء رزينة حكيمه وهي بمعنى من المعاني كذلك انما لا أحد يعرف كم الحياة مرهقة معها . شلال متدفق من الاحاسيس . نبع مشاعر وافكار لا ينضب . ان خطر لك وسألتها عن طفولتها تسردها عليك حرفيا منذ اول يوم تتذكر فيه حتى تاريخ جلوسك معها . تقول لك : حين دخلت الى الحضانة ، وكان لها من العمر ثلاث سنوات . في اليوم الاول كانت المدرسة ترتدي فستانا احمر مع ياقة بيضاء ، وكارولين ، صديقتها ، وكان عمرها هي الاخرى ثلاث سنوات ، ترتدي تنورة زرقاء وقميصا ابيض ، وكان الاولاد يغنون وينظرون الى الحائط في اتجاه واحد ورءوسهم منتصبة مثل رءوس الديكة . تصف لك بالضبط نظرات الاولاد في ذلك اليوم . وتدندن الاغنية بلي نغنيها لك باللحن والكلمات . وتتذكر ذاك اليوم بالتفاصيل الدقيقة . وتقول : جاءت فتاة وسألتني ان العب معها ولعبنا . وقعت هي على الارض فجاءت المعلمة وانحنت لتساعدها على النهوض فبان دانتيل ثياب المعلمة الداخلية . ذكريات يا صديقي ليست كالذكريات بل مثل صور فوتوغرافية تخرجها من البومات وتستعيد قراءتها. تقول : اليوم الثاني لدخولي المدرسة جاءت المديرة وكانت ترتدي نظارات بيضاء وبشرتها كانت بيضاء ايضا ثم تصف لك المديرة وحركة يدها . كيف خلعت النظارات ووضعتها على الطاولة وكيف ان النظارات كادت تقع على الارض اولا ان المعلمة تدخلت فالتقطتها في اخر لحظة . لا أقول عنها ثرثارة ، لا . حديثها ممتع . انما وضوح ذاكرتها مخيف . ذهن متوقد وعيون مثل ميكروسكوب ترى تفاصيل لا تخطر في بال . في الفترة الاولى لتعارفنا ظننتها تتوهم أو تختيل اشياء سمعتها من أهلها . وبمرور الوقت اتضح لي أنها تتذكر . نعم تتذكر . هذا مرهق يا صديقي . لا أدري كيف تقدر هي على الاحتمال .

وقلت له :

ـ انما هي لاتبدو مرهقة . ما الذي يزعجك اذن ؟ وضحكت وقلت أمازحه : لعل ذكاءها هو الذي يزعجك !

وانبرى بسار يدافع عن نفسه :

ـ ذكاؤها لا يزعجني ابدا . بالعكس . أنا فخور بذكائها . انما هذا التوقد لو عشته أربعا وعشرين ساعة في اليوم يصبح مرهقا . في الفترة الاولى لتعارفنا قلت هي بداية الحب . للبدايات على الدوام

تاجج ووميض . ادرك معنى ان يستعجل الانسان بلوغ اعماق الاخر . وخيل لى ان جوانا ستهدأ مع الوقت . لكن الوقت للاسف لم يفعل شيئا . ايقنت ان طبيعتها كذلك وانه لا فائدة من الانتظار . تصرف اشياء لتخزن اشياء تفوقها كثافة ، والدورة مستمرة لا أدرى الى متى !

ـ ربما الى أن تشعر بقبولك التام لها وبالامان ، لعلها تحس أنك بشكل ، أو بآخر ، تقاوم هذا القبول .

فاجانى وبدا صادقا فى كلامه :

ـ أو تظن يا صديقى أن الفكرة لم تخطر فى بالى ؟ لطالما فكرت أن تنبهها يرجع الى احساس قديم بالوحدة ، فاخذت أشاركها أفكارها وخيالاتها وحتى أحلامها التى تراها فى المنام ، فاكتشفت حقيقة أنها ليست كالبشر العاديين . أفهم ان نرى فى الحلم لقطات متفرقة . صور ، ألوان ، أشخاص ، مشهد ، أشياء ، نجمعها ونحكيها ليستغرق ذلك بضع دقائق ، أما هى فترى أحلاما كالافلام ، حكايات وقصص متتابعة مثل مسلسلات التليفزيون ، تصحو من نومها وتسردها عليك ، كأنها تسرد رواية ، وفى اليوم التالى تقول لك : لو تعرف ماذا حل بالشخص الذى رأيته البارحة فى الحلم ، سافر الى بانكوك ، غريب لماذا اختار بانكوك ؟ تتساءل بجدية ودهشة كأنه اختارها بالفعل ! أخالها على موعد مع اصدقاء لها ينتظرونها فى المنام تماما مثلما تنتظرها شخصيات قصصها ، تعرف أن لها محاولات فى الرواية. أؤكد لك أن الفضل فى هذا لا يعود لجهود تبذلها بل لاحلامها. أقول لها هذا فتغتاظ وتقول : تنقصك الامانة ، تقلل من الجهد الذى أبذله والذى تراه بعينيك لكنها فى الحقيقة لا تبذل أى جهد ، صدقنى معظم قصصها تحاك فى الاحلام والشخصيات تحضرها جاهزة فى اليقظة ، تقول لك : فلان كان له تعبير فى العيون ، يا الهى .. مخيف ويظهر الخوف على وجهها ، اسألها لم كان تعبيره مخيفا هكذا ؟ فتنظر الى بدهشة وكأن الامر لا يخصها البتة تقول : لا أدرى ، انه كذلك من أين لى أن اعرف ؟ او تظن أنه حكى لى قصة حياته هكذا من أول مرة ! كل شىء سيتضح مع الوقت . تصور !. حتى اللغة لا تجهد نفسها فى ابتكارها . تأتى الشخصية وتبدأ بالكلام . الجمل تتدفق على لسانها مثلما تنساق أوراق مطبوعة من آلة تلكس وجوانا تصغى وتسجل ، يا صديقى أنا لست قصاصا لكنى أسمع أن المعاناة فى العمل ضرورة للابداع. أما هى فتجلس وراء الطاولة. لفت انتباهها

مرة . كأني صفعتها على وجهها . قالت : انتم الرجال شخصيات متسلطة . داخل كل منكم ديكتاتور . وانا يا عزيزي لا افرض وجهة نظري على احد . هؤلاء الناس — تقصد شخصيات روايتها — احرار يتصرفون كما يحلو لهم . ما رايك لو دعوتهم للسكن معنا ؟ قلت لها ذلك لشدة غيظي . « انهم يسكنون معنا بالفعل » هكذا اجابتني وللاسف هذا صحيح يا صديقي ؛ فهم يعيشون بيننا . ولشدة ما شاركتها عالمها اصبحوا يرافقونني في خلواتي ونزهاتي . ذات يوم امضت نهارها تضحك وحدها . سالتها عما يضحكها فقالت : شخصية في الرواية ؛ ظريفة ولها آراء طريفة . تصور يا صديقي . الشخصية هي التي تضحك الكاتب . هل سمعت بشيء مثل هذا من قبل ؟.

رثيت لحال بيار وسالته سؤال صديق لصديقه ان كان يغار من انصراف جوانا عنه الى الكتابة .

— المسألة يا صديقي ليست غيرة واوهاما . انه انصراف فعلي . وهل تحتمل أنت انصراف صديقتك والعيش مع أناس آخرين ؟ لو أسدلت جوانا ستارا على خيالها لما عرفت عن عالم شخصياتها ذاك شيئا . تتسلى واياهم . تضحك وتحزن . تقضي أوقاتا ممتعة وأخرى عصبية ، وحين تضجر منهم تعود الى . أسألها عنهم فتقول احيانا : لن أخبرك . أعرف أنك لا تحب هذا النمط من الناس . تتكلم عنهم كأنهم أناس حقيقيون . أحيانا تقرأ لي مقطعا كتبته فتدمع عيناها كما لو كانت تقرؤه لاول مرة . حين تراجعت عن الزواج هل تعرف ماذا كانت حجتها ؟ قالت لا ياحبيبي . زواج قسري واحد يكفي وأنا لن افعل ما فعلته هي . من هي ؟ احدى شخصيات رواتها . الاسبوع الغائب تزوجت بدافع من ارضاء الاب . قلت لها وكنت لشدة خيبتي جادا في القول : طلقيها من زوجها وتزوجيني . أعرف أنها لا تحتمل تعليقات مثل هذه . تقول : ديكتاتور .

هكذا اعابثها . اسالها : ماذا حل بفرنسوا . فرنسوا كان مكتئبا متنازعا بين رغبة في السفر واخرى في البقاء . قلت لها : أهديه انا بطاقة سفر ذهابا وايابا وهكذا يتسنى له تحقيق الرغبتين معا وترتاحين انت من التفكير به .

تنهد بيار ثم قال :

— اعذرني يا صديقي ان كنت أثقلت عليك في الكلام . الحقيقة

النهائية في رأيي هي أن جوانا لا تريد أن تكبر . تسلي طفولتها بهذه الحكايات كي لا تكبر .
سألته عن علاقة هذا بذاك فقد أجابني :
ـ جوانا طفلة . هناك في أعماقها طفلة تتمنع عن النضج . لا يغشك الذكاء . جوانا تسلي نفسها بهذه الاجواء الفانتازية . تؤثرها على الواقع فلا تراه على حقيقته . المشكلة مشكلة نمو . تفضل اثارة الخيال على نمو الشخصية . أظن أن معظم الفنانين هكذا ينقصهم النضج وتطغى عليهم موهبة الابتكار .
قلت أمازحه .
ـ حمدا لله أن هناك أناسا فطروا على نقص في النضج . لولا ذلك لما تيسر لنا الاستمتاع بروائع الفن
وربما ان جوانا . أصبحت محكومة بطرافتها . تقول عن الجنس انه مسالة بسيطة حاكت حولها البشرية أوهاما عظيمة . هو مثل الرياضة أو اليوغا يسعى اليه الانسان من أجل الراحة . ولطالما حاولت اقناعنا بذلك تقول : فكروا بسائر الاوهام التي تتحكم بهذا العالم . هناك شعوب حرمت على نفسها أكل اللحم . لو أكل الواحد منهم لحما أو قتل بقرة تقوم الدنيا وتقعد . مسألة عادية مثل هذه هي بالنسبة لشعوب أخرى كارثة . الانسان كائن غريب . يرسم الموانع لنفسه بنفسه ثم يمضي الاف السنين ، يحاول التخلص منها وبالكاد يفلح .
ولجوانا في السياسة آراء طريفة تؤكد على أن أصحاب المصلحة في التغيير في فرنسا ، ليسوا العمال ولا الفلاحين بل العجائز . العجائز هم اتعس خلق الله على الارض في هذا البلد الذي يفتخر بحضارته . جوانا من أصل أيطالي لجهة امها وقد أمضت فترة من مراهقتها مع أهلها في المغرب . تقول : هناك الحياة مختلفة ، أما هنا .. آن الاوان لعجائز فرنسا أن يتحرروا ويثوروا . يهبوا كتلة واحدة ويغيروا نمط معيشتهم ولا اظن أن احدا سيعارضهم . كل انسان في نهاية الامر يخاف من الوحدة . فليخرج العجائز كراسيهم من بيوتهم وأباريق الشاي والقهوة والصحف وأطباق الحلوى وليجلسوا على الارصفة يأكلون ويستمتعون بالرائح والغادي، ويتبادلون الاحاديث والحكايات . وليعتصموا في الشتاء في مراكز المحافظات الى أن تبنى لهم اندية بدل أو يدعوا لاضرابات تؤمن لهم نفقات شيخوخة ليسوا بحاجة فعلية لها . نعم ، هذا هو التغيير : لكلام عن صراع الطبقات هراء . هذا شعب هاجسه الوحدة .

ثم توجه الكلام لي وتسألني : هل يتحدث اطفالكم برواتب التقاعد ونفقات الشيخوخة ؟ الاطفال عندنا يتحدثون بذلك . هل سمعتم بتقسيم عمر الانسان الى مراحل : العمر الاول والثاني والثالث هنا يجدون تسمية لاى شيء . اطارا يحيطونه بالمشكلة ظنا منهم أنهم هكذا يسيطرون عليها . نعم ، حل المشكلة غير مهم . تاطيرها هو المهم .. وتتكفل وسائل الاعلام بذلك . كل فترة تقلعية . موضة . والموضة هذه الايام تقضي بتقسيم عمر الانسان الى مراحل . وامراض الحداثة يعالجونها بالاعلام ايضا . يقيمون مهرجانات تدين الارهاب . يسألون عن حامل السلاح ولا يشيرون الى صانع السلاح . كأن السلاح سلعة كالصابون تهدر في المجاري . انما السلاح للدمار . وصانعه يروج ليكسب لكنه يعود ويغضب . يغضبه فائض العنف حين يرتد عليه فكبرياؤه قد أرسخ في ذهنه تلك الصورة المزيفة أن للعنف حدودا . وما دار في خلده ان ليس للعنف حدود .

جوانا رغم مظاهر القوة انسانة رقيقة . في داخلها مواطن ضعف تسميها هي مواطن الالم . احيانا تجهش بالبكاء لاسباب نراها نحن تافهة ، أو يتملكها حزن عميق لذنب بسيط ارتكبته في طفولتها . في أواخر اقامتي هناك كانت تكتب الفصل الاخير من روايتها فاصابها اكتئاب . سألتها عن السبب فلم تفصح . الححت بالسؤال فقالت ان السبب يخجلها . ثم بكت . قالت انها تحب شخصيات روايتها . هؤلاء الناس تحبهم وفقدانهم يؤلمها . ثم تابعت وفي عينيها اعتذار مني ، قالت : ليت هؤلاء الاشخاص كانوا موجودين بالفعل . ليتهم اصدقاء حقيقيون لنا ، رثيت لحالها وقلت لها : يمكننا أن نعتبرهم كذلك ، طالما اننا سنقرأ عنهم فسيعيشون بيننا ونتحدث بهم ونقاسمهم التجربة وتتداخل مشاعرنا بمشاعرهم .. مسحت دموعها ضحكت ثم قالت : بيار قال لي الشيء ذاته . تراه وقت الازمات لا ينقصه الحس المرهف .

الجزء الثانى

(١٤)

أحاول استرجاع ما جرى فتأتينى صور مفبشة لاحداث وقعت، وأخرى غير أكيد منها . كان فى ودى حين وقعت ، أن أحكيها لاحد ليوكد لى معقولية حدوثها واقطع الشك باليقين . كان ذلك حين خرجنا من الملجأ عند الفجر بعد ليلة من الاهوال ونظرنا الى الطابق العلوى فلم نجده . وكان لابد من الرحيل .. توادعنا ذلك الوداع الذى لا سبيل لوصفه . ودرت فى شوارع المدينة أبحث عن سكن . والناس حين اسألهم عن شقة ينظرون الى تلك النظرة العجيبة .. لو انى دون سابق معرفة بهم باغتهم بالسؤال عن عروس للزواج لما استغربوا طلبى استغرابهم طلب شقة للايجار ! . أخيرا شرح لى أحدهم أن الاحوال قد تغيرت .. وان لا أحد هذه الايام يؤجر شقة ونصحنى بالاستعانة بمكتب مختص والاقامة مؤقتا فى فندق ، وهكذا فعلت .

ألقى على صاحب المكتب أسئلة كثيرة فاستبشرت خيرا ، ثم راح يشرح لى أزمة السكن ويقرأ قوانين وتشريعات متعلقة بها . وسمعته يسألنى رأيى بهذه القوانين . طالما أنى مختص بأمور السياسة فلابد أن يكون لى رأى مفيد . قلت له انه ليس من السهل الجزم بمسألة كهذه ، وان شخصا واحدا لا يمكنه الافتاء بقضية تهم آلاف الناس . لابد من لجان قانونية وشعبية وغيرها .

ـ هذا كلام صحيح ، قال مثنيا على موقفى . هذا كلام شاب مثقف سافر وعاش ورأى شعوب الأرض كيف تنظم حياتها . كل هذه القوانين غلط . كلها غلط ولا نفع منها سوى تعقيد حياة الناس . هل تعلم ، قال وهو يضرب الطاولة ، أنت تعرف بالطبع أن هذه الازمة لم تكن موجودة فيما مضى . هل تعلم لماذا ؟.

ـ لماذا ؟

ـ لأن الدولة أصبحت تتدخل فى كل شىء . لم لا يفعلون مثل

ـ لأن الدولة أصبحت تتدخل فى كل شىء . لم لا يفعلون مثل أمريكا ؟ هناك لا أحد يتدخل بأحد . أنت بوب وأنا جيم وهذه كارول وكل واحد حر . أنت صاحب ملك وهذا مستأجر ، لا يهم .. الانسان

هناك يجد سكنا فى يوم واحد . يطلب خط تليفون ، فيأتيه التليفون فى الحال . يؤثث شقته فى يومين والدولة لا يهمها ماذا يفعل الناس. أحرار !.

حاولت أن أشرح له أن البلدان تختلف فقاطعنى بالقول الحازم :

ـ لا شىء يختلف عن شىء . أنت شاب مثقف ولابد أن توافقنى على أن المكاتب العقارية وحدها قادرة على حل المشـــكلة . نعم هى وحدها القادرة على ذلك . فلتترك لنا الدولة المشكلة لنجد لها الحل .

قال ذلك وكان ما يزال منفعلا . قلت أغير الحديث فعـدت أسأله عن الشقة . جلس وراح يقلب أوراقا يتفحصـــها ويفكر ويضع بعض الاشارات هنا وهناك ، يغلق مفكرة ليفتح أخرى . ثم يفتح دفترا كبيرا بدون فيه معلومات باشارات صغيرة . وبدا لشدة ، استغراقه فى التفكير لا يرانى . كأنه لا يبحث عن معلومات تتعلق بتأجير شـقة بل يحل معادلة رياضية مستعصية فى امتحان رســـمى . وبعد الفحص والتدقيق التفت الى وقال :

ـ توجد غرفة ممتازة فى مكان غير بعيـــد من هنا ، انما بدون مطبخ .

ـ بدون مطبخ ! تساءلت كانى اسأل نفسى .

ـ نعم بدون مطبخ لكنها حقا ممتازة .

ـ ممتازة ؟

ـ نعم ممتازة . من حيث الأمان ياسلام ! تنام فيها مثل امبراطور. مكفولة مئة بالمئة .

ـ مكفولة !

ـ نعم مكفولة . تصور .. هذه الغرفة عمـرها مائة عام . وكل هذه الحرب لم تفعل بها شيئا ! لم تزحزحها من مكانها شعرة ! لا يطالبها قناص ولا رصاص والمدافع يستحيل ، نعم يستحيل أن تصيبها . هى عبارة عن .. تقريبا قبو ..

ـ قبو !

ـ نعم قبو تقول عنه حمام تركى .

ـ حمام تركى ؟

ـ بل وأحسن من حمام تركى . قلت لك لا يطالبها رصـــاص ولا قناص مقفلة من جميع الجهات ، قال مبتهجا . تصـــور ! من جميع الجهات ! ليس من فتحة لها سوى المدخل .

ـ المدخل فقط ؟
ـ المدخل فقط · تصور كم هى رائعة !
ـ المدخل فقط ! أأكيد أنت مما تقول ؟
ـ بالطبع أكيد · لا تقلق · يقول هذا ، ويهز رأسه بثقة ، حتى المدخل لا يعتبر فتحة بالمعنى الحقيقى · ستراها وتتأكد بنفسك لأنك ستنزل منه بثلاث درجات أو اربع قبل الوصول الى الغرفة تحت. ومهما اشتد القصف لا يهمك . حظك كبير . الدنيا حظ انت دون شك محظوظ .
ـ أنا حقا محظوظ ·
قلت ذلك وكدت اشكره وانصرف ، غير أنى وجدت نفسى أساله عن الضوء ، وكأنى من باب الفضول لا استفسر عن قضية تخصنى بل عن مسألة مبدئية تخص الاخرين ·
ـ والضوء ، قلت كيف تدبرون مسألة الضوء ؟
ـ فيما يتعلق بالضوء ·· الكهرباء ·· يا أخى الكهرباء نعمة عظيمة · الله يبارك سالكهرباء · بدل اللمبة يمكنك ان تضع عشر لمبات من يمنعك من ذلك ؟ الكهرباء مؤمنة فى الغرفة · لا تخف واذا ماانقطعت ، مثلك مثل سائر الناس . تنقطع فى المدينة تنقطع عندك. انما من حيث الأمان يا سلام . سترى كيف تنام فيها مثل امبراطور.
الحقيقة أنى ترددت فى الحكم على الرجل · وهو ليس بمجنون لكنه ليس بعاقل لو سمعت كلامه لحكمت عليه بالجنون ، لكن لو تمعنت لحظة فى ما يقول لبدا لك قوله الحكمة بعينها · أن يزف لى بشرى السكن فى قبو ، هذا جنون ·· لكن أن يعدد مزايا السكن فى الاقبية ابان الحروب ، فتلك حكمة لا تخطر فى بال ·· هو فى أيام السلم مجنون حتما لكنه فى أيام الحرب عاقل بالتأكيد · ثم ·· ما بالى أشغل نفسى بتشخيص قواه العقلية ! · ما أنا سوى عابر سبيل يبحث عن شقة وهو صاحب مكتب يعرض على ما لديه · وما لديه عبارة عن غرفة ـ قبو يقول انها ممتازة · اما آخذها واما ارفضها · وهو رغم كثرة الشرح لا يجبرنى على شىء · وطالما أن الحرب لم تنته فمن الحكمة أن آخذها · فهى كما يقول ، مثل قلعة لا يطالها رصاص ولا قناص · آخذها واضع فيها اللمبات على حد رايه وان ضقت ذرعا اخرج فى أوقات السلم اتنزه ، أستمتع بالشمس ، فلن يمنعنى أحد من ذلك !
نعم واذكر أنى كنت جالسا فى تلك الغرفة القبو أقرأ · لا بل أنى

كنت جالسا الى طاولتى اكتب .. لباب القبو الخشبى الغليظ ، و أعلاه فتحة مربعة كالنافذة ، بين الحين والحين كنت أتوقف عن الكتابة لأسرح بصرى بالنظر فى فتحة الضوء . كنت قد درست الموقع جيدا ووضعت طاولتى قبالتها وهكذا لا أدرى .. فجأة مرت حنان . لاح لى طيفها من الفتحة تسير فى الشارع أمام غرفتى . مشيتها القوية ذاتها وشعرها لا كما أعهده ، بل معقوص الى الخلف عند رقبتها . ناديت من وراء الطاولة حال رأيتها ، ناديت : حنان ... حنان ... لكنها على ما يبدو لم تسمعنى . فاسرعت ارتدى ملابسى واخرج الى الشارع الحق بها وسط الازدحام . نعم ، فالطقس دافىء والانفراج الأمنى يشجع على الخروج ..

رحت أحدق بالفتيات المسرعات والمبطئات ، لكن حنان ليست بينهن . قلت لعلها انحرفت فى الطريق الفرعى . فاتجهت الى ذاك الطريق . الفتيات المقبلات نحوى لا يشبهنها واولئك اللواتى يسرن امامى ، كنت أحث الخطى للنظر فى وجوههن لعل واحدة منهن تكون حنان ... كلما تجاوزت واحدة حملقت فى وجهها . لم أترك واحدة تشبهها قليلا و كثيرا الا وأمعنت النظر فيها . حتى اذا اقتربت منها أكتشفت أنها فتاة اخرى . عبرت الى الرصيف المقابل علنى اجدها فلم اجدها . وظللت على هذه الحال حتى ابتعدت كثيرا عن غرفتى . حينئذ أدركت أن العودة أفضل .

عدت أدراجى الى غرفتى أستريح من عناء البحث وتمددت على ذاك السرير فاقد الرغبة فى العمل . ثم ... هكذا فجأة هبت فى رأسى فكرة لا اعرف كيف جاءتنى ، فتساءلت : اى الحنانتين مرت من هنا وتراءى لى طيفها ، حنان الاولى صديقة الجامعة وشلة العم موسى ام حنان الثانية التى عرفتها فى العمارة ؟ حاولت ان أتذكر فلم أفلح . جل ما أذكره أن هاتفا قد هتف ساعتئذ فى صدرى وتسارعت نبضات قلبى وانى هتفت : حنان .. هى بمعنى من المعانى تشبه حنان الاولى، شعرها ولمعة من جانب الوجه ، انما مشيتها المتحفزة وطيفها اشبه بحنان الثانية .

ثم ان الأمين يزعم أشياء لا أدعى أنها متناقضة تماما ، بل أقول عنها متباينة . أرسلته الى بيتها الذى عرفناه أيام الجامعة فعاد ليقول : رأها الجيران خارجة ومعها زوجها وأولادها . وقالوا انهم لا يعرفون أين تسكن الآن فبيت اهلها موصد منذ زمن بأقفال غليظة وباب من

الجديد . لكن من يدرى .. لعل الأمين لفق هذه الحكاية ليسكتنى حين رآنى مصمما على ذلك الرأى ..

يوم جاءنى فى تلك الزيارة قلت له : اذهب وابحث عن صديقة الجامعة حنان وسلمها هذه الرسالة . ماذا فى الرسالة ؟ استغربت أن يسالنى ، فليس الفضول من طبعه . لكنى استدركت أنه هو المسؤول عن تامين سلامتى فانصحت له عن قصدى :

ـ أطلبها للزواج ، قلت

فتعجب وقال :

ـ وكيف خطرت لك الفكرة ؟ سنوات مضت على البعاد ..

ـ كانت الفكرة قد لمعت فجاة فى رأسى فوجدتها رائعة . اتزوج حنان فتتغير حياتى ، ولا أدرى بالضبط كيف جاءتنى هذه الفكرة . أتكون قد خطرت لى وانا ملازم الشقة بانتظار أن تطول لحيتى ويتم التنكر ؟ أم ان الكذبة التى لفقتها للصبية تلك بأننى متزوج قد اختمرت فى داخلى وتحولت الى رغبة ؟ لا اعلم . الشىء الوحيد الذى يبدو لى أكيدا هو ذاك المشهد الذى تراءى لى مثل أحلام اليقظة أو المنام ، وكنت فيه جالسا على شرفتى احتسى القهوة مع امراة شابة هى زوجتى انها لدعى حنان. اسم الفتاةهو الشىء الوحيد الذىبدا واضحا فىالمشهد. وللحظة ، خيل لى أن المقصودة به هى حنان التى اقابلها فى الملجأ وتزورنى بين الحين والحين . غير أنى سرعان ما ضحكت من نفسى مستدركا ان صديقة الجامعة هى المعنية بالتأكيد . هكذا وجدت الفكرة رائعة . أتزوجها . فنستعيد اهتماماتنا السابقة ونبدأ حياة جديدة مستقرة وهادئة . واذا ما عنف القصف ننزل معا الى الملجأ . ناخذ حاجياتنا الصغيرة وبعض الكتب أو الصحف وراديو ترانزستور وابان الهدوء نبدأ صباحنا بالجلوس على الشرفة ، نرشف القهوة ونتسامر كما فى المشهد . واخذتنى الفكرة حتى كدت أقوم وأذهب اليها ، أبحث عنها بنفسى لكنى تذكرت وصية الأمين لى بالحيطة . حينئذ قلت أنتظره وحين يأتى أكلفه بأن ينقل لها رسالة منى . وهكذا كان .

واذكر أنى أكدت على الأمين ضرورة انتقالى من هذا المكان ، فحنان لن ترضى بأى حال أن تسكن قبوا . شقة متواضعة معقول . لكن غرفة ـ قبو ! مستحيل مهما بلغت من رحابة صدر . قلت للأمين أن يتدبر مسألة الشقة وليخبر والدى أنى محتاج للمال فلم يقل لا . قال : حاضر . سابلغه هذا وسيحول لك المال الى

حسابك في البنك . واذا بالامين يأتيني بذاك النبأ الخرافي الذي حمله اياه الجيران ، واذا بحنان متزوجه ولها اولاد ، واذا بهم يلمحونها خارجه واياهم مع زوجها . لكن من يؤكد لي على أن الجيران هؤلاء يعرفون حنان ! لعل الجيران قد تبدلوا وحل مكانهم آخرون جدد كما حصل في أماكن عديدة من هذا البلد . راح ناس وجاء غيرهم ولم يعد أحد يعرف أحدا . ولعله قد خيل للقادمين الجدد أن الامين يسأل عن فتاة يعرفونها ولعلها هي أيضا تدعى حنان ، حنان أخرى لا أعرفها ما الذي يدريني ، لطالما حدثت التباسات من هذا النوع في مهرجان الفوضى هذه .. التباسات لخبطت كل شيء .

اذكر فيما اذكر أن الامين قد أخبرني حكاية أخرى . قال : راح الى أهل العمارة وسأل عن حنان فقالوا له : ذهبت مع أهلها الى القرية لكن أحدا لا أحد يعرف ان كانوا قد وصلوا أم لا . انقطعت الاخبار الى أن جاء أحدهم من القرية وقال انهم ليسوا هناك .

لعلهم ذهبوا الى منزل خالتها في منطقة المزرعة . غيروا رأيهم آخر لحظة وبدل أن يتابعوا مسيرتهم الى القرية استداروا في منتصف الدرب وعادوا الى بيروت .

لطالما حدثت التباسات مثل هذه اقلقت أناسا كثيرين . وحنان لا تحب القرية . تقول ان الراحة هناك تتعبها على عكس تعب بيروت الذي يريحها . ربما رفضت الذهاب وانصاعت أمها لرغبتها . غدا سأذهب الى منطقة المزرعة بل وسأذهب اليها كل يوم أبحث عنها ولابد أن أعثر عليها . لعلها تبحث عني بدورها هي الاخرى والا لما مرت من هنا . مرورها اشارة تؤكد على ذلك . عندها حدس أو شيء من هذا القبيل . شيطانة لا يعصى عليها شيء ! وهل أنسى يوم مرضت كيف دبرت المسألة أحسن تدبير ! وها أنا الآن أدرك أني أحب حنان . ما كان أسعدني أن أحيا مع هذه الفتاة البسيطة . فتاة عادية لم تكمل تعليمها ولا تحسن عملا أو مهنة . لكن هل صحيح أنها عادية ؟ أحيانا تقول أشياء كالفلسفة ، وتخترع أحيانا قصصا عجائبية وحكايات .. هل تدرك هذه الصغيرة روعة أن يكون الانسان لا عاديا ! لطالما مجدت الشعوب أبناءها من غير العاديين وأقامت لهم النصب والتماثيل وخلدت ذكراهم في الساحات . أو ليس من الاجدى لها تخليد ذاك العادي ! اقامة نصب له مثل نصب الجندي المجهول ! غير العادي ينتج الفكرة والروحانيات لكنه ينتج أدوات التدمير أيضا .. أما العادي فهو الذي يصنع الحياة . يؤمن استمراريتها . ولا يبحث في المبررات ! .

الانسانية بأسرها تقوم على أكتافه وأثقالها ومآسيها تنزل على كاهله والحروب لا تخطط الا لانها تحسب له الحساب الأكبر ! هكذا امر العادى مثل رقم الصفر لا يستوقف الانتباه ورغم ذلك فالنتائج تتضاعف به اضعاف الاضعاف ... وقد يحدث أحيانا أن يقول لا . يثور ويتذمر . ينوء بالحمل فيتمرد ، عندئذ تقع الواقعة . يتشرد ويجوع يقتل ويقتل . لكن الحياة تعود وتستمر به ولا تستمر بغيره أبدا . أكان من الضرورى أن أذوق كل هذه الآلام لكى أنال اليقين ؟! الآن وأنا مجرد من كل شيء ، أهلى وأصدقائى ، ماضى ومستقبلى ، أشعر أنى أريد هذه الفتاة العادية . اريدها لذاتها . فيما مضى كنت اظن ان للحب شروطا ومقاييس وان التواصل امر بعيد المنال واذا بى أكتشف مع هذه الفتاة النقية أن الحب أبسط بكثير مما كنت أتصور . لم يكن للوقت معها حساب . تحكى لى قصص الحى والناس وتسألنى فى أمور كنت اخالها بديهية . واذا بسؤالها البسيط يحول اليقين الى علامة استفهام تستقر هكذا بينى وبينها ويعيد الى الذهن السؤال نفسه الذى اغفلت الاجابة عليه . وتسألنى متى ستنتهى الحرب . فأجيبها : لا أعلم . عجيب تقول ! تدرسون دوكتوراه فى السياسة ولا تعرفون شيئا عن الحرب . او ليست الحروب سياسة ! وتسألنى ان كان الفرنسيون يفهمون فى السياسة اكثر منا . فأجيبها : طبعا لا . غريب . تقول وفى عيونها دهشة . لم تدرسون الى فرنسا اذن ! طريقتها فى التعبير تزيح الغلالة عن مسائل هى بالنسبة لها مرئية . تقول ان عبد الحليم حافظ اعظم مطرب فى العالم . صحيح انه ليس كذلك .. لكنها هى التى علمتنى الاستمتاع بهذا الصوت الرائع الرخيم اكتشف معها ان اغانيه تصدر عن القلب . تخرج من جرح الاعماق . لابد ان هناك امورا لا تحصى اغفلت النظر اليها وحولت عنها الانتباه . طوال حياتى ظللت أفكر أن للحب شروطا صعبة ومقاييس واذا بى أكتشف أن الحب أبسط بكثير مما كنت أتصور . وأنا أحب هذه الفتاة ولابد لى أن أخرج للبحث عنها . أبو سليمان بلسانه قال ذلك هل هذا معقول !! سأذهب اليه بنفسى حال تهدأ المنطقة هناك . أسأله أن يصارحنى وليكن ما يكون . نعم كنت قد اتخذت هذا القرار ..

والآن أحاول استذكار ما حصل بالضبط . كان ذلك ، لست أكيدا انما على الارجح بعد ان تراءت لى حنان من فتحة القبو ببضعة أيام . لا

أذكر كيف حصل ذلك ، الا أنني عندما أحاول استرجاع ما جرى لابد وان تمر في مخيلتي اشياء كثيرة ...

تهت في شوارع المدينة ابحث عن حل . الشوارع مقفرة أو تكاد . ليس سوى بعض المارة . لم تكن تمطـــر انما كانت الارض مبللة كان مطرا نزل فيها أياما . الدروب مقفرة تذكر بايام منع التجول . لا أثر للقصف الذي اعهده . وقع اقدام المارة هي الجلبة الوحيدة التي تقرع الارض وترتفع في الفضاء ثم تتلاشى . الساعة تقارب الحـادية عشرة صباحا الا أن مناخا عاما من الصـــمت والانســـحاب يوحي بساعة الغروب .

سرت أحاذي الحائط : قطع من حجارة تاكلت حتى غدت كالخفاف فيها شقوق وغموض . خطر لي أن اترك أصابعي تمر عليها تلامسها . لكني تذكرت تعبان الرجل الشقي .. ومن بعيد لمحت طيف شاب قادم نحوي . ورغم مشيته المتهالكة بدا متفحص النظرات ... كاد يقترب مني فالتصقت بالحائط دون أن أتوقف تماما . الحذر فضيلة . حيائي مضطربا . هيأته عن قرب رغم التعب لا تدل على ما يثير الوجل . حيائي ثانية وقال : هل لي أن أعرض عليك مسألة أيها الاخ ؟ استغربت أن يستشيرني بامر ليس لي فيه معرفة . لكن وجهه لا يوحي بالريبة . نعم قلت . فقال : لدى بعض الاشياء ابيعها املها تفيدك . اضحكني كلامه . ما هي هذه الاشياء واين اضعها ؟ وقلت له : لا حاجة بي لاي شيء الآن. ثم اردفت لا أدري ما الذي دفعني لذلك : اسكن مؤقتا في قبو غير اني عازم على الانتقال الى فندق عما قريب . أجابني الشاب : ليس للمكان أية أهمية . ثم أضاف أنه في استطاعته أن يتدبر المكان بنفسه ان كانت تلك الاشياء تهمني .

كلامه في الحقيقة أثار بي فضولا . وهممت بأن أستفسر عـن هذه الاشياء لكني عدت واعتذرت . قلت : شكرا . الوقت غير مناسب لشراء أي شيء .

ومشيت .

وما أن تخطيته قليلا حتى عادت الفـــكرة تلح علي : ماذا يبيعني ياترى ! وقبل أن التفت ، ما كدت استدير نحوه حتى وجـدته منتصبا أمامي وقد سبقني الى الجواب :

ـ على العكس يا أخي . انه بالضبط الوقت المناسب لشراء مثـل هذه الاشياء .

لم أكن أنوى على الاطلاق أن أستزيده ولم تكن بى رغبة فى رؤية شىء لكنى القيت نفسى أسأله :

ـ هل لى أن أرى تلك الاشياء ؟

لاح انفراج على وجه الرجل وقال :

ـ تعال معى أريك اياها ٠

مشى ومشيت معه ٠ لففنا بعض الشوارع الفرعية ٠ ظننته يحاول تضليلى معتمدا على جهلى بالمنطقة ٠ لا أدرى لم يخمن الناس أنى غريب فى مدينـــة امضيت فيها معظم سنوات حياتى ؟ وحتى انا حين أجوب شوارعها الآن يساورنى أيضا ذاك الاحساس بأنى عنها غريب !

أدخلنى الشاب زقاقا ضيقا وعند رأس الزقاق توقف ليقول :

ـ انتظرنى هنا ٠ دقائق وأعود اليك ٠

بدأت الخشية تساورنى ٠ انتظرته بضع دقائق فكرت خلالها اكثر من مرة بمغادرة المكان ٠ قلت الوذ بالفرار وأخلص منه ومن حـكايته ، لكنى عدت وسخرت من نفسى ٠ قلت ان الحرب وحـــكاية البطـــاش جعلتنى اشد حذرا مما ينبغى . وهذا الشاب لا يبدو قاتلا وما يبقى على الارجح سوى بعض المال ، وفيما كنت اناقش الاحتمالات رايته يشير الى من بعيد بأن أتقدم فتقدمت . ولما وصلت اليه قـــال :

ـ لندخل ٠ البضاعة هنا ٠

دخلنا مكانا سفليا كالقبو الذى أسكنه ٠ ! انمـــا هذا القبو ليس بغرفة بل مكتب . طاولة حديدية رمادية اللون وكرسى وهاتف ورف وكرسيان آخران من الحديد الرمادى أيضا ٠ فتح الشاب الدرج وأخرج منه لفة صغيرة من الورق فتحها بعناية فائقة ٠ كان فى داخلهـــا تبرا يخشى أن تذريه الانفاس ٠ ثم التفت الى وقال :

ـ تعال أنظر ٠

اقتربت منه بتؤدة ٠ عدوى الحـــرص والتهيب انتقلت منه الى ٠ ركزت نظرى فى محتويات الورقة التى اصبحت شبه مفتوحة : أحجار ٠ وأنا وهو فى هذه الظلمة وذاك الجو الخانق لا اميز ان كانت رخيصـــة من زجاج أو ثمينة من الماس ٠ وقفته وتفانيه يدلان على أنها من الماس أو أنه على الاقل يعتبرها هو كذلك ٠

ـ ما هذا ، سألته :

ـ الماس ٠

ـ الماس حقيقى ؟

ـ نعم حقيقي • يمكنك أن تأخذ عينة منه الى أي جواهري تفحصها وتتأكد بنفسك •

ـ الماس حقيقي ؟ عدت أسأله •

ـ الماس صاف • مئة بالمئة •

كدت أقول له أن الماس ليس كالفضة أو الذهب وأن ليس هنـاك الماس صـــــاف مئة بالمئة وآخر ممزوج • لكني صرفت النظر عن هذا الايضاح وعدت اساله وكنت في واقع الامر أسأل نفسي • أقول :

ـ وما حاجتي أنا بالماس !

ـ تبيعه • أجابني • تحقق كسبا • صفقة ! ألا تسمع باشـــخاص يبحثون عن صفقات هذه الايام ؟

ـ صفقة ؟

ـ نعم صفقة •

ـ وبكم هذه الصفقة ؟

ـ سعر خاص •

ـ خاص !

سألت بانزعاج • لا ادري لم أزعجني أن يعطيني اياها بسعر خاص وهو لا يعرفني • ثم قلت له بلهجة لا تخفى استيائي :

ـ لكنك لا تعرفني كي تبيعني اياها بسعر خاص !

فأجابني بضيق وبغير اكتراث • كمن يسمع درسا حفظه لكثرة ما ردده :

ـ سعر خاص بمن يأخذ الكمية كلها •

ـ الكمية !

ـ نعم

ـ أية كمية !

ـ ما لدي منه •

ـ وما لديك منه كثير ؟

• نعم

ـ لعله يخيل اليك يا أخي أني رجل ثري • أم أنك تظن ••

فقاطعني بالقول ولهجة الضيق ذاتها :

ـ لا أظن شيئا •• كل ما في الامر أني احاول بيع ما عندي لشخص قادر على الشراء •• فان كنت قادرا ••

ـ تريدني أن أشترى هذه الحبـــات كلهـا ! كم حبة ٠ سبعة ! عشرة !

ـ هناك كمية اكبر . قال هذا وثبت نظره بالسقف .

ضقت ذرعا به فقلت له :

ـ دع عنك هذه اللعبة يا اخى ، ليس لدى وقت اضيعه ..

وكدت أضيف : بترهات كهـــذه ٠٠ غير أنى سكت ٠ وهممت بالانصراف وبى شك فى صحة الرواية من اساسها وفى سلامة عقـــل الرجل . مددت يدى أسلم عليه واشكره .. فاذا به ينظر الى تلك النظرة .. نظرة رجل حكيم ويقول :

ـ لست بمازح يا أخى وهى ليست بلعبة ٠ ما أقوله واقع يمكنك أن تتبينه بنفسك ٠ لدى كمية من الالماس ، تعرف ملابسات الحرب ٠٠ كمية أود التخلص منها لسبب ما وليس عندى متسع من الوقت لابيعها حبة حبة ٠

صفنت هنيهة اراجع نفسى وهذه الحيرة . قدرت أن يكـون مثلى مضطرا للهرب لسبب ما ٠ وبحزم سألته عن الثمن فأجابنى بلهجتى ذاتها وبسرعة قال :

ـ مائة وخمسون ٠

ـ مائة وخمسون ماذا ؟

ـ مائة وخمسون ألف ٠

ـ اوف . من أين لى أن آتى بها !

ـ لا ادرى . هذا شأنك . مسألة تخصك . لكن ان اردت شراءها فثمنها مائة وخمسون الف ليرة ٠ لا جدال ٠

سألت وأنا اقلب الحبات التى أصـبحت فى يدى ، لا أدرى كيف انتقلت منه الى .. اقلبها اتفحصها وأنا احـدث نفسى : الحبـة اذن بمائة وخمسين الف ليرة ٠

ـ لا ٠ أجاب ٠ الكمية كلها بمائة وخمسين ٠

ـ كل الكمية ؟

ـ نعم ٠

ـ كلها !

ـ نعم كلها ٠

وكدت القى عليه السؤال ذاته للمرة الثالثة لكنى خشيت أن ينفذ صبره فيطردنى ٠ قلت :

ـ وما هو حجم هذه الكمية ؟
ـ كيس ٠
ـ كيس ؟
ـ نعم كيس ٠٠
ـ كيس ؟ أقصد حجمه ٠٠

وقبل أن اشير بكفى الى حجم كيس يشبه أكياس القماش الصغيرة التى كانت النسوة العجائز فيما مضى يضعن فيها النقود ، قاطعنى بالقول :

ـ كيس أرز كبير خط أحمر ٠

نعم ٠ هكذا تبدو الوقائع كالأكاذيب ٠ كيس ضخم مثل الذى أشاهده عند بائعى المواد الغذائية مملوء ليس أرزا بل حبات ماس ! أعرف أن ليس فى الامر ما يضحك لكن ولمجرد أن تلفظ الرجل بجملته تلك انتابنى ذاك الضحك ٠ ليس فى الأمر ما يضحك لكنى مأخوذ بقهقهة مجنونة تضيق بها رئتاى ٠ سمعت بأشخاص يموتون من الضحك فما صدقت . مقاومة الضحك أعتى من مقاومة البكاء .

أو ليس فى وسع هذا الرجل أن يفعل شيئا من أجلى ؟ فليتدخل لينتشلنى كما ينتشل غريق من دوامة . ما باله يقف هكذا !. هات سوطا واجلد هذا الراكع أمامك ٠ أجلده أو ارمه بماء مثلج ٠ شلال ماء مثلج ٠ لا شىء ينقذه غير هذا رحماك ٠ أنفاسى تتقطع وصدرى ٠٠ وهذا الرجل اللامبالى يقف أمامى غير منزعج ولا غاضب ولا مستغرب أبدا ٠ فقط ينتظر أن أتوقف عن الضحك ليكمل هو صفقته ٠

وتوقفت ٠ هكذا مثل آلة ضحك توقفت بطاريتها فجأة وسكت ٠ وانتابنى حزن ٠ هذه ليست قهقهة ضحك بل أنين بكاء ٠ جرح عميق وحزن ٠ حزن أبى وأمى وأختى حزن الأمين والبطاش ٠ حزن ميريام وجوانا وبيار وحزن الخسارات ٠ وتلك الحبيبة التى ربما هى وأهلها لم تصل الى القرية كما لم يصل الى مواطن الامان آلاف الناس غيرهم وأنا أماطل فى قبول هذه الفجيعة ٠ هذه الفجيعة أماطل فى قبولها ٠ فحنان لم تصل وأبو سليمان نفسه قال هذا .

هكذا هدأت وراحت المشاعر كلها والاحاسيس ٠ هدوء غريب وفراغ . هدوء التلاشى والتهالك . لكنى كنت قد أدركت أن الاوان قد فات، وأن الصفقة قد تمت ولم يعد من مفر . الاقدار والملابسات هى التى اختارتنى لهذه المهمة ٠ لست سوى كيان هش فارغ ٠ كاهن يصلى فى

محراب هبط عليه وحي ينتظره منذ دهر يأمره بالاستجابة فيتمثل هو لما يؤمر به . هكذا أنا الان مسلوب الارادة ممتثل وحزين .. نهضت من مكاني واشعلت سيجارة والرجل مافتيء ينظر الى . لم يكن مستغربا ولا مشفقا ولا منزعجا وكأن ما حصل أمر طبيعي ينتظر حصوله منذ تلك اللحظة التي قال فيها جملته :

« كيس أرز كبير خط أحمر » .

وكدت أصرخ لا . لا أريده . كيس الالماس هذا لا أريده . أصرخ وأعدو في تلك المدينة والرجل يعدو ورائي يحاول اللحاق بي لاتمام الصفقة وأنا أضلله في الشوارع والازقة ، أدخل زقاقا ثم أخرج منه لأدخل زقاقا آخر حتى أصل الى ذاك الشارع الذي أعهده ، وانعطف الى بيت العم موسى . هذا المكان الذي شهد النهاية . أركع فيه وأقول لله أن يرحمني ، والعم موسى أقول له : يا عمنا الذي أنت الآن في السماوات اكشف عن وجهك لحظة لتستقر خواطري . قل ما يثلج الصدر . عمنا ، ذاك السلام المفقود .. هل يقوى ابن آدم على تحمل فقدانه طويلا ! السلام المفقود هو الفقدان الاصلي الذي لم يفقده العم موسى يوما وها أنا فارغ القلب ، حزين وسمعتني اقول للرجل :

ـ أين هو هذا الكيس ؟

ـ في البيت

ـ وأين هو البيت ؟

ـ متى قررت صحبتك لرؤيته .

توقفت هنيهة وقلت باستسلام :

ـ قررت .

سرنا والشمس في منتصف السماء والسماء غبراء مغطاة ليس بغيوم تحمل المطر بل بقبة من غبار تصاعد من صحراء . مشينا بمحاذاة حائط قديم في حقل أصفر طويل . وللحظة شاهدت ظلا قائما على ذاك الجدار العتيق . انه ظلي . قامة هشة وتعب قديم . أهذا ما يسمى بالتنويم المغناطيسي ؟ لولا هذا القدر من الوعي لظننته نومني بطريقة ما . هو يمشي وأنا امشي وراءه . ولاحت في رأسي أفكار شتى وخطر لي أن أسأله عن اسمه أو عمله وأين سيسافر . لكني لذت بالصمت اتابع سيري دون اعتراض . ثم رأيته يشير الى بيده ويقول:

ـ هناك . في نهاية الحقل الى اليمين منعطف صغير يوصلك الى البيت المنشود تقدم وساتبعك .

ليس من مخلوق سواى وظل صغير وحفيف حذائى على الارض والتراب يتناثر حولى وأنا أمشى . لم أمشى هكذا مثل أولئك الذين فى نهايات الحروب يساقون الى أماكن مقفرة ، يؤمرون بالوقوف على جدران عتيقة ثم تزرع أجسادهم بالرصاص وفى لحظة ينقضى الامر ، فلا يعود أحد يسمع عنهم شيئا !

وقفت أمام الباب . بيت قديم منفرد ونسحة مهجورة نبتت فيها أعشاب برية ومزروعات ونوافذ خضراء قاتمة جرداء ، والكلس الذى يغطى الجدران مبقع بالرطوبة . انتظرته قليلا حتى وصل. تناول من جيبه رزمة مفاتيح وفتح الباب . دخلنا فأقفله وراءه وقال لى : تفضل . قاعة كبيرة مغلقة النوافذ . البيت ليس قبوا كالذى أسكنه لكنه مظلم . مقاعد قديمة منكشة أقمشتها وأبواب مقفلة ، هى بالتأكيد أبواب غرف . فتح أحدها وولج . غاب بعض الوقت ثم سمعته يقول :

ـ أدخل .

دخلت . كان يدير ظهره لى وبدا يتفحص شيئا أمامه . نظرت حيث هو منكب فشاهدت الكيس . انه فعلا بحجم أكياس الارز والسكر الضخمة . تلك التى كنت أشاهدها عند بائعى المواد الغذائية ، يشقه فى المنتصف خط أحمر بعرض الكف . تقدمت نحوه .. يده المتلاشية تعبث بحبات كتلك التى شاهدتها معه ملفوفة بورقة . هذه حبيبات منتشرة متراكمة غير ملفوفة . تلمع . انها حبيبات ماس . كل هذا !! يا الهى مئات الحبات ! آلاف الحبات ! ويده المتلاشية تعبث بتؤدة ، ونظره منسحب اليها كأنها المغناطيس . ثم رايته يتكىء بكوعه الى الكيس ويغطى وجهه المظلم بكفيه وقليلا قليلا ينحنى ويجثو مستندا الى كيسه ويده تداعب الحبيبات ووجهه يكفهر .. أتراه عاشقا متيما حكم عليه بالنفى المؤبد الى صقيع سيبيريا وأذن له بوداع حبيبته التى أبدا لن يراها ؟ يودعها فلا يندفع اليها كمجنون بل يكتفى باقتراب حزين يكاد لا يلامس الجسد . لا فائدة ، فهذا الجسد الحزين لن يلامسه أبدا . أبدا لن يراه ، ليس فى طوعه اذن سوى أن يحمله فى أوجاع ذاكرته ويرحل . وهناك يتدبر أمره مثل عجوز القلعة . يقاربه استرجاعا . بزرعة عامرة أو حديقة غناء . يغفو على خدر أنفاسها وتوقظه برائحة الطيب العابق من حناياها . لكنه أبدا لن يراها . أبدا . لذا لا فائدة من الاندفاع . وهو على حافة التهالك هذا زاهد يتحلى بوداع أليم كانين

مكتوم • مكتفيا بالخيال دون الجسد • يفعل ما يترقب فعله ، ما تبقى له من عمر فى ذاك الزمن المتخيل • وتنبعث من الحبيبات وشوشة ولمعان . حشحشة وبريق . وطغى الم على ذاك الوجه عظيم . وانتشر فراغ فى الجو رهيب •• أهكذا ينتقل الانسان من عالم الادراك الى مغالق الجنون ! لم تكون الحرب مع آخر ومضات الوعى مخيفة الى هذا الحد ! هل سيحدث لى الشىء ذاته حين تنتقل الثروة هذه منه الى؟ تغرب عنى الشمس غروبا ليس رهيبا وراء افق ، بل غروبا مقيتا . شيطان يفقأ عينها ، يبدد النور الرحيم ويتركنى فى ظلمات عالم سفلى أسود أحمر كعالم الشياطين !

نعم هكذا رأيته يتكىء بكوعه على الكيس ويغطى وجهه المكفهر بكفيه • ثم ، ولدهشتى سمعته يبكى ، ان كان يعز عليه لهذه الحد أن يبيع ثروته فلم يفعل ؟ لم لا يحتفظ بها لنفسه ويبيعها حبة حبة الى ما لا نهاية أو يخزنها عنده الى الأبد ! يواريها فى صندوق من حديد صلب . أو يدسها فى تراب اعمى ؟ . تساؤلات كثيرة طافت برأسى بينما كان هو يبكى بحرقة وكتمان • لكنها طافت دون الحاح • كنت أنا أيضا أنتظر أن ينتهى من بكائه ليقول شيئا ، يخامرنى ذاك الشعور بأنه لم يكن من المحتمل أن تجرى الأمور على شاكلة أخرى وأنه لابد من اللوعة فمسألة شرائى هذه الثروة قد تمت وانتهى الامر • تمت فى تلك اللحظة التى نطق فيها جملته فأصبحت الجملة وكيس الخط الاحمر ملىء بالماس ثروة طائلة انتقل عبؤها منه الى .

ثم رأيته يمسح دموعه بمنديل من قماش ويتجه الى النافذة • يقف قبالتها مكتفيا بفتح الزجاج دون الخشب • يستنشق هواء رطبا أعاد اليه على ما يبدو شيئا من هدوئه • وبعد لحظات اشعل سيجارة سحب منها نفسا ثم التفت الى وبدا رغم لوعته متماسكا :

ـ انها لك • خذها يجرى التسليم حين يتم الدفع • غدا اذا شئت أو بعد غد ••

تراودني جديا فكرة الذهاب الى طبيب نفسي . أوهام .. وأشياء كثيرة تبدو لي مخلخلة وتغيرات طرأت على سلوكي .. هكذا ودون قرار مسبق حملت أغراضي وعدت الى الفندق . صحيح اني كنت زعمت ذلك للشاب الذي باعني الالماس ، غير أنه لم يخطر في بالي حين زعمت هذا أني سأنفذ القـــول بالفعل . ثم تركت خبــــرا للأمين في الدكان القريب من القبو مثلما فعلت حين غادرت العمارة . أعلمه فيه بعنواني الجديد .. وقبل ذلك كان الأمين قد زارني في ذاك القبو .. وتلك هي المسألة التي تشغل بالي . تحيرني حيرة مضنية ففي الثـــواني والتي تليهـــا اتبنى فكرة تنفيها فكرة اخرى نفيا يمسه الشــــك بان الاولى هي الاصح . حتى أصبحت كثير العرق ، أغير ملابسي عدة مرات في اليوم والطقس ليس حارا .

ثم اني محتار في تقرير اي حنان مرت امامي وعن أيهما ســألت الأمين ؟ ربما أكون على الأرجح قد أرسلته يبحث عن الاثنتين ففعل . وكانت النتيجة تلك ، أن الأولى قد تزوجت واصبح لها أولاد وأن الثانية قد فقدت مع اهلها ، وانا في هذه الفوضى لا اعرف مهمــــا حاولت الاقتراب من أعماق ذاكرتي ، ايهماتراءتلي من هذه الفتحة .. تراءت لتكذب أقوالَ الناس والامين .

ان ما حدث قد حدث لا مراء في ذلك . لكن ذاكرتي تخونني في ما يتعلق بالتفاصيل . هل دخل على الأمين وانا جالس في ذاك القبو ؟ أم كنت واقفا أمام الباب ثم تراءى لي طيفه من بعيد فاشرت له بأن يتقدم ففعل ؟ لا اذكر . كما يرتدي جاكتته السبور ذاتها التي أستقبلني بها عند خروجي من المطار وبنطالا بنيـــا وكان أنيقا . لون الجاكيت يضفي على عينيه شيئا عميقا كالاسرار ، وثقة بالنفس لا تتزعزع . حسدت الأمين وأجلسته على الكرسي الوحيد لدى في الغرفة .. وجهه واثق ومنتصر . حتى في المشقات يبدو منتصرا . مال على يوشوشني. قال :

ـ خرج البطاش من السجن . ألم تسمع به ؟

ـ بلى سمعت ، انه المتهم بقتل ..

وقبل أن أكمل جملتي وافقني بالقول :
ـ نعم انه هو ٠
ـ غريب ، وما دعوتي أنا بالبطاش ؟
ـ دعوتك ٠٠ ألا تعرف من هو البطاش ؟
ـ أسمع به لكني لا اعرف بالضبط من يكون وماذا ٠٠
مال على اكثر وهمس في أذني كلاما نفذ للتو الى الاعماق :
ـ البطاش أخوك ٠ قال ٠
ـ أخي !
ـ نعم أخوك ٠
ـ أخي انا ؟
ـ نعم أخوك أنت ٠
ـ لكن ٠٠ لعلمي انه ليس لي أخ !
ـ بلى انه أخوك لأبيك ٠
ـ وهل كان أبي متزوجا من قبل ؟
ـ لا ٠ ما كان أبوك متزوجا من قبل ٠
ـ كيف يكون لي أخ اذن !
ـ البطاش أخوك غير الشرعي ٠
ـ غريب ٠٠ كنت سمعت بحكاية مثل هذه ، انما سمعتها بشكل مختلف !
ـ نعم ٠
ـ قلتم انه ابن لعمي ٠٠
ـ نعم قلنا ذلك ٠
ـ وتقول الآن انه أخي ٠٠
ـ نعم فهو أخوك ٠
ـ وأي القولين اصح ؟
ـ الثاني ٠
ـ أأكيد انت مما تقول ؟
ـ نعم أكيد ٠
ـ غريب ٠٠ لم كذبتم علي اذن ؟
ـ مداراة لشعورك ٠
ـ ولم تقولون الحقيقة الآن ؟
ـ لأن الحقيقة نور ٠

ـ لكن كيف تاكد لكم أنه أخي ؟
ـ لو رايته بنفسك لتاكدت ٠
ـ يشبهني ؟
ـ مثل توأم ٠
ـ يا الهي ، أي كلام هذا !
ـ نعم ٠
ـ وكم عمره ؟
ـ من سنك ٠
ـ غريب !
ـ تعم ولدتما في اليوم ذاته ٠
ـ ما هذه الحكاية !
ـ انها الحقيقة ٠
ـ وأمه من هي أمه ؟ أتكون أمي أمه أيضا ؟
ـ لا ٠ أمك ليست أمه ، لو كانت أمك أمه لكان هو أخاك الشرعي٠
ـ صحيح ٠٠ يا لي من أبله ٠٠ من هي أمه اذن ؟
ـ امرأة كانت تقيم في بستان لها في الجوار ٠ ريفية تزرع أرضها بنفسها وتشرف على العاملين فيها ٠ جاءت الى والدك وقالت له : هذا ابنك ٠ قبل أن تلده قالت له ذلك ٠ لكن والدك رفض ٠ قال لا ٠ قالت له ستندم ٠ فلم يأبه لتهديدها ٠ باعت أرضها واشـــترت غيرها في قرية غير بعيدة ٠ تولت تربية ابنها بنفســها ولم تتزوج ٠ ومنذ أن وعى ابنها الكلام وهي تلقنه الدرس ذاته ٠ تقـــول له : أبوك رفض الاعتراف بك ٠ رزق بصبيين في اليوم ذاته ٠ انت واخيك ٠ أنا أولدتك وهي أولدت اخاك ٠ أنكرك واعترف به ٠ غدا تصبح رجلا وتنتقم منه وليس من انتقام أفظع من أن تقتل الذي يعترف به ويفخر ٠
ـ يا الهي ! أية حكاية هذه ؟
ـ هذه ليست حكاية بل حقيقة ما جرى ٠
ـ لكنها تبدو أشبه بالحكايات ٠
ـ ما الحكايات سوى وقائع يتناقلها الناس ، يضيفون اليها أشياء ويحذفون أشياء ٠٠

والفيت نفسي اسأل الامين عن اسم البطاش الحقيقي ، ان كان يحمل الاسم ذاته ، اسمي ، أم ان له اسما آخر فأجاب :

ـ الاقوال حول الاسم متباينة لقبته أمه بالبطاش وسار عليه اللقب .

البطاش .. قلت أحدث نفسي وسمعته يردد :

ـ انه كذلك بالفعل .

ثم لا اذكر كيف ودعت الأمين وكيف تركته يذهب دون أجوبة محددة . لا شك في أن كيس الماس شغلني عن اشياء كثيرة .. احاسيس غريبة وأفكار بدأت تنتابني تبدأ من نقطة صغيرة ثم تأخذ بالانتفاخ . مثل بالون هائل تنتفخ وتنتفخ ثم تنفجر . وتأخذ بالدوران . كجبل عارم من رغوة الصابون . سأبيع الماس بالملايين .. بملايين الملايين .. واشترى في اصقاع الدنيا جزرا رائعة كالتي ذهب اليها جوجان ، أعيش فيها هناك حياة وئام وسلام . أتنقل بينها متى شئت . افتنى مزرعة حقيقية وليست مثل التي اخترعها السجين العجوز في قلعة حياته . وادعو البطاش للصلح . ولم لا ! فهو أخي وحبيبي . أقول له انها دعوة للحب فلننس الأحقاد ولنعيش في أفراح هذا الكون ! خذ يا أخي هذه الأموال وافعل بها ما تشاء . ما هم الاسم وصاحبه يملك ثروة كهذه ! انها القوة . وحدها ترفع أسماء وتطمر أسماء والقوة الآن ثروة من ماس تركها لي مجنون ورحل . ارسل له من يبلغه دعوتي وأعقد معه صلحا بشروطه . وان كان الاعتراف به يرد له الاعتبار فسأكتب له بنفسي صك الاعتراف هذا وأنشره في الصحف . أقول فيه أنا فلان ابن فلان أقر واعترف بأن البطاش هو أخي الذي أنكرته عائلتي لسبب ما قد مضى . ولم لا فهذا حقه لو نال كل ذي حق حقه في هذه الدنيا لما قامت حروب . أو ليست حكاية أهلي مع البطاش صورة لذاك التعنت الذي يتحكم في العالم ؟ نعم أرسل له من يبلغه رسالتي وان رفض أذهب اليه بنفسي . لا شك في أنه تعب هو الآخر من حياة التشرد ، والفرصة الرائعة هذه تفك له مغالق الدنيا ، تحمله على بساط من أثير . لكن .. أمن العدل أن أغفر خطاياه مقابل عدوله عن قتلي ؟ أطلق يده ، أغذيه فوق ذلك بجبروت القوة يقتص بها من مخلوقات بريئة ! لكن .. أمن العدل أيضا أن أقدم له نفسي أنموذج تضحية لكي أبرهن لهذا العالم أن العدل هو سيد الأحكام ! أفعل مثل محامي الشيطان لكي يعتدل الميزان ! لا . لن يعدل البطاش عن قتلي حتى وان آلت اليه بواسطتي ثروات الدنيا كلها . لقد شب على هذه الفكرة ولا مفر . لقنته اياها امه مع الانفاس الاولى ، أرضعته اياها مع

اولى قطرات الحليب ، مثل الندى يسقى الزرع فلا يعود فى مقدورك انتزاعه من صلبه او فصل الرحيق عن النسيج · لكن ·· من يؤكد لى على ان البطاش مجرم ؟ انا لم أسمع به سوى من أهلى · لعلهم يلفقون حكايات ! هل سمعت به من أحد غيرهم ؟ لا أدرى · لا أذكر ·

حملت حبتين من حبوب الماس وذهبت بها الى جواهـــرى مهم فى المدينة · وضعتها أمامه على الطاولة وانتظرت · قلت أرى وأسـمع ما يقول . اخذ الرجل حبة وتناول منظارا مكبـــرا من درج أمـامه وراح يفحصـــها فحص خبير عارف . ثم أعادها الى الطاولة وتناول الحبة الثانية يفحصها بالطريقة ذاتها · ورأيته يقلب شـــفتيه ويهز رأسه فخفق قلبى · واضح أنه يفعل ذلك اعجابا وسمعته يقول :

ـ لا اظنك اتيت بها من هنا ·

فأجبته على الفور ولا ادرى كيف حضرنى الجواب :

ـ لا · أحضرتها معى من بلجيكا ·

ـ واضح ، قال ، هذا الماس نادر .

ـ نادر !

ـ بل ، ولا يقدر بثمن .

ـ لا يقدر بثمن !

ـ انه حقا لا يقدر بثمن ·

لا أدرى لم فعلت ما فعلت حين قال لى ذلك · أخـذت الحبتين منه وأسرعت فى الخروج ولم أسأله عن السعر · لم أقل له شيئا · فقـد تناولت الحبتين وعدوت أهرب منه وسمعته يكلمنى فلم أرد عليه · يا الهى ! ثروة أعظم من ثروة أوناسيس ، أصبحت بين ليلة وضـــحاها صاحبها دون مشقة تذكر غير حكاية البطاش والأمين وهذه الحرب ! جيش من الماس · ثمين مثل جيش من نمل لا يمكن احصاؤه أملكه أنا وحدى ! الماس جدير بأن يرمى فى بحر فلا يملكه أحد أو يدفن فى عمق أعماق الأرض أو يذر فى مصب شلالات نيـــاغارا · تحرقه زمجرة مروعة تبعثره فى أحشاء محيط فلا يملكه أحد . هل اخبر والدى؟ان أخبرته استحكم به*الغرور ونزعة للسلطة لا تعرف الحدود · والامين هو الآخر لا يقل عنه غرورا ! لقد اكتفى لحد الآن بالدور الثانوى لكن من يدرى ؟ لعله يتوق الى الظهور على الشاشة وحده ؟ ينتزع لنفســـه وبجدارة ، دور البطولة فيكيد لى مكيـــدة أعجز عن دحرها ، يبيعنى ويتحالف مع البطاش نعم ·· فثروة كهذه تفك اللحمات · ما هو فى

لهاية الأمر سوى من جنس البشر الذى أسقطته شهواته من نعيم الجنة وليس من ملائكة سوى فى السموات · وأنا وحدى الآن صـــاحب الثروة هذه ! بأى المشاعر ينساق أصحاب المليارات ؟ شـــأنهم شان السلاطين · أن يصبح الانسان اله نفسه هذا هو العذاب الاكبر · مثل جالس على عرش ليس من حوله أحد · تفتك به وحدة قاهرة · يصارع لينتزع خلاصا فى قمة وحدته · وهو فى جبـــروت العظمة تلك نسى أقانيم الخلاص · وميـــــريام على حق · الحب وحده يداوى الألم ، ما النفس الا ذرة فى محيط تسعى فيه الأفئدة الى التواصـــل وليس من سعادة الا فى هذا السعى · سأخبر أمى · وحدها قادرة على ذلك الآن · أسافر الى الخارج وارسل لها برقية تقول انى محتـــاج لوجودها معى فأنا مريض ·· وستأتى · حتما ستأتى · وتهدىء خاطرى وتقول : أنت يا بنى متعب ولابد لذهنك ان يصفو وتقضى معى أياما لا تحدثنى بهذه الثروة بل تحكى لى حكايات عابرة وتستذكر طفولتى ·· تســتذكرها كأنها تسترجع أشياء حصلت البارحة · لا تحفظها عن ظهـر قلب بل تستخرجها من مهود ذاكرتها · لكل حادثة أو مشهد مهد · وتحدثنى عن ولادتى وكيف جئت الى هذا العالم وعن تلك الفرحة · مباشرة بعـد ولادتى حين أحضرونى لها ، تقول انها ضمتنى الى صـــدرها وهمست لنادينى باسمى فالتفت اليهـــا وفتحت عينى · وتؤكـد انى عرفت الصوت صوتها وعرفت الاسم لكثرة ما سمعته منهـــا وهى حامل بى · واحكى لأمى عن حنان · أدهشها بتلك المخلوقة الرائعة وأسالها رأيها أن أتزوج بها · انما ·· قد تقول لى ، يابنى فى حالتك الراهنـة لا يمكنك الزواج بفتاة مثل حنان · معها حق · أســـيكون فى وسعى الان احتمال الخيالات التى تدور فى رأسها ! ألا يكفينى ما يعبث منها فى رأسى ؟ أن أتزوجها تلك سعادة لا قدرة لى عليهـــا · حلم تعاكس الظروف تحقيقه · مثل متسول تيسر له بعض النقود فاشترى بها ربطة عنق · وأنا هو ذلك المتسول الآن صاحب ثروة تتحكم باختيـاراته · لم لا اتصل بميريام ؟ ميريام معها تحس انك أكثر حرية مما أنت عليه بمفردك . وستنظر ميريام الى هذه الثروة وتقول: وماذا تعنى؟ حاول نسيانها الان واستعد صفاءك وان تعثر عليك ذلك بسببها ارمها فى البحر وانزعها من نفسك الى الابد · ألم تكن ســـعيدا قبل ذلك بدونها ؟ ميريام ستقول هذا ·· نعم وتقول : ارمها فى البحر لكى تســـتعيد حريتك · لم لا أتصل بها ؟ فهى وان أحبت رجلا آخر ســتقول الشىء

ذاته . لابد وأن أتصل بها أسالها أن تأتي . قمت وبدلت ثيابي وخرجت .

دخلت على جواهري آخر والحبتان معي. رميتهما على الطاولة أمامه فأمسكهما الصائغ بغير اكتراث . ودون أن يتزحزح من مكانه، نعم، نظر اليهما من بعيد دون منظار ثم التفت وهز رأسه ساخرا . هزة من رأسه تقول : فالصو . لكنه كلمني بلهجة ملؤها الاحترام وقال :

ـ هي من الزجاج يابني . كبر عقلك ولا تضيع وقتك بهذه الخزعبلات .

وخجلت أن أقول له ان صائغا آخر خمنها من الالماس النادر ، وخجلت أن أساله لم لم يستعمل المنظار . لعل المنظار ينبىء بنتيجة أفضل . أولعل .. لا أدرى حملتها ودخلت على جواهري ثالث .. هذه المرة لم أضعها أمامه على الطاولة ، بل وجدت نفسي أستأذنه بادب ان آخذ دقائق من وقته ، قلت :

ـ عرض علي أحدهم بضع حبات زاعما أنها من الماس . يهمني أن أتأكد من صحة قوله قبل شرائها .

ـ تفضل ، تفضل يابني قال .. نحن هنا لا شغل لنا طيلة النهار سوى فحوصات مثل هذه .

أعطيته الحبتين فتناولهما . ووضعهما في باطن كفه بعناية فائقة . ولاحت امارات الاعجاب ما بين حاجبيه وسمعته يصفر . ولما التفت الى طالعني بريق في عينيه . كان منفعلا ودون أن يكشف عليها بالمنظار قال :

ـ هي من الألماس الرائع . من أين لك هذا ؟

ـ من بلجيكا ، فالكذبة أصبحت جزءا من حقيقة . قلت ذلك ثم أخذتها وتواريت تماما كما فعلت في المرة الاولى . ناداني الرجل وكرر النداء وقال أشياء غير أني كنت قد ابتعدت .

استقليت سيارة وطلبت من سائقها أن يأخذني الى الكورنيش ، ففعل . زعمت له أني أبحث عن مخزن لم أعد أذكر بالضبط أين يقع . نزل بي السائق الكورنيش ذهابا وايابا . أكثر من مرة لف بي الكورنيش ونوافذ السيارة مشرعة والسيارة مسرعة والهواء يلفح وجهي ويملأ رئتي . يلسعني وأنا هكذا أشعر بالراحة أتمنى لو يزيد السائق من سرعته أتمنى لو يطوف بي حتى منتصف الليل . أتمنى لو يحضر الى كل يوم يركبني في سيارته ويطوف بي هكذا ويلفحني

الهواء ويعبني رئتي فلا ارجع الى الفندق الا منهكا لانام . وسمعته يسألني ان كنت قد وجدت المخزن ضالتي فقلت لا . وسألني عم يجب عليه ان يفعل الان . عندئذ . طلبت منه أن يعيدني من حيث أتيت ففعل .

. دخلت على جواهري رابع وعرضت عليه الحبتين فزعم لي مازعمه ذاك الآخر وقال :

ـ فالصو . أعطيك منها قدر ما تشـــــتهي . تجارة رائجة هذه الأيام . يلعبون بعقول الناس . اياك وشراتها .

يقول هذا وهو يهز سبابته . يكلمني ليعلمني كأنه أب وأنا أبنه . يوصيني بالا أدع أولاد الحرام يلعبـــون بعقلي فاطمئنه بأني لن أدعهم يفعلون لكنه يعود ويكرر على النصح كأنه لا يسمعني :

ـ انتبه . اياك أن يلعب بعقلك أولاد الحرام . اياك .

وعدته مجددا بأني لن أدعهم يفعلـون واخـــذت الحبتين منـه ومشيت . وكدت أعود ادراجي الى البيت منهزما لكني عدلت ودخلت على صائغ آخر . قلت هو الاخير . وبحركة عادية القيت الحبتين على الطاولة أمامه فتناولها وتاملها وقبل أن يفحصها بمنظار قال مؤكدا :

ـ هذا الماس نادر !

انتهزت الفرصة وسألته قبل أن يغير رأيه سألته :

ـ كم تساوى الحبة ؟

أخذها من جديد وراح يفحصها بالمنظار وبدا مستغرقا في فحصها ! نعم .. هذا جواهري يستاهل لقبه وهذا اتقان وتلك طريقة في التقاط الحبة ! ها هو يضعها في صحن صغير خصصه دون شك لمثيلاتها من الحبيبات النادرة ! يتاملها ، يقلبها بين انامله حينـــا ويدحرجها على الصحن حينا آخر . يستمع الى رنينها ويمتع النظر ببريقها . انها لا شك نادرة والا لما فعل هذا لما تامل اعماقها ! كان في اعماقهـا كائنات يراها ويكلمها فترد عليه .. وسمعته يقول :

ـ مائة الف الحبة .

ضبطت انفعالاتي وسألته مبتدعا اللامبالاة :

ـ تشتريها ؟

ـ طبعا اشتريها ، قال ، ولم لا أشتريها ؟ انما ..

ـ انما ماذا ؟

ـ ليس الآن ٠ الوقت هذا غير منـــاسب لشراء شيء ٠ تعرف أحوال ٠٠

وقاطعته بالقول :

ـ بالعكس يا أخي ٠ انه الوقت المناسب تمـــاما لشراء مثل هذه الاشياء ٠

نعم . قلت له هذا قول من يسمع درسا حفظه لكثرة ما تردد في خاطره ٠ سكت الرجل هنيهة كأنه يفكر ٠ ثم هب واقفا قبالتي ٠ وبعد أن ركز نظره في عيوني تماما قال محذرا ملوحا بسبباته :

ـ لكن ٠٠ اياك أن تكون سرقتها ٠

ـ لا ٠ لم أسرقها ٠ اطمئن ٠

ـ اياك ، قال ، بتروح بستين داهية ٠ لو عرف المسلحون بامرك فلن يسكتوا ٠

ومن باب الفضول سألته :

ـ وماذا يفعلون ؟

ـ ماذا يفعلون ؟ ما هذا السؤال يا أخي ؟ تسأل كما لو كنت غريبا عن هذا البلد ! اياك أن تكون سرقتها ؟

ـ لا ٠ لم أسرقها ، اشتريتها ٠

ـ هي اذا مالك وحلالك ٠

وبهدوء أكدت له أنها مالي وحلالي ، ورغم ذلك بدا غير واثق لكلامي:

ـ اراك غير متأكد من انه مال حلال .

ـ طبعا حلال ٠ قلت بثقة : حلال ٠

ـ اشتريتها ؟

ـ نعم اشتريتها ٠ حلال ٠

ـ أشتريتها بنفسك ودفعت ثمنها ؟

ـ نعم اشتريتها بنفسي ودفعت ثمنها لبائعها ٠ هي حلال ٠ تأكد ٠

ـ لن يقتلك المسلحون اذن ٠

ـ وهل سبق لهم أن ٠٠

ـ لا تقلق ٠ لن يقتلوك ، لن أدعهم يقتلـونك ٠ سأشرح لهم كل شيء ٠٠

يقولها بهدوء وثقة ويضيف :

ـ طبعا معك أوراق ثبوتية ؟

ـ أوراق ثبوتية ؟

ـ نعم ٠
ـ ولم يدعونها ثبوتية ؟ هذه كلمة على حد علمى ٠٠
وقاطعنى بالقول :
ـ لأنها تثبت كل شىء ٠
وفكرت أنه ليس معى أوراق ثبوتية فالذى باعنى اياها لم يات على ذكر أوراق مثل هذه ٠ ماذا اقول للرجل ؟ لو صارحته بالأمر لساوره الشك ! وفيما كنت أراجع الاحتمالات سمعته يقول ضاحكا :
ـ يا لى من أبله ٠ شكلك ابن ناس وليس من المعقـــول ألا تكون لديك أوراق ثبوتية ٠ اطمئن ٠ لن يقتلك المسلحون ٠ لن أدعهم يقتلونك على أى حال ٠
فكرت أنه طالما يثق بى فلأستدرجه بالكلام ٠ افتعلت ضـــحكة مازحة وقلت له :
ـ حمدا لله اذن على أنى لم أضع أوراقى الثبوتية ٠ لو أضـــعتها يقتلونى ؟
نظر الى تلك النظرة التى تنذر بالهلاك وقال :
ـ طبعا لا قدر الله ، طبعا يقتلونك ٠ اياك ! فالسرقات ناشطة جدا هذه الايام ، والمسلحون لا يسكتون عنها أبدا ٠ أبدا لا يســـكتون ٠ يحاكمون السارق ويقتلونه وأحيانا يقتلونه بلا محاكمة ولا دوشة ٠
ـ بلا محاكمة ؟
ـ نعم بلا محاكمة ولا دوشة ٠
ـ ومن يجرؤ على القيام بها ؟
ـ تقصد المحاكمات ؟
ـ لا ٠ اقصد السرقات ٠
ـ المسلحون ٠
ـ المسلحون ؟
ـ طبعا ومن يجرؤ غير المسلحين ٠٠
ـ أى مسلحون ؟
ـ المسلحون
ـ المسلحون أنفسهم يحاكمون و ٠٠
ـ نعم المسلحون بعضهم يسرق لحســـابه الخاص ٠ افرادى ٠ والبعض يسرق جماعة وأحيانا يحصل تعد ٠
ـ تعد على ماذا ؟

ـ على مناطق النفوذ ٠
ـ أى نفوذ ؟
ـ نفوذ المتنفذين كما حصل فى معركة المرايا ٠
ـ معركة المرايا ؟
ـ نعم مرايا السيارات ٠
ـ لا أفهم قصدك ٠
ـ مرايا سيارات المارسيدس ٠
ـ من تعدى على من ؟
ـ جماعة الدواليب تعدوا على جماعة المرايا وسرقوا مرايا المرسيدس فوقع خلاف . ياساتر . المعارك ظلت ثلاثة ايام ولا أحد يجرؤعلىان يطل براسه من الشباب . ثم بعد ذلك جىء بالسارقين فحاكموهم وقتلوهم ٠
ـ ومن قتلهم ؟
ـ المسلحون ٠
ـ المسلحون ؟
ـ نعم ٠ اياك أن تسرق فيحاكمونك ويقتلونك ٠
ازعجتنى تلك الحكاية الملخبطة فسألته بحزم :
ـ تقصد المسلحون أنفسهم يسرقون ويحاكمون أم أن هناك مسلحين للسرقة وآخرين للمحاكمة ؟
قلب الرجل شفته وتريث هنيهة ثم قال :
ـ لا ٠٠ الأمور لا تجرى على هذه الشاكلة ٠ بعض الاحيان يسرق مسلحون فيحاكمهم مسلحون آخرون لم يسرقوا وتقع المشكلة ٠
ـ تقصد ان المسلحين الذين يحاكمون يتناوبون مع المسلحين الذين يسرقون ؟
ـ أية مناوبة تقصد ؟
ـ مناوبة المسلحين على السرقة والمحاكمة ٠
ـ لا ٠ لا أحد يتناوب مع أحد ٠ ثم أنهم يسرقون فى أى وقت كان ، صباحا ، ظهرا ومساء ٠ والمناوبة تكون عادة فى الليل فقط ٠
وقلت استوضحه :
ـ قصدك يتناوبون على السرقة فى الليل فقط ، ثم يفترقون فى النهار ؟
ـ لا . لا اقصد شيئا . قال ذلك ثم خبط على الطاولة : ماهذه هذه السفسطة ياأخى ! كلامك لخبط افكارى . هناك نظام وكل شىء

محسوب . وهل تظن أن الدنيا فوضى ؟ الاشياء هنا متفق عليهـا سلفا وبالاجماع . ثلاثة أيام للسرقة وثلاثة للمحاكمة . ثم يرتاحون يوما . وبدا اكثر هدوءا وهو يقول : يوم راحة بالطبع . أو ليسوا بشرا مثل سائر الناس ؟ هذا اتفاق ضمني وصريح .. الا انهم ، لا اخفي عليك الامر ، يختلفون احيانا عما اذا كان من المسموح السرقة في العطلة . قال ذلك وخفض صوته ووقف قبالتي تماما حتى اصبح شديد القرب مني . ينظر في وجهي لكنه على الارجح لا يراني . يكلمني وشوشة :

ـ احيانا لا يلتزموا كما يجب بالعطلة .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ البعض يسرق يوم العطلة . فيقع خلاف .

قال هذا وانتحى بي الى زاوية من زوايا المحل وتابع بصوت هامس :

ـ لاحظت بالتأكيد الاشتباكات المحلية ؟ شهدتها بالطبع ؟

ـ آه .. طبعا شهدت الكثير منها .

ـ كلها بسبب هذا اليوم . لم يقرروا هويته بعد . يختلفون من اجله . لنقل انها خلافات بسيطة . ثانوية . لاتهم . الموقـع الاستراتيجي هو الاهم . الخلافات الثانوية يمكن تجاوزها .

ضقت بكلامه فقلت له :

ـ دعنـا من الاستراتيجية والتكتيك . اريد ان افهم : هؤلاء المسلحون الذين يحاكمون السارقين يسرقون هم بدورهم ، أم أن هناك مسلحين مختصين بالسرقات وآخرين بالمحاكمات ؟ اريد ان أعرف .

ـ طبعا . قال ثم خبط ثانية على الطاولة . طبعا . لم لا تريد أن تصدقني يا أخي . هناك فريق متشدد يضرب بيد من حديد ، يقضي على الفوضى والارهاب ، يمنع الغش والاحتكار . عيونه ساهرة ليل نهار على هذا الوطن من مدبري الفتن والماجورين الذين ينتهزون الفرص للصيد في الماء العكر .

لو عرفت ، انه سيلقي على خطبة كهذه لما سألت . لكني مضطر بحكم الظروف . قلت اصبر واتمهل لأعرف الحقيقة . فالحقيقة نور كما قال الامين . ولابد من اجلاء الغموض كي لا أقع في ورطة أفظع من ورطة البطاش . أصبر لأفهم . اقرأ بين السطور . وترددت

فى توجيه اسئلتى مباشرة . خفت ان يغضب منى ثانية فيفقد اعصابه ويستدعى المسلحين ليحققوا معى . وسمعته يتابع كلامه بلهجة اقرب الى المودة والنصح . يقول :

ـ شكك يا اخى قد يوحى بالشك . لا يجوز . أم انك غريب عن هذا البلد . أما سمعت كيف اعدم المسلحون الشهر الماضى افراد العصابة المسلحة ؟

ـ عصابة ما هذا ... ؟

ـ عصابة مسلحة تتاجر بالمجوهرات المزيفة .

ـ المزيفة ؟

ـ وغير المزيفة ايضا .

ـ طبعا ياأخى . عندهم فنون . مرة يسرقون ومرة يزورون . اولاد الحرام هذه الايام .. لكن المسلحين لم يرافوا بهم : أعدموهم . شنقوهم فى الساحة وتركوهم معلقين ثلاثة أيام حتى انتفخوا . أصبح الواحد منهم كالمنطاد والناس كلها تجمعت فى الساحة فى الوقت المحدد لتتفرج عليهم . صحيح نسيت ان اخبرك ... قال هذا ثم امسكنى بذراعى ، نسيت .. فى البدء جاءوا بأربعة من افراد العصابة ، لكنهم فى الواقع لم يشنقوا سوى ثلاثة فقط .

ـ والرابع ، سألته ، ماذا فعل ؟ هرب ؟

ـ لا . الرابع حظه كبير . الدنيا يا اخى شو بدك ... الدنيا حظ . تصور ! اكتشف المسلحون آخر لحظة ان الساحة التى أعدوها لاعدام السارقين مثلثة ولا تتسع سوى لثلاثة . كل واحد فى زاوية . لم ينتبهوا الى ان الساحة مثلثة سوى ساعة الشنق فاكتشفوا عندئذ واحدا زائدا .

ـ أفلتوه ؟

ـ ايوه افلتوه . لكن الحقيقة ان رئيس المسلحين قبل ذلك ... كانت الساحة ، بالطيف ، خاصة بالمتفرجين ، لو اردت ان تتفرج ، مستحيل أن تجد موطىء قدم . بتعرف أولاد المدارس وقد المدارس . وسمع الناس المسلحين يتشاورون فيما بينهم للذهاب الى ساحة مربعة تتسع للأربعة . اظنهم لم يفعلوا لأن التحضيرات كانت جاهزة . الاعمدة والحبال . وقال رئيس المسلحين بلاش نضايق الناس يروحوا ويجوا من ساحة لساحة .. الناس ها الايام دون شى تسلية وزهقانة . ايوه نسيت خبرك ، زعيم المسلحين قبل ان يفلت المحكوم الرابع شنقه ، يا الهى من تلك

الشتائم التى لم تسمعها فى حياتك ، تصور قال له امك كذا وكذا وأبوك كذا وكذا واختك .. لم يترك شتيمة عار الا ونعته بها والآخر ساكت ابدا ولا كلمة . ثم وبعد أن شتمه رفسه بجزمته على قفاه قال له : اغرب عن وجهى يااين كذا وكذا . فولى هذا هاربا ولم يحضر عملية الشنق .

ـ لم يحضر !

ـ لا لم يحضر . تصور ! الناس كلها حضرت وهو لا . انا وقتها كنت مشغول بجنينة بيتى عم بزرع قرنفل فرنجى . بدرى ممتازة أحضرها لى صديق من أوروبا . الوان ياسبحان الخالق . غاية الكلام كنت مشغول فلم أحضر لكنى فى اليوم التالى رايت المشنوقين . ثلاثة كل واحد زى المنطاد والريحة ، ياالهى ... لعلك شممتها ، لا تطاق ، رائحتهم بعد ذلك ظلت اسابيع .. اظن أن رقبة الواحد منهم بسبب الشنق قد انكسرت وليس لان الاولاد بعد الشنق اخذوا يدفعونهم بارجلهم ويارجحونهم . راس الواحد منهم كان مائلا الى جهة واحدة هكذا .. انظر هكذا . وتركوهم فى الساحة ثلاثة أيام . نعم ثلاثة ايام ليكونوا عبرة لمن اعتبر .

قال ذلك وشد على حرف الراء وكرر جملته والراء تفرقع على لسانه . ترن بقوة العبرة وهو يقول : نعم عبرة لمن اعتبر .

ثم عاد الى مكانه وراء الطاولة هادئا كما كان . وسمعته يقول بنفس هدوئه السابق وبثقة :

ـ اسمع يا اخى ، على اى حال ليس للأوراق الثبوتية اية اهمية وحبات الماس هذه متى قررت بيعها آتنى بها ادبر لك من يشتريها . يوجد هنا بشر معهم اموال قارون وهم مختصون بتدبير الأمور .

وحركة من كفه تقول : الملتوية ، لكنه لم يقلها .

بالطبع لا الوم احدا على الذهاب الى طبيب نفسي . فكما يبدو الموت فى بعض الاحيان سهلا كالنعاس هكذا يكون الجنون قريبا كمشوار . وللانسان فى نهاية المطاف قدرة محدودة على الاحتمال .. ما هو سوى كائن هش مثل بعوضة . ينهار اذا اثقلت عليه الظروف وتتداعى قواه تحت وطأتها . يتلخبط عقله . وقد تلخبط عقله بالفعل . الذاكرة تخونه فلا يعرف ماذا رأى وماذا لم ير . ويخونه اليقين . اين الحقيقة واين الوهم وكيف ينظم الاحداث فى ذهنه ، منذ تلك اللحظة التى وطأ فيها ارض المطار وبدت بيروت عادية تماما واستقبله الامين ، ثم تلك العمارة . وهؤلاء الناس الطيبون .. سارت الأمور على مايرام رغم الحرب والضرب الى ان انغلقت فجوة وانفتحت فجوة وتداعى الطابق العلوى من العمارة وقيل : نجونا باعجوبة ولابد من اخلاء المبنى . ثم طاف المدينة وبحث عن شقة فلقى قبوا وقال الامين ان البطاش أخوه المنكر . نعم رماه بتلك العبارة اللامبالية العنيدة . والبطاش خارج من سجن . قاتل سارق ومعتد . من يؤكد له ذلك ؟ هو لم يشهد شيئا . لعلها حكاية لفقها الامين لينقذ نفسه من ورطة . لعل الأمين هو البطاش والبطاش هو الامين لكنه خدع وقيل له عكس ذلك .

وقال الامين أن حنان ... الامين مجرم يترصده ليقتل سعادته ، حنان فقد اثرها مع اهلها ومئات المفقودين القتلى الذين صفوا على الهوية . طبعا سمعت بالتصفيات ؟ نعم . ورغم انه قد سمع بها الا انه لا يدرى لم استفسر عنها من الامين . سأله كيف يجرى ذلك ؟

ـ على الحاجز . يقال للبعض امضوا مع السلامة فيذهبون . والبعض الآخر لا يقال لهم ذلك فيأخذونهم . وتتوالى عليهم مراحل غامضة ثم ينتهون الى ذاك المصير .

ـ غريب ! ولم يقال للبعض هذا ولا يقال للبعض الآخر !

ـ قد يظن بهم شيء أو لا يظن بهم شيء على الاطلاق . لا احد يعلم ...

ثم جاءه صاحب المجوهرات وهو يدرك الآن لم باعه اياها بالثمن

البخس ذاك سارق لا يتمتع بالسلطة أراد التخلص من مسروقاته كي لا يعلق فى الساحة وينتفخ كالمنطاد وتفوح منه تلك الرائحة الرهيبة . واحداث اخرى توالت عليه بعد ذلك . احداث لعلها بسيطة انما على بساطتها خلفت له نوعا من الارتباك . مثل شعور بالاضطهاد ذاك الذى يسمونه فى علم النفس بالبارانويا . ماهى البارانويا ؟ عاد الى البيت بعد تلك الحادثة مباشرة وفتح القاموس. قرأ الشرح . الشرح لا يؤكد ولا ينفى اصابته بها . من الشائع ان الاطباء يسارعون الى التشخيص وما لديه على الارجح مجرد احساس وهمى بالاضطهاد لن يلبث ان يزول . ثم ان هناك مايبرر هذا الاحساس ...

فيما كان ماضيا فى سبيله لقيه شاب فى عز الشباب يرتدى بذلة عسكرية انيقة ويحمل سلاحا لماعا . وهكذا دون تمهيد أو مقدمة أوقفه يسأله :

ـ مادينك ياأستاذ ؟

ـ دينى ؟

ـ نعم دينك ليس فى السؤال ما يدهش . دينك ما هو ؟

وفكر هو . حاول أن يكون حكيما لكن الشاب مستعجل وزلة اللسان مكلفة هذه الأيام والناس تغضبهم أتفه الأسباب وهو مختار فى أمره . ان قال مسلم ، قيل له تحالفتم مع الفلسطينيين وتخليتم عن السيادة . وان قال مسيحى قيل تحالفتم مع اسرائيل وبعتم الوطن . أو قال يهودى قيل صهيونى اقتلوه . وان قال لا تسألونى عن دينى ياأخى زهقت روحى من اختلاف الأديان قيل شيوعى كافر لا ترحموا جلده . وان بشر بالمحبة وقال كل الأديان دينى قيل زنديق أشنقوه . علقوه فى الساحة وليظل معلقا فيها عبرة لمن اعتبر. والراء تفرقع فى فضاء فارغ . والشاب ينتظر الجواب . وفكر : أقول له ياأخى كلنا ابناء حواء وآدم ونؤمن بالله وباليوم الآخر .

ويستحثه الرجل بان ينطق بالحقيقة . يهدده . من الأفضل له أن يقول الحقيقة اذ ليس من مفر ، فالاوراق الثبوتية تثبت كل شيء. حسنا فليقلها وليكن ما يكون قال له الحقيقة . أخبره . ابتسم الشاب ابتسامة هادئة وأجابه :

ـ معلهش ياأخى كلنا اخوة أولاد حواء وآدم نؤمن بالله والاخرة.. ثم ان سؤالا كهذا هو سخيف بالفعل وانا ياأخى لا أسأل فى العادة

أحدا عن دينه . فالدين لله والوطن للجميع . قال هذا ثم ودعه وداعا حارا ومشى فمشى هو ايضا .

لكنه ما كاد يسير فى دربه حتى لقيه شاب آخر فى مقتبل العمر لا يرتدى بدلة عسكرية انما واضح انه شديد الحماس ... اوقفه وسأله هكذا بلا تحية ولا مقدمات :

ـ اسمك !

فقال له اسمه

ـ من اين اتيت وكيف ؟

فأجابه حسب الاصول . اخبره عن بلدته وعن سفره وعودته . لكن الشاب بدا غير راض وسأله بعصبية :

ـ مادينك اذن يا استاذ ؟

أستوقفته لفظة اذن . أجوبته تزيد الشاب حيرة فيقول « اذن » قال اريحه واكشف له عن دينى . لا بهم . فكلنا كما قال الشاب الآخر أولاد حواء وآدم نؤمن بالله وبالآخرة . لكنه ما كاد ينطق بدينه حتى أحس بكف يهوى على وجهه . طاخ . طاخ . وبالشاب يمسكه برقبته عند ربطة العنق . غريب ! هو لا يضع ربطة عنق ! ورغم ذلك تمكن الشاب من امساكه عند ربطة العنق . هزه . هزه . ثم عاد وضربه كفين آخرين وقال له :

ـ هذه المرة سماح لكن مش كل مرة بتسلم الجرة . اياك ان تعيدها ثانية .

بعد ذلك رجع الى الفندق ونام . نام اياما متتالية . ولولا ان موظف الاستقبال ايقظه لنام أكثر . لقضى بقية حياته نائما . لكن موظف الفندق ايقظه . قال له يجب أن تنهض لا يمكنك أن تظل نائما . لم لا يمكنه ان يظل نائما ؟ يجب ان تأكل ، وان كنت مريضا نستدعى لك الطبيب او ناخذك الى المستشفى . لم يخبر الموظف بحكاية البارانويا . ليس لانه غير أهل للثقة انما لانه لا يدرى .. أحسه غير مؤهل لفهم الحكاية . وعبارة اياك أن تعيدها ثانية ماذا تعنى ؟ قال له الموظف أخرج من الفندق تفسح شوية ... تدبر عبارة « مش كل مرة تسلم الجرة » واختار فى أمره لكنه قرر الا يستسلم للسوداوية . لطالما قرأ فى المجلات فى تلك الأبواب التى تعالج القضايا النفسية انه من الضرورى مكافحة السوداوية . وهو قرر أن يكافحها . فى البدء وجد صعوبة فى الخروج بمفرده وقال للموظف : ما رايك ادعوك الى عشاء لذيذ فى مطعم قريب

سر الموظف بالدعوة وصحبه الى مكان ليلي امضيا فيه سهرة ممتعة. شربا واكلا وكان هناك مطرب غنى اغنيات وجاءت راقصة ورقصت شرقي . وبايعاز منه طلب الموظف من المغنى اغنية « كامل الأوصاف فتنى » وصفق الحاضرون للأغنية وكان هو يفكر بحنان : سيشترى لها تسجيلات كاملة لاغنيات عبد الحليم حافظ ، حتى أغنياته الاولى التى لا احد يذكرها . نعم سيفاجئها بتلك الهدية وستفرح الى بان يشاركها شيئا تحبه .

ثم وبعد ذلك اصبح يخرج بين الحين والحين مع موظف الاستقبال . ينزلان الى الكورنيش ويتنزهان . واخذه الى هناك حيث تعرف هو وصحبه بالعم موسى . الموظف قال انه يعرف هذا المكان . لكن وجهه لا يبدو منفعلا للذكرى مثله . ثم أخذ يسال الموظف أشياء عن هذا البلد . هو يريد ان يفهم .. اشياء كثيرة بات لا يفهمها بل انه فى الواقع أصبح لا يفهم شيئا على الاطلاق . ساله عن هذه الفوضى . اخبره الموظف أن تنظيم السير مسالة مكلفة .. تصور ، قال له ، هل يمكنك أن تتصور كلفة تنظيم السير فى بيروت وحدها ؟ عشرة آلاف رصاصة أيام الازدحام وخمسة آلاف رصاصة أيام الفتور . غريب ... وما شأن السير بالرصاص! رفع الموظف حاجبيه ! أسئلته تدهش الناس . كأنك يا أخى لا تعيش فى هذه البلد ! الا تسمع الرصاص يلعلع فى النهار وفى المساء ؟ الا ترى المسلحين فى الطرقات يطلقون الرصاص فى الفضاء ؟ هذا بالتأكيد من أجل السير .

ورغم ذلك عاد يفتح قلبه للموظف . لا يخبره طبعا بالامور الجسيمة مثل حكاية البطاش وقصة ميريام وفقدان حنان وشراء المجوهرات ... يخبره فقط بالأشياء التى بات لا يفهمها والتى تطالعه كل يوم . حكاية ذاك الرجل . تصور . كنت مارا بالحى المجاور ، هذا الحى الراقى الذى يقع فيه المستشفى . لمحت رجلا متجها الى سيارته ، متوسط السن ، انيقا مثل لورد انكليزى . متمهل الخطى واثقا ويرتدى بذلة قاتمة ذات خطوط خفية . متقنة التفصيل لا ترى لها ثنيات . تقول انها لم تفصل بمقص ولم تخط بابرة . ومن الجيب الصغير تحت الصديرى تتدلى السلسلةالذهبية التى تحمل الساعة . الطراز الكلاسيكي ذاته ، وحذاء أسود لماع وربطة عنق . نعم كان يحكي للموظف وهذا يقاطعه عند كل عبارة بقوله « نعم » . أو يقول : « نعم وما الغريب فى هذا ؟ » كانت

تمطر والرجل ياصديقي كان يحملُ بيده شيئا . نعم .. قلت لعله من باب الحيطة يحمل مظلة ترد عنه المطر . ثم رأيته يصعد الى سيارة ليموزين سوداء اللون بزجاج مغشى وجلس فى المقعد الامامى بجوار السائق . نعم ، وما الغريب فى هذا ؟ « غريب » كنت متجها نحوه ولما أصبحت بمحاذاة السيارة تماما اكتشفت .. غريب .. لم يكن يحمل مظلة تقيه المطر بل رشاشا . هل لك أن تتصور رجلا أنيقا كاللوردات يحمل رشاشا ؟

الموظف يهز رأسه أو يكتفى بتعليقات بات يعرفها : لا شيء غريب يقول الموظف أو يقول : كأنك لا تعيش فى هذا البلد . ما يعلقه فى المسألة ليس اجوبة الموظف بل تلك الكلمات واصداؤها التى يسمعها ولا يعلم مصدرها . ترى أيسمعها من محدثه أم يكون هو نفسه قائلها ؟ لعل عقله هو الذى يفعل هذا . يبرمج الأشياء ويرسلها الى خاطره كما يفعل الكمبيوتر . يسمع الجملة فيفاجأ اذ تبدو له غريبة كل الغرابة . لكنه حين يستعيدها فى ذهنه ثانية يجدها عين المنطق : « هذا رجل ذكى . رجل عنده فطنة . المظلة مفيدة لايام الشتاء طبعا انما الرشاش لكل الفصول »

ويمضى أياما يفكر بهذه الجمل ويتساءل عن قائلها فلا يفلح فى معرفة الجواب ويخجل أن يسأل الموظف ان كان هو قائلها . يفضل ان يصم أذنيه على أن يسأله . لا فائدة . الجمل تتدفق وتكر فى ذهنه سريعة مثل درز الماكينة . الجملة تستولد جملة : نعم . الرشاش لكل الفصول . لكن من يدرى ... لعلهم لو فطنوا للمسألة لابتكروا رشاشا بمظلة . فكرة . مظلة رشاش رشاش مظلة . غريب ! لا شيء غريب . ؟ هل يوجد كمبيوتر فى رأسه أم ان رأسه هو نفسه كمبيوتر ؟ على الأرجح ان الراس راس كل انسان ، عبارة عن كمبيوتر يسجل الاشياء ويخرجها بصورة مترابطة والا لم كان هناك منطق . صحيح . لاشك فى أنهم صمموا الكمبيوتر على صورة عقل الانسان وليس العكس . لكن ، ما الذى يؤكد له ان هذا الراس الكمبيوتر منتظم وليس مختل ؟ مراقبة الكمبيوتر أسهل من مراقبة الراس لأن القائمين عليه يعرفون سلفا المعلومات التى لقنوه اياها ويعرفون بعضها ببعض. أما رءوس كافة الناس ، ورأسه هو ، فلا أحد يعرف ، حتى على وجه التقريب كيف تشكلت المعلومات .

هذا الولد الصغير الذى ، بالكاد يبلغ العاشرة ، يحمل رشاشا مثل الكبار هل هذا معقول ؟ لا مش معقول . معك حق يا اخى يقول

الموظف . معك حق . هذا شيء غير معقول . تابعا سيرهما . اصبحا على بعد خطوتين من الولد . ماذا لو خطر للصغير اطلاق النار عليهما من باب التسلية ! الموظف لا يبدو خائفا البتة . تابعا سيرهما باتجاه السينما شأنهم مساء كل سبت . « مش معقول . ولد صغير رشاش صغير . رشاش كبير للكبار وصغير للصغار وللبنات رشاش وسط »

ثم قرر ألا يعود يسأل الموظف . هكذا يتفادى تحديد مصدر الاقوال . يخرج مع الموظف يمضيان أوقاتا مسلية ، والموظف يحدثه دائما بأمرين : الفتاة التي يحبها سافرت الى كندا مع أهلها . هجرة . وهو متردد في الذهاب اليها يقول انه لا يحتمل البرد . وفي كل مرة يشرح له انه هناك لن يشعر بالبرد الا نادرا لأن الأماكن كلها مدفأة . لكن الثلج يا اخي الثلج يغطي الأماكن كلها . هذا لا يطاق . هل لك أن تتخيل الثلج ياصديقي في كل مكان معظم أيام السنة ؟ والمسألة الثانية التي يحدثه بها وبانفعال أكبر هي حكاية صديق له: كان يا اخي يعمل معي في الفندق . نتقاسم ساعات العمل . ثم قرر السفر فجأة الى الخليج . كان ذلك أول الحرب تماما وهو الآن من كبار الأثرياء . في البدء استدعاني للعمل معه . فلم أذهب . الغربة يا اخي لا تطاق . الاوطان مهما يكن عزيزة . ويبدو انه بمرور الوقت غبت عن باله ويخطر لي مرارا أن أكتب له أذكره بنفسي . وأتحمس للفكرة لكنني اعود وأنزعها من رأسي . لا أدري .

كان هو يسمع هذه الحكاية من الموظف للمرة العاشرة ربما . كل مرة يضيف عليها أشياء وينفعل . هذه المرة لم يكن يصغي اليه جيدا بل يفكر بأمور أخرى . عجيب ! رغم انه قرر الا يتعجب من شيء . هذا ولد آخر مسلح يمشي مع رجل مسلح !.

ورغم حكاية الكبار والصغار حاملي الرشاشات ، عاد يتجول وحده يخرج للنزهة فيرى نفسه مشدودا لمسألتين : الأوساخ التي تملأ الأرصفة والكتابات التي تغطي الجدران وتتراءى له قبل النوم وأثنائه وتستحوذ عليه تلك الرغبة : كنس الطرقات ورفع الزبالة وتبييض الجدران . ويسأل عنها الموظف فيقول له :

ـ لا أعلم . يأتي مسلحون فيغطون بالأسود كتابات خطها مسلحون آخرون . ثم يكتبون غيرها بالأبيض وبعضهم يكتب بألوان أخرى .

وقال للموظف :

ـ الا يفكر أحد بتنظيف المدينة وطلي الجدران ؟

وأجاب الموظف :

ـ بعض الناس يفكر والبعض الآخر لا تخطر له الفكـــرة على الاطلاق .

وهو ايضا يفكر بذلك بل هو دائم التفكير به . يرفـــع الزبالة ويبيض الجدران . كل الجدران . حائطا حائطا ينظفها . ينزع عنها الملصقات والكتابات ويطليها بذلك اللون الناصع حتى تصبح المدينة كلها بيضاء . باسلام وقتئذ سينام بأمان . مثل امبراطور . ليتـه رئيس البلدية ليفعل . ليته محافظ المدينة ليفعل . ليته رئيس الوزراء ليفعل . بل ليته رئيس الجمهورية ليفعل . هذه الكتابات ما تفتـا تنقض على راسه قبل النوم وتعبث به أثناءه ، تكر مثل درز الماكينة: لا ولا ، نعم ونعم . ممنوع ومسموع . مرفوض ومطلوب . وتكر المسبحة وتتوالى اللاءات بالرفض والنعم بالقبول . ودعوات شتى . بعضها للقتال وبعضها للتسامح . دعوات تمجيد ودعـــوات تهديد وصور . صور زعماء وصور شهداء . وربما أن الكمبيوتر يتـــدخل فيضيف أشياء ويحذف أشياء . لا للسلم نعم للسلم . لا للحـــرب ولا للضرب . لا للرجعية ولا لنفايات البرتقال والملوخية . لا في كل مكان ولا للكتابة على الجدران . لا تشهد بالزور ولا تشتهي زوجة الناطور. ممنوع المرور وممنوع الزمور ، لا تسرق ، لا تقتل الا باذن رســمي لا تصـــوب على الانف والاذن والحنجرة .

الكلمات تتراقص أمام ناظريه ، وقد يئس من التوجه بالسؤال الى الموظف بات يعرف اجوبته سلفا . « لا شيء غريب . أو كأنك لا تعيش في هذا البلد » الموظف يبدو لا مبال ، له الحق في الا يكـون مباليا فهو لا يحمل كتابات الجدران ورسومها في تلافيف دماغه ، أما هو فيحملها ويتنقل بها في الحلم واليقظة . ولعل هـذه الكتـابات وتلك الصور هي المرض ، مرضه . وربما أن الأمراض كلها عبـــارة عن كلام وصور يراها البعض بطريقة والبعض الآخر بطريقـــة ، والاختلاف هذا يدخل في جوهر التشخيص فيقول الأطباء : هـذا يسمع كلاما وهذا يفوته كلام . هذا يضيف وهذا ينقص .زائد وناقص. المرأة في الملجأ اصيبت بنقص في التعبير فاصبحت تكتب على الورق أشياء مثل الأطفال اول تعلمهم الكلام . تقول : الصيعة ، تفـاحة ، دواء ، عصير ، ماء ، بانسون ، هكذا كلمات تنقصها التراكيب . ولعل المسائل كلها في الأساس عبارة عن زائد وناقص الحروب زائد وناقص وتاريخ الشعوب زائد وناقص بل وان مآسي العالم كلها عبارة عن زائد

وناقص ، والكتابات هذه المنتشرة على الجدران تدخل فى باب الزائد وكذلك القاذورات التى تملأ الشوارع . لذا فلابد من ازالتها .

أحضر مواد الدهان والعدة اللازمة وبدأ ورشته . سيبيض الجدران كل الجدران . حائطا حائطا بيضها . باسلام ! وقنهاسينام باستقرار وأمان . وسيمضى فى عمله الى النهاية حتى وان استغرق العمل شهورا . حتى وان استغرق العمل سنة . حتى وان استغرق العمر كله لتصبح المدينة بيضاء مثل التى تتراءى له فى المنام .

هكذا بدأ ورشته وكان سعيدا . ولشدة سعادته واستغراقه فى العمل نسى نفسه وراح يغنى . اغنيات يحبها واغنيات تحبها حنان . ولما جاءه ذاك الشاب يلقى عليه الأسئلة كان ينظف ويغنى . وحين سأله ماذا تفعل ، لم يساوره شك . فأجابه : أغنى أغنيات لعبدالحليم حافظ . وهو لم يفطن لقصد الشاب الا عندما كرر هذا الأخير سؤاله وأومأ برأسه الى الحائط . عندئذ فقط فطن للقصد . ثم جاءه اربعة آخرون فأصبحوا خمسة . ثلاثة منهم بسلاح واثنين بلا سلاح وأخذوا يستجوبونه . من انت ومن كلفك بهذه المهمة والى أى التنظيمات تنتمى ؟ لا انتمى . لا منتمى معقول ؟ منتمى لا منتمى . كولن وبلسن؟ هل سيتيمونه بالعمالة للانكليز ؟ أكد لهم مجددا على انه لا منتم . من ارسلك اذن ؟ لم يرسله أحد فهو لا يعرف احدا . وكاد يضيف: سوى الموظف . لكنه أمسك مخافة أن يدخل فى سين وجيم ومن هو الموظف . واكتفى بالقول انه لا يعرف أحدا لانه كان مسافرا . لم تفعل هذا اذن ؟ لم يفعل هذا ؟ لانه يحب النظافة ، فالنظافة من الايمان ولابد من غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، لكنه خاف أن يغضبهم الكلام ، وسمع المسلح يسأل زميله :

ـ هل يعقل الا يكون منتميا ؟

والمسلح الآخر يجيب زميله همسا :

ـ دعه يذهب . لا شك فى انه معتوه منذ أن فتحت العصفورية (*) ابوابها والمجانين فى الشوارع .

ثم التفت المسلح اليه وابتسم ابتسامة لطيفة وغمزه ثم سأله سؤال من لا ينتظر جوابا .

ـ انت من جماعة العصفورية أو من جماعة دير الصليب ؟

بماذا يجيب ؟ خاف أن يكون لاسم هذين المصحين دلالة ماتغضب هؤلاء المسلحين ووجد نفسه يقول :

* العصفورية : منطقة جبلية فى لبنان يوجد فيها مستشفى للامراض العقلية .

ـ لا اذكر .
ومن جديد قال المسلح لزميله وهو يشير الى صدغه :
ـ اتركه لاشك فى انه معتوه .
ثم اومأ اليه برأسه وقال له :
ـ امش بدربك .
نعم قال له امش بدربك لكنه لم يقل اياك ان تعيدها . فكر هو ان جملة اياك ان تعيدها مناسبة هنا تماما وكأنه سمعها تخرج من فم الشاب لكن الشاب اكتفى بالتكرار : امش بدربك . وهو فى حقيقة الأمر لم يحقد على الشاب بل مشى فى دربه الى الفندق .
وعاد يتنزه . مرة على الكورنيش ومرارا فى الحديقة . رجل مسن فى حديقة الصنائع بحادث نفسه . يبدو ماخوذا بحسابات واحتمالات. حركة كفه تنم عن ذلك ، يقلبها مرة الى اليمين ومرة الى اليسار. هناك لابد احتمالات ومعادلات ، ذهب اليه يسأله ، ربما تمكن من مساعدته ... حياه بلطف فرد عليه الرجل التحية بلطف اشد من اللطف ، الناس هذه الايام فى امس الحاجة الى لمسة حنان ، كلمة طيبة . وابتسم له الرجل ابتسامة مثل ضحكة خافتة اهتزت لها عضلات وجهه وعبق بلون احمر . هل هذا بكاء ؟ هل هذا ضحك ؟ لو نظرت الى عينيه لقلت انه يبكى . لكن لو نظرت الى فمه خيل اليك انه يضحك . الرجل يبدو متزنا ، استأذنه ان يتمشى معه فرحب بل الرجل . انها فرصة يسأله فيها عن حيرته وتلك الحسابات ... بحادثه فيجرى الكلام على اللسان وينطق الكهل بما يؤرقه . هذه الحديقة ، قال الكهل ، رغم كل شىء تفرج الهم . الحديقة والكورنيش . المرء يحتاج الى السير ، يحرك الدم بعد ملازمة البيت ، آتى اليها يوميا اثناء الانفراج . هو لم يكن يتصور ان الكهل سيدخل مباشرة فى صلب الموضوع . ورأى نفسه يقول للرجل : هذه الحرب لم توفر أحدا . نعم . قال الرجل . صدقت انما بعض الناس لا أدرى .. حظهم من هذه الحرب غير حظ البعض الآخر منها . صحيح . منذ بدء الحرب قال الرجل خسرت ثلاثة بيوت ، تصور ... ثلاث مرات بقصف البيت الذى اسكنه وتأتى النار على ما فيه . تذهب بالاثاث وبالجدران معا وانجو انا بأعجوبة . عظيم . قال له . عظيم . حظك من السماء ، نعم وهذا ما يحيرنى يا بنى . أحاول ان افك اللغز وكلما توصلت الى نتيجة تبين لى ان عكسها هو الأصح فانا لا أدرى ان كنت سعيد

الحظ ، ان كانت هناك ملائكة تحرسني ، ان كانت امي قد دعت الله ليلة القدر وابواب السماء مشرعة ، أن يحفظني فاستجاب دعاءها ، ام انى عاثر الحظ منكوب ، هناك بالتأكيد حظ ما . وهناك ... لا ادرى ... ان انجو كل مرة باعجوبة هذا حظ رائع . ضرب من الخيال . شيء يفوق التصور ! لكن ان اخسر ثلاثة بيوت كل واحدمنها كالقصر تتحول الى رماد فى غمضة عين ولا يسعنى بعد ذلك سوى السكن فى غرفة ففى هذا قلة حظ بالتأكيد ! ما رايك ؟ لا يعرف ، والرجل محق فى حيرته . انه محظوظ عاثر الحظ معا . لو مات لكان عاثر الحظ فقط . وبما انه قد نجا ثلاث مرات فهو محظوظ. حيرة !.

وفكر ان يخبر الرجل بان بيته هو ايضا قد دمر لكنه احس بتفاهة لفعه وسكت ، ليس هذا مثل ذاك ، حكاية مثل هذه تفتنص من الرجل حقه فى البقين المأساوى . كان يقتحم تافه خشبة مسرح تدور فيها ملحمة عظيمة من ملاحم اليونان فيزيح البطل بالقوة ليسمع الناس انشودة الديك ! ليس هذا مثل ذاك . لكن ، والحق يقال انه قد احب هذا البيت واكثر ما احب فيه انهم اقاموا على سطح الروف عنده خطوبة تفريد . جاءه ابو سليمان وعرض له المسألة :

ـ الصبية التى تقابلها معنا فى الملجأ ستخطب .

وغار قلبه بين ضلوعه . وخيل اليه ان الخطوبة خطوبة حنان . يومها خشى أن يكون قد احب حنان والا لم يغور القلب هكذا ؟ وهم بأن يستفسر من أبى سليمان عن حنان ، لكن هذا استبقه واجلى الالتباس :

ـ تفريد صديقة حنان ، والشاب سمير ابن ام سمير . انه ما من مكان يقيمون فيه الخطوبة ويتسع لسكان العمارة وسائر المدعوين سوى سطحية الروف . وانه اذا ما وافق فسيقترح هو ذلك على ام سمير .

يكلمه ليستأذنه ! لكنه يبدو اكيدا من موافقته . وقد سر هو من نفسه حين قال لأبى سليمان ان اقتراحا رائعا مثل هذا لا يحتاج الى استئذان . واحس بنفسه ساعتها انه ولأول مرة يتكلم بلغة اهل العمارة وكان سعيدا ، اذ لطالما تمنى لو كان فى مقدوره أن يتكلم بلغة اهل العمارة .

هكذا اقاموا الاحتفال ، وتحول الروف الى ساحة عيد ، تلك ذكرى سيحملها فى فؤاده طوال العمر . كل سيدة فى العمارة حضرت

ما يطيب من ماكولات وحلوى . وكل فتاة شاركت وكل شاب فى تنظيم المكان واقامة الزينة . ودبت حركة ذكرته بأشياء ... الشبان والصبايا رائحون غادون وفرحة الشباب لا تقل عن فرحة الصبايا . الصبيه صديقة لهم يعرفونها منذ الطفولة والشاب صديق لهم ايضا . رشاد لاعب الباسكت بالتعاون وحنان اهتما بالاغانى والموسيقى . يحضران التسجيلات ويجربانها . هذه للرقص العربى وتلك للغربى وهذه الاغنية لتفريد وتلك لسمير . والرائح والغادى يعطى رأيا فتضاف اشياء . وجاءوا بمقاعد وطاولات وكراسى ونثروا الزهور فى كل مكان قالوا ان تفريد تحب الزهور . فالذى احضر وردا قال تفريد تحب الورد . والذى احضر قرنفلا قال هى تحب القرنفل . وقالوا تحب الزنبق وتحب الفل . حامل الزهور يقول هذا ثم يضعها فى مكان يخيل اليك انه مكانها المخصص لها . ثم نصبوا الزينة . كيف نصبوا الزينة ؟ لم يتشاوروا ولم يتناقشوا بل شرعوا يعملون بتلقائية ورغم ذلك فالجالس فى هذه الزينة وتلك الاضواء يخالها جزءا طبيعيا من المكان ما اقامه احد ، بل طاف على بساط من اثير وحط على سطح العمارة خصيصا لخطوبة تفريد . والاقحوان من الذى جاء بكل هذا الاقحوان ؟ رشاد . قال ان الاقحوان اجمل زهرة انبتتها الارض وتفريد تعشق الاقحوان . الهذه الدرجة يحبون تفريد حتى يخيل لكل منهم أن اجمل زهرة انبتتها الارض هى تلك التى يحبها هو وتحبها تفريد ؟. ليتهم يحبونه قدر ما يحبون تفريد . ترى لو عاش معهم ما تبقى له من عمر هل كانوا سيحبونه قدر ما يحبون تفريد ؟ لا ليس من الممكن ان يحبوه قدر ما يحبون تفريد . فهو رغم كل شىء لا يشاطرهم ذلك الاحساس الذى يكاد يبلغ مدى التكاتف العضوى بان لا غنى للواحد منهم عن الاخر ، هكذا يحبون تفريد . واختار هو لها الزهور يقدم وسأل حنان أن تتولى المهمة بدلا عنه ؛ فقالت له : تفريد تحب الاشياء الجميلة فاختر لها ما تراه انت جميلا وسيعجبها بالتأكيد .

هكذا اقاموا الاحتفال . ودار الرقص . سعادة ام سمير تفوق الوصف فلم ير وجهها ابدا يفيض بهذا الحنان . حتى يوم ولادة ام فادى . يومها كانت واثقة وذات عزيمة لكن فيض الوجدان وهذا الحنان شىء آخر ... عيناها تدمعان . تمسحهما وتتابع الرقص وتشكره بالنظرات . لم يفطن من قبل الى انه من الصعب عليها ان

تقيم معه الحديث ، لكنه الآن وهي تشكره بنظراتها يفطن الى انها بالصمت ، بالعيون تقيم معه الحديث . وحنان لانشغالها بالمناسبة تكاد تنساه . وادرك انها لا تتعمد تجاهله بل كانها قد نسيت وجوده بالفعل . ولولا انها فيما بعد عادت وصارحته بحبها لظن انها قد نزعته من قلبها نهائيا . لكنه فهم اغفالها له حين جاء اخوها وجلس قربه . وبعد السلام بدأ الكلام فجاءت حنان لتقول لهما : اليوم فرحة والذى لن يشارك فيها لن يعرف قلبه الفرحة ، وفهم انها تحتج على حديثهما الجانبى ، وانها ربما فى الوقت نفسه تلمح الى شيء آخر ، فقد أخبرته أن اخاها واقع فى الحب وانه لا يبوح ابدا بشيء عن محبوبته . لم يتكتم فى حبه لهذه الدرجة ! انتم الشبان لا تفصحون عن مشاعركم مثلما نفصح عنها نحن الفتيات . وانت الا تتكتمين ! اتخبرين أخاك باشيائك الحميمة ؟ لا ادرى قالت ، ربما اخبرته بشيء يوما . وضحكت كما تضحك الآن وتضاحك الحاضرين . أية مخلوقة رائعة ! ويذكر ، حين حدثته بمرض صديقتها ، انها قالت له : على الانسان أن ينسى نفسه احيانا ليسعد الآخرين . وتفريد صديقة العمر ، رفيقتها منذ الطفولة ، توأمها الذى لم تلده أمها ، هكذا تنساه من اجلها وتنسى نفسها . ونظر الى تفريد فرآها آية فى الجمال . فى هذه الزينة وتلك الالوان البهيجة والسعادة تطفح من عينيها تبدو آية فى الجمال ، كيف لم يفطن من قبل الى أنها جميلة لهذا الحد ؟ يراها الآن مثل أميرة طال حبها لفتى أحلامها ولما اكتملت التحضيرات جلست معه يوم خطوبتها على كرسى الامارة . وهو يحيطها بنظراته كانه يخشى عليها من النسمات . ولا عجب فمن تطالعه رقة مثل هذه يدرك معنى الامانة التى ائتمن عليها ، وفجأة لمعت فى خاطره تلك الفكرة وهتف : باله من ابله ! كيف لم افطن الى ان التى اصابها عارض حين مات عبد الحليم حافظ هى تفريد وان سمير هو ابن الجيران الذى احبها منذ المراهقة المبكرة ؟ حباء مثل هذه وتأجج يخلجه البوح جدير بأن يحب حتى العبادة ويخلص فى حبه حد الفناء ولا شك فى انها هكذا تحب خطيبها الآن حبا لا يعرف الحدود . أهذا ما يسمونه السعادة ؟

ولما دعوها للرقص ورقصت احس بها ترقص خصيصا لخطيبها. ان كل امراة وكل فتاة حين رقصت احس بها ترقص للرجل الذى يتراءى لها ، أزوجا كان أم حبيبا ، حاضرا كان أم غائبا ، كائنا موجودا كان أم فارس أحلام . تبلغه الشوق بتلك الحركات البديعة !

حين دخلت ام فادى الحلبة أحس كل واحد من الحاضرين بما احسه هو ؛ بتلك الرغبة فى ان يندفع وراءها . فالكل يدرك معنى أن ترقص للعروسين الآن ترقص وتلقى على أم سمير امتنانا لا يعبر عن نفسه سوى بالنظرات . ولميا ... باية عذوبة رقصت لميا ؟ لميا التى لا حد لخوفها فى الملجا تبدو الان وشعرها يتراقص على كتفيها لا كعارضة ازياء بل كحورية نصفها امراة ونصفها سمكة ، تبوح بشوق وتستعجل رسالة من زوجها يدعوها اليه . منى والدة الصغير هادى رقصت مع زوجها فبدت كمراهقة . وحنان ... لمن ترقص حنان الان ؟ حين رقصت شرقى لم يستغرب بل استغرب حين رقصت غربى . بل ان كل شابة حين رقصت غربى اثارت فى نفسه الدهشة . تعجب كيف تتحول الواحدة منهن برشاقة وتلقائية من فتاة شرقية الى فتاة غربية تذكره باللواتى كان يصادفهن فى الحفلات فى باريس . حتى فريال رقصت . لم يكن يخيل اليه ان فتاة صغيرة ونحيلة وتقسم برحمة أخيها مثل فريال ستنفض عن جسدها غبار الخوف والمرض وترقص هذا الرقص البديع . متى تعلمت الرقص ؟ أين تعلمت الرقص ؟ فريال تنظر الى تفريد بانفعال لا حدود له ؛ يرتسم فوق جبينها المرتعش . لا شك فى انها تحلم الآن كيف ستجلس مثلها يوما على عرش الامارة والحب . والصغير هادى ذكره بنفسه يوم زواج الامين . وصدق حدسه حين سأله عن اجمل من فى الحفل . عمو سمير احلى شىء وعروستو كمان حلوى بس انا عروستى احلى . مين عروستك ؟ ياسمين بنت خالو عروستى .

ليته يخبر الكهل بكل هذا ، يبوح له بما يعتمل فى اعماقه ، بانه مرغما فارق هؤلاء الناس . او يحدثه بالم الفراق . لكن لم الاصرار على سلب الرجل حقه فى اليقين المأساوى ؟ ولعله اقرب الى العزاء ان يخبره بخسارته تلك ، احتراق الاوراق التى دونها . أوراق روايته . كانت الرواية متجهة الى نهايتها ... لم يبق امامه سوى الفصل الاخير . وهو لم يعد فى مقدوره كتابتها من جديد . أى عذاب ان يكتب من جديد فصولا خطها بنبضات القلب ؟ وسمع الرجل يسأله عن تجربته فى الحرب ووجد نفسه يقول : اليوم ذهبت الى السفارة لآخذ تأشيرة وارحل . معك حق قال الرجل انتم الشبان امامكم متسع من الوقت للبدأ من جديد .

هذه الصيدلية لابد أن لصاحبها معرفة بالامراض والاطباء . دخل . صاحب الصيدلية رجل مسن ما أن رآه حتى تقدم منه . الصيدلى

هو الذى جاء اليه . هل جاء يطرده ؟ هل يفكر بشىء ؟ اهلا تفضل حبيبى قال له . واضح انه ارمنى . يقول : آلا ابيبى . مالك ابيبى. انت واحد مريض . نعم انا مريض . تعبان . وكاد يشكره لانه تنبه لذلك . موظف الفندق لا يلاحظ مرضه .

يقول له : اذهب الى السينما . فيلم هزلى او فيلم بورنو . ويقول له : تلزمك امراة . هذا الصيدلى فهم المسالة من تلقاء نفسه . لم يخبره بحكاية البارانويا اخبره بالاعراض فقط . هو يحكى والارمنى يردد وراءه . عرق كثير . تعب . صداع . صداع . صداع لا يطاق وارق فى الليل . ينام فى النهار ويقضى الليل مؤرقا ينهض الى النافذة ويدخن . وحكاية المسلح . قرر أن يحكيها له اذ يبدو عليه رجل ثقة . لكن ما ان بدأ بالقصة حتى سأله الارمنى ان كان يعرف لغة اجنبية ، قال نعم ، الارمنى يفضل أن يحكى له هذه التفاصيل بلغة اجنبية . اخبره بالفرنسية والحقيقة انه احس بنفسه حرا طليقا . حكى له عن المسلحين الذين يحضرونه فى المنام ويطاردونه فى النهار، هل هذا طبيعى ؟ قال له الصيدلى ان هناك بعض المسلحين المتسلطين وانه هو نفسه قد تعرض للسرقة . الارمنى يحكى همسا بالعربية يقول انه تعرض للسرقة اكثر من مرة . عشرين الف مرة وخمسا وعشرين الف مرة . يا الهى . جاءوا اليك عشرين الف مرة ! . لا . لا . قال الارمنى :

ـ مرة سرقوا عشرين الفا . ومرة سرقوا خمسة وعشرين الفا

الارمنى يصر على التحدث بالعربية . عاد يسأله ان كان هو قد تعرض للسرقة او للضرب . فكر وقال بالفرنسية . كفان . كف على هذا الخد وغف على هذا الخبر . عفوا . عفوا . اربعة كفوف . كادينسى أن المسلح عاد وضربه ثانية قبل أن يقول له : اياك أن تعيدها . هل هذا كاف لخلق هذا الشعور بالاضطهاد ؟ وسأل الصيدلى همسا ان كان من الطبيعى أن يحمل ولد صغير رشاشا مثل الكبار . لم يقل له الصيدلى ولد صغير رشاش صغير وكبير للكبار . وقد خجل هو أن يخبره بالكلمات التى تتردد اصداؤها فى رأسه والعبارات التى تتراقص أمامه فى الفراغ . خاف أن يسارع الصيدلى الى التشخيص ويقول له : حالتك ميئوس منها . لذا لم يقل له شيئا من هذا ، انما اخبره بالذعر الذى يتولاه حين يمر بالولد المسلح . ماذا لو خطر للصغير اطلاق النار عليه من باب التسلية ؟ التعامل مع المسلحين صغار السن اصعب بكثير من التعامل مع كبار السن منهم . الشاب يمكنك اقناعه . ماذا تقول للصغير ؟ فكرة ! الان وهو

بحكى للصيدلى جاءته فكرة . سيشترى للمسلحين الصغار العابا الكترونية وكهربائية ذات أصوات وأضواء حمراء وصفراء وخضراء. نعم لن يخرج من الآن وصاعدا الا وبيده لعبة من هذا النوع يفرهم بها . الأرمنى لم يبتهج للفكرة مثله بل قال له : لازم تروح عنـد طبيب للنفس . سابكاترست يساعدك على ... على ماذا ؟ ... الصيدلى يقلب كفه . ماذا ايظنه الصيدلى مجنونا ؟. ماذا لو كان الصيدلى الأرمنى هو الآخر يظنه مجنونا ؟.

غاب الصيدلى قليلا فى الداخـــل وعاد اليه بعلب أدوية . خذ هذا الدواء مؤقتا . الى أن تقابل الطبيب . الدواء هذا كويس ، حبة واحد الصبح . وهيدا حبة اثنين قبل النوم . قبل النوم فاهم. وهيدا الثالث دوا مقوى . فيتامينيات وكالسيوم ، لازم يقوى . لازم ياكل . انت ولد ضعيف . ابرة فى العضل . وسيعطيه الابرة بنفسه الآن وبضع مرات بعد ذلك . ابرة تنعبه قليلا لكنها تنفعه فيما بعد . أعطاه الصيدلى الابرة وأشار عليه بأن يدخل الى مكتبه ويستلقى على الكنبة . علشان يعـدت قال . ذعر . تولاه الهلع وسأل : هل ساموت الآن ؟ لا . لا . Sorry قال الرجل قصدى بينام شوية علشان يرتاح .

جلس الأرمنى قربه على حافة الكنبة ، واحس هو بالامتنان لهذه العاطفة . وبعد أن أعطاه الابرة راح يكلمه بالانكليزية وهو لا يحسن الانكليزية لكنه فهم أكثر من نصف الكلام . نصحه الأرمنى بالحذر واخذ الحيطة لكن بطريقة مختلفة تماما عن تلك التى يتحدث بها الموظف . الصيدلى هذا لطيف حقا وهو ليس عجوزا بالقدر الذى خيل اليه . هل يفكر الأرمنى يا ترى بالعودة الى بلاده ؟ ثم لا يدرى كيف انزلق السؤال على لسانه : هل تحن للعودة الى بلادك ؟ بلدنا . ابيبى نحن بلدنا اخذها اليهود والاتراك . اليهـود ؟ نعم ابيبى . غريب !.. اليهود على حد علمه أخذوا فلسطين ، والاتراك قاموا بمذابح الأرمن . سأله . استوضحه . ضحك الأرمنى وقال : صحيح. اليهود اخذوا فلسطين . انا ارمنى مضبوط لكنى ارمنى فلسطينى . قال له ذلك بالتحديد : ارمنى فلسطينى وهو غير واهم . بابا ارمنى وماما ارمنى بس انا خلق بفلسطين . لما هرب ماما من ارمينيا انما كان فى بطنو وقعدت بفلسطين لحد ما اخذها اليهود . ضحك هو وسلم على الأرمنى. شد يده وقال له يمازحه: You are Veary Veary luky وضحك الارمنى . نعم ضحك . منذ زمن لم يمازح احدا ولم يمازحه أحد . ارتاح هو للأرمنى اى ارتياح . ليت كل الناس فى هذا البلد مثل الصيدلى الأرمنى .

لكنه لا يعرف طبيبا نفسيا فى هذا البلد ، وحالته لا تطاق وعقله، رغم الدواء ملخبط وذاكرته صفر ، وأعداد المسلحين الذين يوقفونه فى الطرقات وتلك التى تتراءى له فى المنام وفى اليقظة تتزايد يوما عن يوم . ودوران الريح فى الكون يدوى فى أذنيه ، يمر أمامه حتى أصبح شاهدا على هذا الدوران . الريح تولول فى رأسه وصدره وركبتاه ترتعشان كعيدان القصب الرفيعة . كعيدان الخيزران تصطكان تحت جسده والجسد نحيل والمقويات لم تنفع كثيرا . وأشياء طرأت على حالته ... هل هذا ما يسمونه بالهذيان المرئى ؟ يعرف سلفا انه سيفتح باب غرفته صباحا ليجد المنشور نفسه مدسوسا تحته . منشور يدعوه لمعرفة الاسباب : ان أردت معرفة الاسباب فارجع الى الحلاج .

وفى اليوم ذاته قصد مكتبة الجامعة . منذ سنوات لم تطأ قدماه تلك المكتبة . ورغم ذلك فهو حين دخلها لم يشعر بشىء . كتابا تلو الآخر راح يقرأ عن الحلاج . لم يترك كتابا الا وقراه لكن الاسباب لم تتضح له . والمنشور مازال يطالعه كل صباح والحلاج نفسه اصبح يتراءى له . يزوره مرتديا مرة جلبابا ابيض ومرة سروالا أزرق وقميصا. ومرة .. كم يخجله أن يذكر هذا ، تراءى له الحلاج عاريا . نعم عاريا كما ولدته أمه . لحيته الطويلة البيضاء تكاد تصل الى منتصف صدره . والحقيقة ان الحلاج حين فوجىء متلبسا بعريه أصابه خجل فما كان منه الا أن غطى عورته بكفه وسارع فى الهرب .

ورغم ظهور الحلاج أمامه عاريا استمر هو فى ارتياد المكتبة . عرف أشياء كثيرة لكن السبب ظل مجهولا . حينئذ فضل الأخذ بنصيحة سقراط ، دون فائدة . كلما سأل نفسه عن السبب عاودت الريح ولولتها فى رأسه وتراءت له أشياء تؤكد له على أن هناك كمبيوتر للكلام وآخر للمشاهد . هذا يسجل أصواتا وذاك يسجل صورا . صورا ، لا يذكر أن كان قد رآها أم لا . ويبدأ يقول لنفسه : هذا ليس كمبيوتر . هذه أشياء تكلم بها علماء النفس فى تفسيرهم الاحلام . المشاهد التى تراها فى المنام هى مجموعة صور اختزنتها

الذاكرة وهي تزورنا أثناء الليل حين ينخفض الوعي . نعم يذكر انه قرأ هذا مرة . ان كان الامر كذلك ولا شك مصاب بانخفاض في الوعي دائم . فهذه المشاهد وتلك الأصوات تحضره ليس فقط في الليل بل وفي كل الاوقات . وهو لا يذكر متى سبق له رؤيتها . كلما حاول التقاطها . انزلقت من أنامل دماغه . لا . ليس للدماغ أنامل . لكن ، ما هو الدماغ ؟ هل الدماغ هو ذاك الشيء القابع في الصندوق الكروي الذي يعتلي رقبته ؟ لكن هل يعقل للصندوق ان يكون كرويا ؟ ولم لا ؟.

طالما أن صندوق دماغه كروي فهذا يعني انه يمكن للصندوق ، اي صندوق ، أن يكون كرويا . وفي هذا الصندوق الكروي يقبع الدماغ ويقبع العقل . لكن العقل شيء والدماغ شيء آخر بدليل انهم يقولون أصيب بانفجار في دماغه ولا يقولون في عقله . بل يقولون: في عقله لوثة . والمخ الصغير هذا يحتوي على حبيبات كل منها تحمل معلومة . وتتداخل المعلومات بعضها ببعض وتكون شبكة وهمية ليس لها حدود هي دون شك العقل الذي يتحدثون عنه . نعم . تلك هي الحقيقة . تلافيف ان تلفت تلف كل شيء ، جيش جبار من نحل يسافر الى أصقاع الدنيا ليعود اليه بلمح البصر . بل جيش جرار من نمل ينقل في قعر ازمنة سحيقة ليعود اليه بسرعة البرق . وتلوح له فكرة ويعاوده ذاك الاحساس بأن رأسه ينتفخ : هاهو يقطن فجأة الى الخيال ! كان قد نسي مسألة الخيال في زحمة انشغاله بتحيير العقل عن الدماغ ! ربما ان الخلل ليس في هذا ولا في ذاك بل في الخيال نفسه . خياله هو الذي يصور له اشياء !. ليته يقضي على هذا الخيال . ليته يسجنه في خزانة من حديد صلد . ماذا يعني أن يكون خياله في رأسه ولا يتمكن من السيطرة عليه ؟ ويدرك قصور الطب العقلي فالخيال لا يقع في مكان بل ولشدة عذاب الانسان ، يقع في كل الأمكنة . يصل الى السند والهند والصين والى الكواكب ، وهو لا ينتهي في زمان بل ولشدة عذاب الانسان يرجع الى كل الازمنة . منذ فجر العصور حتى يوم القيامة . نعم الخيال ينطلق من الراس الى آفاق بعيدة لا نهائية . وكما تقول جوانا : خيالك هو ظلك الذي يلازمك فان خسرت علاقتك به خسرت تجربة حياتك التي ابدا لن تتكرر . اي مأساة ان يخسر تجربة حياته التي لن تتكرر ! لكن اذا كان لابد للانسان من التعايش مع خياله لكي يكسب تجربة حياته فهل سيتمكن هو من التعايش

مع هذا الخيال المريض !. هذا الجامح الجانح المتهور توام الذاكرة. وهي بسببه تخزن ليس فقط الاشياء منذ ان رأى النور بل وتخزن ماسبق ونخيله منذ ان راى النور بل وتخزن ما سبق وتخيله اهله منذ ان راوا النور ، بل وقبل ذلك ، فهي تسجل ما سبق وتخيلته البشرية باسرها منذ أن رأت البشرية النور . هكذا يستحيل عليه وضع اليد على المؤشر الصحي . مثل الزئبق يصبح هذا المؤشر الصحي . اذا كان كمبيوتر الذاكرة يسجل التخيلات ايضا فما الذي يمنع اختلاط التخيلات المريضة بالذكريات الصحيحة واشتعال الفوضى ؟ هكذا اصيب بذاك الهاجس : فصل الخيال عن الواقع واصبح طوال الوقت يردد : هذا واقع وهذا متخيل . لا بل هذا متخيل وذاك واقع . وان كان لابد من فصل المتخيل عن الواقع فيجب الاعتراف بأن هذا هو المتخيل وذاك هو الواقع لا محالة . ولابد من العثور على طبيب للبت بالأمر فالحلاج ما برح يتراءى له عاريا ، بل لقد درج على هذا . وهو لم يكن ليتصور أن حكيما وقورا ومتصوفا مثل الحلاج يمكنه ان ينزلق في آفة الاستعراضية . وآفة الاحتيال ايضا ! اذ انه في كل مرة ينتحل سلوك من فوجيء متلبسا بالعري ويتوارى على خجل . ان كان العري يخجله فلم يعاود الظهور به ؟ لابد من العثور على طبيب يفسر له هذا السلوك ! ويفسر له تلك الاشياء ؟ .

ظل بعد ذلك زمنا يحاول أجلاء الغموض ! كانه يضرب في الرمل ! ويحاول التأكد مما جرى ومن معقولية التفاصيل . اكثر ما يحيره التفاصيل . المكان والمناخ والضوء والشخصيات . كانه في مشهد خفي لحلم طال مكوثه ثم طفى على السطح : أو لعله يسترجع فيلما لا يذكر متى رآه ، ظل هكذا مهموما بالقاء الضوء على الاشياء حتى توصل الى النتيجة تلك ان لا فائدة من فكرة الالغاز . وقال في نفسه معزيا : وكان ما كان مما لست اذكره ... وقال : طوبى لمن يكتفي بالظاهر ، بدأ ذلك حيث فكر انه لابد من العثور على طبيب فخرج الى الشارع يبحث . والتقى ذاك الرجل . حياه ، فوجه الرجل يوحي بالثقة . وساله عن طبيب وبرر سؤاله : منطق الجنون هذا يا عم لا يطاق . وعلى التو اجابه الرجل : معك حق . منطق الجنون هذا لابد له من جنون المنطق . اجمل القصائد المنطق .

قال هذا ثم دله على المكان . اكمل طريقك لا تحد عنه يمينا ولا شمالا وهناك في آخر الساحة تجد مبتغاك .

فعل كما اشار عليه الرجل . وحين وقف على راس الشارع راى ما راى ... زقاق ضيق صفان من الابنية الواطئة القديمة . وبافطة تصل الحائط بالحائط كتب عليها : « سوق الاطباء » .. غريب ! لم يكن يعرف أن للأطباء سوق .

وهو مثل سوق الصاغة الذى عرفه فى بيروت قبل ان تتهدم . وتلك الآرمات ... واحدة تقول : طبيب نفسى . واخرى تقول : طبيب أعصاب . وثالثة طبيب نفسى ورابعة طبيب أعصاب . وحين التفت الى الجهة المقابلة طالعته الآرمات ذاتها : طبيب نفسى طبيب أعصاب . طبيب نفسى طبيب أعصاب وتولاه الذعر وكاد يولى ساقيه للريح ويعدو بالهرب . لكن لم الهرب ؟ لم الخوف ؟ الضيق الشارع أم لكثرة الارمات . عاد وتشجع واندفع الى ذاك الباب . لا يدرى ان كان اختياره وقع على طبيب نفسى أم طبيب أعصاب . لكن الباب على أى حال كان مقفلا والباب الثانى كان مقفلا والثالث مقفلا والرابع ايضا ... وفى الجهة الاخرى ابواب كلها مقفلة. وجوه خشبية لعيادات مقفلة عنيدة لا مبالية وسمع صوت لهاثه وهم بالهرب ثانية لكن ضوءا خافتا لاح له فى نهاية الزقاق ينبىء بباب مفتوح فهرع اليه .

الباب مفتوح فعلا ، دفعه ودخل . صعد بضع درجات فواجهه باب آخر قديم . نقر على الخشب فسمع صوت انثى يقول من الداخل : تفضل .

قاعة انتظار كبيرة وفارغة وسكرتيرة منكبة على شغل الصوف . اشارت اليه دون كلام ، اكتفت برفع الصنارة لتطلب اليه بأن يتقدم نحو غرفة المكتب ففعل . كان الطبيب جالسا هناك . انه الرجل نفسه صاحب النظرة الوائقة الذى لقيه البارحة فى الشارع ودله على المكان ذاك الذى كلمه عن جنون المنطق . وهم بأن يستفسره عن تلك الالتباسات وعن الابواب المقفلة لكنه تردد وسمع الرجل يقول له :

ــ لا تتردد ويمكنك ان تقول كل شىء .

رائع ان يقول . كل شىء . به جوع فظيع للكلام وخزان فى صدره مثل بركان وها هى الفرصة متاحة أمامه للكلام فليفعل . لكن من اين يبدأ ؟. ابالهواجس يبدأ ام بالاحداث ؟ بفراق ميريام أم بوداع حنان؟ هل كانت تدرك هذه الطفلة حين عانقته ، ان ذاك العناق سيكون الاول والاخير ؟ وهل تدرك طفلة مثلها معنى الفقدان ام ان هاجسا قد هجس

لها بان اثرها هي ايضا سيكون مفقودا ؟ والان لا احد يعرف شيئا والامر غير اكيد ، لكنه سيجدها . يقسم على انه سيجدها . لابد. سيذهب بنفسه يتقفى اثرها . يلف القرى قرية قرية ، يصعد الجبال ، يهبط الوديان ، ينزل السواحل ، يزور المدن ، يدور في الاحياء ، يوقف الناس في الطرقات ، يتلصص على البيوت من النوافذ والفتحات حتى يعثر عليها ويعيدها اليه . والطبيب يشير عليه بان يتكلم . يساله لم هو ساكت وها هو يبدأ بالكلام يندفع فيه ليحكي كل شيء . منذ تلك اللحظة التي تلقى فيها البرقية ونزوله في المطار . الامين كان يرتدي قميصا ذا خطوط متقاطعة تحت بذلته، بدون خطوط غامق وفاتح تضفي على عينيه هيبة وشيئا عميقا كالاسرار . كان يكفيه ان يلمحه ليدرك بان شيئا ما اساسيا قد تغير . وذاك المبنى وهؤلاء الناس . لم يختلف المسلحون هنا عن المسلحين هناك ؟ اهي حكاية مكان ام حكاية زمان ؟ ايكون الواقع هناك وهنا المتخيل . ان كان صحيحا ان للحقيقة وجهين فالواقع يكون هناك وتكون هنا صورته المعكوسة مثل الفكرة التي ظلت تطارده والتي لا يدرك مغزاها بانه لولا الامين لما كان البطاش. هكذا وجد نفسه يردد هذه الجملة: لولا الامين لماكان البطاش ويحاول التخلص منها فلا يقدر . جل ما يقدر عليه هو ان يعكس الفكرة ويقول: لولا البطاش لما كان الامين والمسلحون هناك شيء آخر . وهل نسي انهم اصدقاؤه . هل يمكنه نسيان ذلك ... حين مرض كيف رعوه ، وانزلوه الى الملجا ، هل نسي كيف استضافه ابو سليمان اياما في بيته الى ان شفي وكانوا هم يعودونه كل يوم يحضرون له الادوية ، هل نسي انهم كانوا يدبرون كل شيء . ينظمون توزيع الماء والخبز ... والمؤن على الناس ؟ ياخذون المرضى الى المستشفيات ويديرون مستوصفات ويقيمون فيها دورات تدريبية للاسعاف . حنان نفسها تلقت دورة ويمكنها تقديم الاسعاف في حالات الجرح او الاختناق او الحريق . ما هم ان تلد ام فادي في الملجا ماداموا قد تولوا المسئولية. نحن نتولى المسئولية ، قالوا لام سمير . وقال لها سكان العمارة باصوات فرح وبكاء : الحمد لله على سلامتك يا ام فادي . الحمد لله على سلامتك . والطبيب بدون . هل هذه تفاصيل تهم الطبيب ؟. هو يدرك انه يسرع في الكلام والطبيب يشير اليه بان يتمهل المراة الشاحبة عادت من القرية . كان المسلحون قد اصطحبوها اليها بعد ان اكد عليهم الطبيب ضرورة خروجها من حمى المعارك . انخفاض دائم في الضغط وامتناع عن الطعام وامتناع عن الكلام ايضا . احيانا

ترد عليهم باشارة من راسها او تكتب كلمة او كلمتين على ورقة . اصـــــطحبها المسلحون الى قريتها ولما عادت ... لم عادت ؟ كانت قد تعافت تماما . هذه المرة كانت مشيتها شيئا آخر . تختال بدلال وتتكلم بثقة . امراة رائعة . تحادث سكان العمارة . تضحك بل تضاحكهم وتعبث بشيء من الخجل . وتسخر مما جرى لها فى الملجأ . مشيتها وحركاتها ليست كامراة فى الثلاثين بل كفتاة فى التاسعة عشرة . وعيناها لم تعودا زائغتين بل فيهما بريق وعافية . ووجنتاها تلوحان بنضارة خفية . حين دخلت المستشفى احتار هو ان كان من واجبه زيارتها أم لا . هل يأخذ لها زهورا ؟ لا يعرف الاصول فى هذا المكان ، فقال لابى سليمان سلم عليها ورد عليه أبو سليمان : واصل. لم يقل له تعال معي . وذكر أبو سليمان انه كان فى عداد الذين ناقشوا مع الطبيب وضعها الصحي . قال : زوجها غائب وعلينا ان نتصرف. حين يتعب ابن آدم يحتاج لمن يأخذ بيده ويقرر بدلا عنه . هذاصحيح. وهو من يأخذ بيده ؟ لا احد يأخذ بيده ولا حتى الامين الذى فى المنام كما فى اليقظة يبدو رهيبا . لابد ان يخبر الطبيب بذلك . حين هبط على صدره ذاك العناء وتراءى له الامين جالسا قبالته بوجه حيادى لا يخفى ولا يبين بل يزيد المسألة غموضا ، استرحمه ان يساعده فى البحث عن تلك التى فقدت ، أن يخرجه من هذا المازق . لكن الامين بدا كانه لا يعرفه . ها انا عدت من السفر وتلك حقائبى . اربع ساعات طيران ووصلت. كل شيء كما كان مقررا الا ان البطاش قد خرج من الســـجن . والبطـــاش يتراءى له مـــرة يحمـــل ســـــاطورا ومـــرة خنجـــرا . والشـــاب الـــذى باعـــه المجـــــوهرات وآخرون . منذ تلك الحادثة اصبح يحسب لكل شيء حسابا . اوقفه المسلح وساله ان كان حزبيا . أمن الضرورى ان يكون لكل واحد حزب ؟ لا قال الشاب . الاحزاب ليست كلها واحدة . البعض أسس حزبا لنفسه واسسها البعض للجميع . ويذكر أن المسلح اقترح عليه أن يدربوه على السلاح ، كما يذكر بأنه قد ساله عن رشاشه المفضل. احتار فى الجواب . لكنه تجرأ وافصح بأن الرشاشات بنظره كلها واحدة ابتسم المسلح وهز راسه . وعاد يبتسم ويقول : تعال ندربك وسترى كيف سيهوى قلبك رشاشا دون غيره من سائر الرشاشات.

فى المنام تلك الليلة حلم انه يصطاد فى المكان عينه الذى تعرف فيه هو وصحبه بالعم موسى . يصطاد ، لكن ، ليس بسنارة انما ببندقية. وكان سعيدا فى المنام . استيقظ وتساءل عن مغزى هذا الحلم . هو

لا يفهم بالاحلام وليست له علاقة مثل علاقة جوانا بها . لكنه يعرف انه مشتاق للعم موسى وتلك الايام ... ثم يحك للطبيب شيئا عن العم موسى ولم يخبره عن حنان كيف خرجت ذاك اليوم من الحمام بعباءتها البيضاء الطويلة مثل فتيات معابد الرومان . واخوها قال له آخر مرة قابله ، صارحه بانه يخاف عليها. وخوفه هذا ناتج ليس فقط عن حساسيتها بل عن شيء آخر يفوق الحساسية . ربما خيالها . وساله : هل من نصيحة ؟ ها هو يأتمنه عليها كما ائتمنته امها من قبل ويقول : المشكلة انني لا اتصور كيف سيكون مستقبلها . ويجيبه هو جواب جاهل مغرور : غدا تلتقي بالرجل المناسب وتتزوج . وقال اخوها «ربما» لكنها «ربما» مليئة بالشك ثم قال : يلزمها شخص حساس ومتفهم . واضح من كلامه انه لا يامل كثيرا بوجود هذا الشخص . كان ذلك قبل ان يغادر المبنى . سقطت قذيفة وتهدم الطابق العلوي وسد عليهم الباب . ثم دخلت قذيفة من مكان آخر لكنها لم تسقط في الملجأ . عبرت اعلى الجدار . فتحت فتحة ونفذت منها الى الخارج . هكذا مصادفة . ضربة حظ . انفتحت كوة ، هي تلك التي خرجوا منها وغادروا المكان . وتوالت عليه الحكايات الغريبة ، وحكاية المجوهرات واولئك الذين علقوهم في الساحة ليكونوا عبرة لمن اعتبر .. هل يقول للطبيب ان الراء كانت تفرقع ؟ . هذا لا يهم الطبيب بشيء . ما الفرق ان كانت الراء مشدودة أم رخوة ثم ان حرف الراء قد لا يهم الطبيب اصلا . اخبره ان الرجل الارمني لطيف وانه قد اعطاه مقويات وان الذي صفعه امسكه من العنق وقال له : اياك ان تعيدها . امسكه عند ربطة العنق تماما . كيف تمكن من ذلك وهو ما كان يضع ربطة عنق ؟ وفكر انه ليس من داع لان يخبر الطبيب بانه يكره ربطات العنق ، لكنه عاد واخبره لعل ذلك يلقي ضوءا مفيدا على حقيقة ما . وهم بان يسأل الطبيب رايه . ان كانت الأصول تقضي بان يحمل ولد صغير رشاشا مثل رشاشات الكبار وتردد في ان يخبره بالجمل التي يسمعها وتلك التي تتراقص امامه في الفراغ : ولد صغير رشاش صغير ورشاش كبير للكبار . خاف ان ينظر اليه الطبيب نظرة الصيدلي الارمني ويقول له يلزمك سايكاتريست. طبيب للنفس . ويدعوه للانصراف او يقول له ابحث عن طبيب آخر. وقد تعب اي تعب حتى وجد طبيبا . صاحب المكتبة التي يشترى منها دفاتره واوراقه قال له : انصحك بالاقلاع عن هذه الفكرة . وحكى

له تجربته قال : رحت للطبيب وقلتلو يا حكيم انا تعبان وفكري مشتت وعقلي بيهز . قلتلو بفيق من النوم ما اليش رغبي احكي مع حد وما اليش رغبي روح عالشغل . بحط راسي وبنام . ومرتي مش قادر عاشرها معاشرة الازواج . وكما ياحكيم من قادر نضف ديني . كل مابدي نضف ادني بخاف يطلع انفجار وارتعب وايدي تهز وافخت طبلة ادني . ارجوك يا حكيم ساعدني . قام عبس بوجي وقلي بره . صرخ وقال : بره . عمرك لتروح عالشغل وعمرك لتنام مع مرتك وعمرك لتنضف دينك . اما مرضي بلا عقل .. بره . وقـ طردني من العيادة ، ومن يومها كفرت بالطب وبالاطباء . بروح لعند الصيدلي بيعطيني ادوية وبس .

هل يصارح الطبيب بافكاره ؟ هل يسأله ان كان هو نفسه الذي قد طرد صاحب المكتبة أم ان طبيبا آخر غيره هو الذي فعل ؟ لا . لن يسأ مخافة ان يغضبه خاصة وأن الطبيب يدون كل شيء بالحرف . لكن اذا كانت الأمانة من صميم المعالجة فكيف سيتسنى له رسم ذا الجدول الذي اعطته اياه السفارة حين طلب التاشيرة ؟ هل يقول انه دون قرار مسبق وجد نفسه داخلا الى السفارة . بل انه قد دخل اكثر من سفارة . اي سفارة . المكان غير مهم . الخروج من هذا المكان هو المهم . استقبله موظف أجنبي دقيق ومخلص . القى عليه أسئلة عديدة أجابه عليها بامانة . ثم هكذا دون مقدمات سمع الموظف الأجنبي يسأله عن دينه ومذهبه . هذا الآخر يسأله عن دينه ومذهبه . فار الدم في عروقه . طلع دم النور * الى راسه كما يقولون. قام من مكانه وضرب الطاولة وسمع نفسه يصرخ بوجه الموظف الاجنبي ويقول : ما لكم وديني ياأخي وهل سألناكم عن دينكم مرة ؟ لو سألناكم لاشمئزيتم وقلتم : شعوب متخلفة . سوفاج . باربار . احمر وجه الموظف لكنه تمالك اعصابه : هذه اصول الطلب قال له وهو محافظ على هدوئه . نعم اصول . ثم لا يدري كيف دخل حارسان اثنان طويلان عريضان واخرجاه من المكتب . الموظف لا شك هو الذي استدعاهم بطريقته . ضغط على جرس خفي فدخلا . عند ذلك نقط قال له هذا الاخير : لن تحصل على الفيزا فبلادنا لا ترغب بالمشاغبين امثالك . الموظف لا شك قد ضغط على الجرس .

لكن ايبوح للطبيب بالخزي ويعترف انه رغم ذلك لم يكف عن

---

* الغجر

التفكير بالسفر ! بعد اسبوع فقط من تلك الحادثة قال اجرب سفارة اخرى . وعاهد نفسه على ضبط اعصابه مهما حدث حتى ولو سئل عن دينه . عاهدها نعم ، أن يذكر دينه ببساطة وبخلص فالتصميم على السفر كان اقوى . ما من موظف فى السفارة الاخرى ولا من مكتب . شباك صغير مثل شبابيك التذاكر فى دور السينما تركت فيه كدسات أوراق لبيانات مختلفة . انتظر ان يأتى أحد فيستأذنه فى اخذ الأوراق ليملأها . لا أحد . هناك جرس ضغط عليه أجابه صوت لا يدرى من أين نبع . انترفون . اختراعات !. الانترفون يسأله عما يريد . فيزا قال . صورته الآن ستظهر دون شك على شاشة صغيرة فوق ، مثل شاشة التليفزيون ووجهه سيبدو مفلطحا من جهة واحدة وراسه كبير وجسده ضئيل . والصوت يأمره بان يملأ البيانات .. اخذ الاوراق معه الى الفندق وملأها بحماس بالغ . انما الورقة الاخيرة .. الورقة الاخيرة شىء فظيع .. مش بالعقل ، رغم أنه قد عاهد نفسه بألا يترك دم النور يصعد الى راسه الا ان الورقة الاخيرة مش بالعقل ، منمنمات الكمبيوتر هذه كل منمنمة معلومة تطلبها السفارة كيف سيتسنى للطبيب رسمها ؟ كم من طائفة فى لبنان وكم من فرقة فى هذه الاوطان ! غريب . الجدول يخرج من يد الطبيب مثل سائر الأوراق . كيف عرف الطبيب بالدقة البالغة ذاك الجدول؟ هل من شاشة سينمائية بينهما تعكس افكاره ؟ هذا يوقعه فى حيرة اشد من حيرة الرجل عاثر الحظ المحظوظ . غريب . لا شىء غريب قال الطبيب . غريب الكل هنا يردد العبارة ذاتها . لا شىء غريب . وقال للطبيب : لعلك انت ايضا ... معذرة ... اقصد انت ايضا ذهبت الى السفارة تلك تطلب فيزا واخذت الأوراق ذاتها ؟ وخيل اليه ان الطبيب يهز راسه بالايجاب وتابع هو الكلام . كانت به رغبة فى ان يتوقف . انما الطبيب أشار اليه بأن يستمر فتابع . ملأ الطبيب اوراقا كثيرة كانت تخرج من يده كما تخرج الاوراق من آلة الستنسل . حتى ادهشته كثرتها . يا الهى ! لم أكن اعرف أن ما قلته رغم اختصارى تفاصيل كثيرة يصلح لأن يكون رواية . لو اطلبها منه الآن يعطينى اياها لانشرها أى العناوين أختار ؟ مالى نسيت ساعة القناص ؟ واحس بعطش رهيب وطلب من الطبيب شربة ماء ، شرب سمع صوت الماء يترقرق فى حنجرته ثم تابع الكلام بالاندفاع ذاته . انها ساعة القناص ! يوم خطر له أن يخرج من البيت ليبحث عن صديقة الجامعة حنان ويتزوجها فمر خطأ بالشارع الذى قتل فيه

عباس ابن الجيران . وفجاة لعلع الرصاص فوق راسه فمضى يهرول زيكزاك كى يخطئه التصويب مثلما علموه أن يفعل أول الحرب اذا ما فاجأه رصاص القنص . لكنه ما لبث أن نسى الزيكزاك واندفع يركض كمجنون اذ تأكد له لحظتها ان ليس بين الحياة والموت سوى خيط رفيع . خيط رهيب يفصل النتيجة عن النتيجة . وعلى الحائط قبالته ترتسم تلك الصورة المدمرة : جمجمة هائلة وعظمتان ، وفى اعلى الجمجمة تطالعه الفجوتان السوداوان اللتان تنبئان بذاك المصير وعبارة : احذر القناص . والقناص يطارده برصاص يفرقع فى اذنيه. من الامام يطارده . من فوق راسه يطارده . من الخلف يطارده . يطارده من كل الجهات . وتأكد له لحظتها أن لا سبيل الى النجاة وأن سكان العمارة وحنان سينتظرون عودته دون جدوى وانهم سيقولون : خرج ولم يعد كما لم يعد كثيرون مثله الى مواطن الأمان . وتذكر كلام أبى سليمان حين سأله لم لا تخرج من البيت فأجاب : هذه الايام يجدر بالانسان الا يبتعد كثيرا عن موطن الأمان والا شقت عليه العودة ، نعم يدرك الآن كم هى شاقة العودة . بينه وبين العدم ثوان لا يدرى كيف مرت . لكنه وصل . ثم سأل الطبيب اذا كان القنص وظيفة بحد ذاتها أم انها هواية يسلى بها القناص نفسه فى أوقات الفراغ ؟ وبعد الحاح خرج الطبيب عن صمته وقال له شيئا يعرفه تماما . قال : هذه مسألة شائكة وليس من اليسير البت فيها. انما من الافضل ان يتفادى الانسان المرور فى أماكن القنص .

وقصته مع ميريام . . ماذا عن قصته مع ميريام؟ مفكرة ميريام لونها اسود ولها خط ذهبى رفيع على الأطراف ميريام مخلوقة رقيقة . لم يقل له انها تعبر كالأثير وتتنقل كالفراشة . خاف أن يوقفه الطبيب عند حده ويقول له : أوجز فى الكلام ودعنا من مواضيع الانشاء . اخبره ان ميريام كانت قد دونت كل شىء فى الأجندا وانه اخطأ حين ارتضى لنفسه بأن يقرأ سرا ما دونته ، لقد اخبرته بنفسها وبحرية انها أحبت رجلا آخر فلم غافلها وقرأ ما قرأ ؟ كان يكفيه أن يقرأ ذلك مرة واحدة حتى يحفظه عن ظهر قلب وكأنه قد قرأه ألف مرة . وهو يغار من حب ميريام لهذا الرجل ويتعذب . وهى تتعذب أيضا لانه غادر باريس وقد سافرت الى امريكا عند اصدقاء لها. جوانا تقول انها ربما لذلك سافرت . عجب ! ان كان يعز عليها فراقه لهذه الدرجة فلم احبت رجلا آخر ! وفقاقيع الماء . هل يحكى للطبيب عن فقاقيع الماء التى خاف ان تظهر فى بحر النورماندى؟ كان ذاك آخر وبلك ...

يقضيه برفقة جوانا وبيار . وفجأة دب في الصدر ذاك الحزن. بأي الكلمات يصف الناس أحزان الفراق وتلك الرغبة في البكاء ! البكاء متحجر في الصدر وحاجته اليه قاهرة والشاطىء طويل ومكشوف. طويل ومكشوف . ليس من مخبأ واحد ولا تلة رمل يتوارى خلفها ، كأنه في صحراء والبحر سراب ليت للبحر حانة يتمسك بها . أو ليت جوانا وبيار يتركانه وحده فيركض على الشاطىء يولي ساقيه للريح الى الفلوات ويبكي . ليس من مكان هنا سوى الرمل والماء . هل يقوم وينبش الرمال ؟ يحفر لنفسه حفرة ينتحب فيها ، أم يلوذ بالفرار يدبر عنهما فلا يرجع اليهما أبدا ؟ أم يرمي نفسه في البحر يدفن رأسه في الماء ويبكي ؟ أن فعل يخجله ان يتحول بكاؤه الى فقاقيع تطفو على السطح وتفضح انين الاعماق فتراعيا جوانا .

وسأل الطبيب . أن كان من الطبيعي ان يتألم المرء هكذا لفراق الاصدقاء ، هذا فراق مثل فراق الاحبة . مثل فراق ميريام وحنان بل لعله يفوقه قسوة . هو كمجرب يقر بأنه يفوقه قسوة لانه محكوم بالصمت . فالصديق في نهاية الامر غير مطالب بشيء . وحدهم الاحبة مطالبون . جوانا قالت له ، رجته الا يعود الى لبنان فلم يستجب .. لو طلبت ميريام اليه ذلك لاذعن والطبيب لا يعلق بشيء .

في تلك اللحظات لحظات الخلو مع الذات ، تخطر له اشياء .. اذا كانت حنان تختلف عن جوانا هذا الاختلاف فكيف يكون هو في ذات الوقت صديقا لهذه وتلك ؟ حنان ، اذا ما قارنتها بجوانا بدت لبساطتها شديدة الاختلاف عنها . لكن اذا ما كشفت الحجب : ليس عنها بل عن نفسك ، لتأكد لك ، لشدة ما تشبهها ، كأنها اختها التوأم . جارهم اضاع مبلغا كبيرا ، الدنيا حرب وهو لا يثق بالبنوك . يخشى أن يأتي يوم تمتنع فيه عن الدفع . راح الى البنك وسحب منه فلوسه لكنه في طريق عودته فاجأه القصف فاختبأ في اكثر من مكان . ولما وصل الى البيت اكتشف ضياع المبلغ . الكل حزن من اجله ، غير انها هي لم تحزن . ولم لم تحزني . تضحك وتقول : لانني حين افكر بالذي عثر على المبلغ افرح . وهو دون شك احوج من جارنا له .

في تلك اللحظات النادرة تطفو على السطح اشياء لا تطفو في الاوقات الاخرى .. في مثل هذه اللحظات ، واول تعارفه بجوانا كان يسأل نفسه اذا كان في مقدوره ان يحبها ؟. هل كان في امكان جوانا ، لو لم تكن الصديقة صديقته وصديقة بيار ، أن تغدو الحبيبة ؟ لكن مجرد السؤال كان يوقعه في حيز الخيانة . فجوانا صديقه قبل كل شيء.

وحين تعرف بميريام توطدت علاقته بجوانا ولم تعد أفكار مثل هذه تعبث برأسه . وهو يدرك مغزى أن تتوطد علاقته بجوانا بعد أن دخلت ميريام حياته . نعم فمساحة الفراغ بينه وبين جوانا قد أضحت آهلة بميريام . وكان فى قرارة نفسه يدرك هذا ويستغربه . يستغرب كيف أن وجود بيار لم يكن كافيا لملء هذا الفراغ . فى البدء كان يحس بالذنب حيال بيار لكنه مع الايام وبعد أن توطدت علاقته بميريام تعلم كيف يقبل اشياء فى ذاته وفى الآخرين اتضحت له الأمور ورضى أن يكون بيار فى مكانة أخرى من نفسه غير تلك التى بلغتها جوانا .

الطبيب يدعوه للكلام . يسأله لم هو ساكت . أتراه يستحثه لكى يتجاوز الواقع الى المتخيل ؟ أينبىء الثانى بما لا ينبىء به الأول ؟ لا شك . لكنه كلما هم بأن يفصح راودته الفكرة بأن يعيد النظر بكل شىء . لعله لم ير ولم يسمع شيئا ولم تتراء له صور . لعله لم يقابل الصيدلى الارمينى ولم يقرأ كتابات على الجدران ولم يحك له العجوز حكايته فى حديقة الصنائع ولم يشتر المجوهرات من ذلك المنفى الى صقيع سيبيريا ولم يتعرف بحنان ولم يتلق البرقية القائلة ضرورى عودتك ولم يستقبله الامين ولم يبحث عن طبيب ولم تطالعه صور الجدران صور شبان ذوى عيون واسعة ونظرات بعيدة وكلمات تقول : شهداء . بعضهم ضحايا اقتتال وبعضهم ضحايا قتل وبعضهم ضحايا متفجرات . بعضهم أشقاء اثنان اثنان وبعضهم ابناء عم اثنان اثنان وبعضهم مجموعات أو افراد ، اخوة او رفاق نضال . وكلهم فى عمر الورود سواسية . صورهم على الجدران تطالعه فى خروجه كل يوم وليس فى هذا ما يحيره . ما أوقع الحيرة فى قلبه شىء آخر ... صورته حين طالعته على الجدار وهو فى طريقه الى السينما . كيف تطالعه صورته على الجدار وهو لم يستشهد بعد ! الوجه وجهه والاسم اسمه لكنه لم يستشهد بعد . انه أكيد من هذا . كان فى طريقه الى السينما مع الموظف شأنهما حين يخرجان مساء كل سبت . وارتسمت الصورة قبالته وخفق قلبه والتفت الى الموظف فلم ير على وجهه أى انفعال . دخلا صالة السينما واطفئت الأنوار . وهو لا يعرف ان كانوا قد عرضوا فيلما ام لا . ليس سوى صورته على الشاشة واسمه تحتها والشريط يكر ونور العرض يخبو ويسطع بهما ، الاسم والصورة ويسترق النظر الى الموظف . لا فائدة ! ولما خرجا لم يعلق الموظف بشىء وخشى هو أن يستوضحه فيفسر الموظف سلوكه على نحو آخر .. هل يخبر الطبيب بهذا ؟.

نظر الى الساعة فى معصمه . يا الهى ! ساعات . وقال للطبيب:
ـ معذرة . لا تؤاخذنى اظننى اخذت من وقتك اكثر من اللازم .
قال هذا ووقف نصف وقفة لكن الطبيب أشار عليه بالجلوس وقال له :
ـ الجلسة لم تنته بعد .
ـ ساعات مضت وانا ...
ـ لا اهمية للوقت ، قال الطبيب ، والجلسة من الآن مفتوحة .
ـ مفتوحة !
ـ نعم مفتوحة .
ـ والى متى هى مفتوحة ؟
ـ الى أن يقال كل شيء وتظهر الحقيقة .
ـ حقيقة الصور ...
ـ لا . حقيقة الاشياء كلها . كل الحقيقة .
اى عذاب أن تكون الأمور متاحة لهذا الحد ؟
لم يكن يعلم ان البوح أشق من الكتمان . ان كان للكتمان عذاب فلنبش الاعماق عذابات التاريخ وقد تعب هو من الكلام فلم لا يؤجل البقية الى جلسة اخرى ؟ لينه يؤجلها يوما ليرتاح . ليته يؤجلها شهرا ليرتاح لينه يؤجلها زمنا .. ما لديه مخزن فى الاعماق .. ما لديه يحتاج لدهر من الجلسات . يقول له ان الجلسة مفتوحة الى ان تظهر الحقيقة . لكن هل ستظهر الحقيقة ؟ الصورة التى طالعته على الحائط وشاهدها فى السينما ؛ صورته ، كيف يمكنه أن يتأكد والموظف لم يعلق بشيء ؟.
ولقاؤه شوقى ؟ ماذا عن لقائه بشوقى ؟
ـ من هو شوقى ؟
أيكون شوقى لى ما تكونه جوانا لبريام ؟ أيكون لى ما تكونه تفريد لحنان ؟
ـ اين لقيت شوقى . متى لقيت شوقى ؟
لا اذكر . ما هم المكان ؟ ما هم التاريخ ؟ ما هم ان يلقاه اليوم او البارحة او غدا ؟ الزمن هذا هو نفسه فلم الاصرار على تحديد التاريخ ؟ هذا لقاء تم فى نهر ازمنة ودهاليز امكنة ..
ـ من هو شوقى ؟
وحده من أصدقاء الثلة لقيه مصادفة فى الطريق فاندفع اليه مهللا معانقا ، لكن شوقى لم يتلهف للقاء مثله بل ابدى استغرابا لوجوده أساسا فى بيروت وساله :

ـ عدت اخيرا الى لبنان ؟
ـ نعم عدت اليه .
ـ منذ متى ؟
ـ منذ فترة .
ـ واين تقيم ؟
ـ اقيم في فندق .
ـ ولم تقيم في فندق . وبيت اهلك ؟
وفكر : أوصدوه بعارضات من حديد وبأقفال ثقيلة . لكنه وجد نفسه يقول :
ـ باعوه .
ـ باعوه ؟
ـ نعم باعوه .
ـ ولم باعوه ؟
ـ لا أعلم .
ـ وما الذي عاد بك الآن ؟
شوقي هو الذي سأل . وكان لابد من الاجابة .
ـ استدعوني فاتيت .
ـ ولم استدعوك ؟
ـ حكاية ميراث .
ـ ميراث : والدك .. معقول ..
ـ لا . ابدا . تصفية مسائل عالقة تعرف عمي ..
ـ آه ، تذكرت ، أو لم يكن في مقدورهم تصفية الامور في غيابك.
ـ لا لأنا الوريث .
ـ الوريث ؟
ـ نعم الوريث .
ـ ولم قبلت الميراث ؟
ـ وهل يرفض أحد ميراثا ؟ وهم على كل حال اورثوني دون ان يستشيروني .
ـ هكذا اورثوك فورطوك .
ـ ماذا فعلوا ؟
ـ ورطوك .
ـ وكيف عرفت هذا ؟
ـ الميراث هذه الايام ورطة ، بل ان كل ميراث ورطة وأنا تنازلت عن ميراثي لاخوتي .

ـ وكيف تفعل هذا ؟
ـ تلك حكاية أخرى .
وقال هو لشوقي :
ـ دعنا من هذه الحكايات وحدثني عن نفسك . أما زلت تعزف على الناي والعود ..
ـ لا ، نادرا ما أعزف ، بل اني أصبحت لا أعزف على الاطلاق .
ـ لماذا ؟
ـ لا أعلم .
ـ لشد ما تغيرت يا شوقي .
ـ وأنت أيضا .
ـ حتى لكأنك شخص آخر ..
ـ وأنت أيضا .
ـ صحيح ؟
ـ أيوه صحيح . لو رأيتك في مدينة أخرى لما عرفتك . لقائي بك هنا يسر لي التعرف عليك .
ـ غريب !
ـ كل شيء في هذا البلد غريب .
ـ لعلها فترة وتنقضي .
ـ عسى أن تنقضي ..
وسأله عن آمال .
ـ وآمال أين هي آمال ؟ كنتما على وشك الزواج .
ـ نعم كنا على وشك الزواج .
ـ والآن ؟
ـ انتهينا كل شيء .
ـ تزوجتما ؟
ـ لا . افترقنا .
ـ ولم افترقتما ؟
ـ أصرت هي على السفر . قالت لا تطيق الحرب . وأصريت انا على البقاء فافترقنا .
ـ أولست نادما ؟
ـ بلى .. اني حقا لنادم .
ـ ولم لا تلحق بها الان وتتزوجها ؟
ـ لأنها تزوجت .

ـ بهذه السرعة !
ـ لا . سنوات مرت على الفراق ..
ـ عفوا ، يحدث لى نسيان هذه السنوات ... وبعدها الم يعلق قلبك بفتاة اخرى ؟
ـ لا .
ـ كل هذه السنوات ... غريب .
ـ لا شيء غريب .
ـ ولم لم يعلق قلبك بغيرها ؟
ـ وهل حدث لك هنا أن ...
ـ لا .. أنا هنا عابر سبيل .
ـ الكل فى الحرب عابر سبيل ولا سبيل فيه للحب .
ـ اى كلام هذا ؟
ـ نعم .
ـ انت تقول اشياء عجيبة يا شوقى .
ـ ليس العجب فيما أقول بل العجب فيما تظن .
ـ وماذا اظن ؟
ـ أن الحب فى الحرب ممكن .
ـ وما هو المانع ؟
ـ الحرب هى المانع .
ـ وكيف تكون الحرب مانعا ؟
ـ وهل نتخيل امرأة ترتعد فرائصها من الخوف ، تحب رجلا ترتعد فرائصه من الخوف هو ايضا ؟

ووجد نفسه يقول : الحب هو نفسه فى كل مكان وزمان . فى كل عصر وأوان . وخطر له أن يحدثه عن نفريد . كيف جلست على عرش الحب ، يوم خطوبتها تحيط بها نظرات خطيبها سمير ، ترد تحيات النسمات ، تحييها من الأنفاس .. لكنه اكتفى بالسؤال :

ـ أوليس الحب هو هو فى كل الازمان ؟
ـ لا . بل ويختلف الحب من الحب بين اللحظة واللحظة .
ـ وماذا يفعل ابن آدم ... فى وضع كهذا ؟
ـ لا شيء . ينظر الى جنة النعيم ويتحسر .
ـ غريب ..
ـ لا شيء غريب .
ـ لكن ، كيف يمكن العيش بلا احاسيس ؟
ـ بل وكيف يمكن العيش بها ؟

ـ وماذا يفعل الانسان باحاسيسه ؟ اين يذهب بها ؟
ـ لا يفعل شيئا . فالاحاسيس فى ظروف كهذه من تلقاء نفسها تتعطل .
ـ تتعطل ؟
ـ نعم تتعطل .
ـ أأكيد انت مما تقول ؟
ـ أيوه اكيد .
ـ وكيف تاكد لك ذلك ؟
ـ لانى ما زلت حيا عاقلا وما زلت أرى الناس أحياء عقلاء .
ـ بت لا أفهم ..
ـ سأشرح لك .. الاحاسيس يا صديقى ... والمشاعر فى حرب مثل هذه ان هى لم تتعطل ... اذا ما تركها الانسان على سجيتها قوية صادقة قتلته أو جن من الهول . تفهم قصدى .. لذا فانها من تلقاء ذاتها تتعطل حتى ليمتنع على الانسان الحب . فهمت ؟.
ـ أيوه فهمت . غريب ... الفكرة فى حد ذاتها تبدو منطقية . وتسلسلها منطقى ، لكنها لا تخطر فى بال فكيف خطرت لك ؟.
ـ جربت فخطرت لى وعرفت ولو لم أجرب لما عرفت شيئا .
ـ ماذا جربت ؟
ـ الاهوال . الموت .
ـ الموت ؟
ـ نعم أصدقاء لنا ماتوا .
ـ من أصدقاء الشلة ؟
ـ لا . أصدقاء جدد عرفتهم بعد سفركم . وتوطدت العلاقة بيننا .
ـ قتلوا ؟
ـ نعم قتلوا .
ـ ولم قتلوا ؟
ـ لا أعلم . اذ لم تكن لهم صلة بالسياسة . ربما قتلوا خطأ وربما قتلوا عمدا لا أحد يعرف . لا أحد يشهد . اما بالنسبة لربما فالسبب اكيد .
ـ وما هو السبب بالنسبة لربما ؟
ـ اختلاف الدلالات .
ـ اية دلالات ؟

ـ تلك التي تدل على الاشياء .
ـ ماذا تقصد ؟.
ـ اسمع .. ماذا يعني ان تكون ريما حيوية وتواقة ؟. أن تنهض ثاني يوم وصولها من السفر وبها شوق لرؤية أصدقائها ؟ أن تركز سيارتها قبالة العمارة التي ينتظرونها فيها وتندفع لملاقاتهم ؟.
ـ ربما هذا يعني أن ريما ، كما تقول ، كانت متشوقة لرؤية أصدقائها .
ـ هذا صحيح بالنسبة لريما . اما بالنسبة لمسلحي الحاجز فسلوكها هذا دلالة اخرى . شبهة . ظنوها وضعت متفجرة ولاذت بالفرار . صرخوا لينبهونها لكنها في غمرة حماسها واندفاعها لم تتنبه . اطلقوا عليها الرصاص . اعني .. لو تبلدت مشاعر ريما لما قتلت ، فهمت قصدي ؟.
ـ أيوه فهمت .
لكن هل يخبره بحكايته مع حنان ؟ هل أحب حنان فعلا أم أنه الوهم ؟ كيف لم تتعطل احاسيسه هو ولم تتبلد مشاعره ؟ هل سيجن؟ هل سيموت من الهول ؟ شوقي قال بالتحديد : جن أو مات من الهول وها هو على حافة الجنون والا لما جاء الى الطبيب . مجيئه دليل على أن أحاسيسه هو لم تتبلد ما زالت تنبض بالحب وبالالم وربما لهذا عقله ملخبط والطبيب يسأله عن سبب صمته ويسأله عن شوقي . من هو شوقي ؟
عازف ناي . عازف عود وطبيب .
ـ صحيح ماذا عن الطب شوقي ، كيف كانت التجربة ؟.
ـ في البدء كانت ، ورغم الحيرة ناجحة .
ـ الحيرة ؟
ـ نعم الحيرة .
ـ وما دخل الحيرة بالطب ؟
ـ عدت الى بلدتي في الجبل وكنت الجراح الوحيد في الجوار . ثلاثة قبلي سافروا . وكل يوم كنت أواجه حيرة في الاختيار .
ـ تقصد الاختيار بين السفر والبقاء ؟
ـ لا بل اختيار المصاب ، صاحب الاولوية في الجراحة .
ـ الاولوية ؟
ـ نعم . فالمصابون بالعشرات وعلى بالتأكيد ان أبدأ بواحد منهم بمن أبدأ ؟

ـ بالحالة المستعجلة طبعا ·
ـ تلك كانت حيرتي بالضبط ·
ـ لماذا ؟
ـ معرفة الحالة المستعجلة تتطلب اجراء تشخيص وفحوصات · يعني وقت ضائع والوقت ثمين والمستشفى غير مجهز ·
ـ وكيف حلت الاشكال ؟
ـ لم احله . استسلمت . كنت أقول للممرض بأن ياتيني بأى مصاب ·
ـ أى مصاب : هكذا بالمصادفة ؟
ـ نعم بالمصادفة أو حسب التقدير ·
ـ انما هذا رهيب ·
ـ نعم رهيب · وهذا ما واجهناه في المعارك الفاصلة ·
ـ ماذا واجهتم ؟
ـ تعرض مركزنا للقصف وكان لابد من اخلائه ونقل الجرحى . والفريق العامل والمتطوع رغم الامدادات محـدود ·· وكان لابد من الحسم ·
ـ ماذا فعلتم ؟
ـ اخذنا من أمكننا أخذه من المرضى وتركنا من تركنا منهم · ولما عدنا لاخذهم كان البعض قد مات ·
ـ مات ؟
ـ نعم مات معظمهم . مات .
ـ أنت رهيب يا شوقي ·
ـ أنا لست رهيبا ، الواقع هو الرهيب ·
ـ وما الذى يضطرك لقبوله ؟
ـ وماذا كنت تفعل مكانى ؟
ـ لا أدرى ·· أنا سافرت ·
ـ لو سافرت مثلك لما أجريت الاف الجـــراحات العاجلة لالاف المصابين مهددين بالموت :
ـ صحيح ·· عفوا والان ؟
ـ الان لا شيء ·
ـ لا شيء ؟ كيف لا شيء ؟
ـ أصبحت عاطلا عن العمل ·
ـ لماذا ؟ هل أغلقوا المستشفى ؟

ـ لا · طردوني ·
ـ طردوك ؟
ـ نعم طردوني ·
ـ من بلدتك ؟
ـ لا · جاء طبيبان شابان غيري وعملا مكاني في المستشفى البلد، وانتقلت أنا الى بيرت واشتغلت وكنت ناجحا ، غير انهم منذ فترة وجيزة طردوني ·
ـ ولم طردوك ؟
ـ يوم المتفجرة تلك · الجرحى بالمئات والذين يصطحبونهم بالمئات ايضا · تجندنا جميعا في غرف الطوارىء والعمليات · ويقال ، لا اعلم لا أذكر ، يزعمون اننا في معمعة الفوضى أخذنا شخصا بالخطأ ووضعناه على الحمالة وأدخلناه غرفة العمليات ويقال ، لا أعلم ، أني بالخطأ اجريت له عملية الرئة تلك . نعم رايت فتات الشظايا تمزق الرئة فاستأصلت الجزء المصاب · ويزعم هو انه ما كان مصابا ولا مجروحا وما كان يشكو من شيء بل جاء يصطحب جريحا · والدم الذى يسدد ثيابه كان دم الجريح . ويزعم أنه حاول تنبيهنا مرارا لكننا لم نستمع اليه ·

ـ معقول ؟
ـ كل شيء معقول ·
ـ وهل حدث هذا بالفعل ؟
ـ لقد ثبت حدوثه بالفعل ·
ـ غريب ··
ـ لا شيء غريب ·
ـ وكيف ثبت ذلك ؟
ـ وجدوا الرئة المستأصلة ، اقصد الجزء المستاصل منها ولم يجدوا الشظايا · كانت سوداء اللون لكنها لم تكن تحمل اى اثر للشظايا ·
ـ غريب ·
ـ بالطبع غريب ·
ـ أو لم تحاول الدفاع عن نفسك ؟.
ـ حاولت .. لكنى اكتشفت ، غريب ، الرئة التى بدت لى وقتها مضروبة بالشظايا ، الغريب انها لم تكن كذلك .

ـ وكيف تفسر هذا ؟
ـ ليس لدى اى تفسير .
ـ والان ؟
ـ لا عمل لي . تنازلت من ميراثي لاخوتي لقاء مبلغ ما وسأسافر لاعمل في التجارة .
ـ وتتخلى عن الطب ؟
ـ انا لم اتخل عن الطب ، نقابة الاطباء هي التي شطبت اسمي.
ـ وخدماتك وانقاذك آلاف الجرحى ، ألم تذكرها لهم ؟
ـ بلى ذكرتها . لكن دون فائدة ، فالمريض هذا متنفذ .
ـ والى أين ستسافر ؟
ـ الى استراليا .
ـ أف .. ألم تجد أبعد منها قارة ؟
ـ عن الحروب لا . فاذا ما وجدت انتقلت .

ودب في الصدر حزن وثورة ورغبة في اقناع شوقي باستئناف دعواه . ليس من المعتوه أن يقيلوا طبيبا أنقذ حياة الآلاف هكذا ولمجرد انه في معمعة الفوضى التبس عليه الامر ! واستيقظت في فؤاده العاطفة القديمة التي ظنها غارت في أعماق الذاكرة ، وحنين للايام تلك ، وشوق لاستعادتها . لابد من العودة الى ذاك الزمن المفقود . ان كان يحزنه أن أمال قد هاجرت وتزوجت فبامكانه التعرف بفتاة أخرى لها صوت رائع مثل صوت امال يعلمها الاغنيات التي يحبها . وان لم يكن لها صوت جميل علمها الموسيقى ، وان كانت لا تميل للموسيقى فلعلها تميل للمسرح أو للسينما او لعلها تميل للرقص أو للادب أو للشعر أو للفلسفة وان كانت لا تميل لكل هذا فلعلها تميل للتصوف فتتوحد به وتتعبد . وان كان يحزنه أن رفاق الشلة قد تفرقوا فيقينه أنه سيبحث عنهم . أصدقاؤه القدامى فردا فردا سيبحث عنهم وان تعذر عليه لقياهم فسيبحث له عن أصدقاء جدد يؤلفون مجموعة أخرى حيوية وتواقة . فمهمته الآن ، دعوته ، هي انقاذ شوقي ، مثلما تكون للراهب دعوة مثلما تكون للأولياء ومثلما للقديسين . نعم لابد له من أن يسعى لايجاد هؤلاء الذين في مقدورهم اعادة الطمأنينة الى قلب صديقه ، ويثنونه عن عزمه على السفر الى مجاهل استراليا . أناس جدد يسمعهم شوقي عزفه الرائع ويخبرهم كما في السابق أن الموسيقى ، هذا التناغم البديع ، ليست من ابتكار أحد . التناغم

البديع هذا ، الخالق هو الذى ابتدعه فى الكون . وجل ما يفعله الانسان ان يتعلم . لكن شوقى استبقه .

ـ الحق يقال ياصديقى ..

ـ ماذا ؟

ـ الحق يقال أنه لم تعد بى رغبة بشىء . لا تحاول . لقيتك مصادفة فى الطريق . أشكرك على اهتمامك . لكن بالنسبة للسفر لا تتعب نفسك .

ورغم ذلك استحلف شوقى أن يمنحه فرصة مساعدته أن يمنح نفسه فرصة . أن .. لكن شوقى أصر على التوادع .

ـ لكم تغيرت ياشوقى .

ـ وأنت أيضا .

ـ تغيرت أكثر بكثير مما كنت اتصور .

ـ وأنت أيضا . لو رأيتك فى مدينة أخرى لما عرفتك ، رؤيتى لك هنا سهلت لى معرفتك . اشكرك على حماسك غير أنى مسافر غدا . وداعا .

ويسأله الطبيب عن شوقى :

ـ من عو شوقى ؟

ـ طبيب ، عازف ناى وعازف عود ، لكنه تغير . لشد ما تغير شوقى .

ـ وانت ؟

ـ انا لست شوقى . شوقى اجرى العملية فطردوه .

ـ وانت ؟

ـ انا اشتريت المجوهرات فسجنونى .

ـ سجنوك ؟

ـ نعم سجنونى .

ـ وحدك أم معه ؟

ـ وحدى فى سجن النار والدمار وليس لدى قلعة مثل قلعة الرجل العجوز .

ـ اى عجوز ؟

ـ لا تعرفه . هذه حكاية اخرى .

ـ احكها لى .

ـ ليس لدى وقت .

ـ قلت لك الجلسة مفتوحة .

ـ الى متى ؟
ـ الى أن تظهر الحقيقة .
ـ أية حقيقة ؟
ـ الحقيقة نفسها . كل الحقيقة .

الحقيقة ان شوقي سافر ولم يبق سوى الموظف ، والموظف ليس شوقي لان شوقي سافر الى أوستراليا وانا لست شوقي لاني لم أسافر الى أوستراليا . يقول انى تورطت بالارث ، وان كل ارث ورطة . والذى لا يرث لا يتورط وهو لم يتورط بالميراث لكنه تورط برثة الرجل لكن ما دخل الورطة بالعزف قال لا دخل هذا بذاك قلت له لم لا تعزف اذن قال لم تعد لى رغبة بشيء .

منذ ذاك اليوم، يوم طالعته صورته على الجدار وتراءت له على الشاشة في صالة السينما وجد نفسه يعمل مع موظف الاستقبال في الفندق . وهو لا يذكر أنه طلب .. عملا ورغم ذلك فهاهو يعمل ويقبض راتبا اخر الشهر . ويذكر أنه قرأ اعلانات للعمل في لبنان والخارج وأنه ملأ بيانات وأرسل طلبات . مرة قيل له ان مؤهلاته بالنسبة للعمل المطلوب عالية جدا وقيل له أنه بالنسبة للعمل المطلوب ليس عنده مؤهلات بالمرة . وبالنسبة للسويتش لم يقل له أحد شيئا .

في الآونة الاخيرة ، ومنذ غياب الموظف أصبح يعمل وحده في الاستقبال . منذ حادثة المتفجرة وهو يعمل وحده . ذاك اليوم ، يوم المتفجرة ، كان الموظف قد غادر منزله في التاسعة صباحا واتجه كعادته الى الفندق . لكن ما هي الا دقائق حتى وقع انفجار في الطريق الذي يسلكه يوميا الى العمل . وعلى الفور اتصلت أم الموظف بالفندق لتطمئن على ابنها فقيل لها : لم يصل . عندئذ هرعت مع ابنها الاخر الى مكان الحادث . ولما وصلت ورأت ما رأت حتى أغمي عليها في الحال .

نقلوها الى المستشفى وبقي أخو الموظف مع متطوعي الدفاع المدني يفتش بين الانقاض ولم يكن من اليسير تمييز المصابين بعضهم عن بعض وكذلك فان عامل الدفاع المدني اسرعوا في نقل الجرحى الى المستشفيات هكذا لم يتمكن أخوه من العثور عليه . لكنه اثناء التفتيش وقع على ساق بين الانقاض تنتعل حذاء مثل حذاء أخيه الذي اشترته له أمه أول أمس . كان أخوه قد رأى الحذاء عند «الريد شو» واعجبه أنه وجده غالي الثمن . راح الى أمه واخبرها فقالت له : يا حبيبي يا تقبرني الدنيا حرب والواحد مش لازم يحرم حالوا من شي واذا عجبك اشتريه . . قالت له هذا واعطته الفلوس . حذاء مثل هذا جديد وبني وله شريط لكن الساق الموجودة بداخله مشوهة والبنطلون محروق ولا يمكن التأكد فالاحذية في نهاية الامر تتشابه . وهو لا يذكر ان كان أخوه قد انتعل حذاءه الجديد أم لا . حاول أن يتذكر فلم يفلح . عاد الى البيت ليتفقد الاحذية فادرك انه في زحمة الحدث

قد نسي المفاتيح في الداخل • اتصل بالمستشفى ليسأل أمه فقيل له: أعطوها منوما ونامت • شرح لهم الوضع وطلب منهم أن يوقظوها ويسألوها عن الحذاء فايقظوها وسألوها فقالت : المنى الجديد الذي اشتراه امبارح • وسألتهم عن اينها فقالوا لها : عم بيفتشو عنو وان شاء الله بيلاقو • فقالت لهم : اتركوني قوم فتش معاهن مابدي نام لكنها عادت الى النوم أو أغمي عليها لا أحد يعلم .

ولما عاد الى مكان الحادث فاتح متطوع الدفاع المدني بما يشغله : أوليس من الواجب نقل الساق الى المستشفى أو الى أي مكان اخر مخصص لمثل هذه الامور ؟ وأخبره المتطوع ان شباب الدفاع المدني قد عملوا اللازم ونقلوها . فلم يسأله الى اين .

كان متطوع الدفاع المدني قد لف على جميع المستشفيات وسأل عن اسماء الجرحى وسأل ان كان هناك جريح بساق واحدة فقيل له • أيوه هناك رجل بساق واحدة ينتعل حذاء وهو الان في غرفة العمليات والبه عليهم في أن يعرف تفاصيل أكثر عن فردة الحذاء • دخلت الممرضة الى غرفة العمليات وعادت لتخبره بأن الفردة الموجودة ليست بنية بل سوداء فنبهها الى أنها قد تكون اسودت من الدخان أو الاحتراق وسألها عن تفاصيل أخرى ، فدخلت الى غرفة العمليات ثانية وجاءت هذه المرة بتفاصيل أدق • قالت ان الرجل الذي تجرى له العملية الان في الخمسين من العمر أشقر وبدين • عندئذ رجع الى مكان الحادث ليلاقي أخا الموظف ويسأله عما جد معه ، فاخبره هذا بان أمه قد رأت أخاه بعينيها ينتعل حذاءه الجديد مما يؤكد انه هو صاحب الساق • عندئذ قال له متطوع الدفاع المدني :

ـ اذن لم يبق أمامنا سوى البراد •

ـ البراد ؟

ـ لا تزعل مني يا صديقي .. طالما ان أخاك ليس بين الجرحى ولا تحت الانقاض وان الحذاء حذاؤه فلابد وان يكون في البراد • ثم •• لا تزعل مني فلحد الان لم يتقدم أحد للتعرف بالساق والمسألة قد جاوزت الواحدة •

عندئذ اتجه الاثنان الى المستشفى من جديد وشرحا لعامل البراد ملابسات الحكاية : الحذاء والفردة التي فيها ساق ، واخبراه بان لونها بني بشريط ، فان كانت الفردة الثانية موجودة في قدم أحدهم أمكنهم التعرف بصاحبها • قال لهم عامل البراد ان لديه قتيلا واحدا لم يتم التعرف به بعد ، لكنه بساقين وبدون حذاء . وبما أن جثته

كلها محروقة وكذلك الساقين والوجه فلابد وان يكون الحذاء نفسه قد احترق ايضا .

وقال لهما :

ـ يمكنكما رؤيته فلن تخسر شيئا على أى حال .

قال هذا واتجه الى غرفة البراد ، لكن أخا الموظف تلبسه ذعر فهرع الى الخارج ولحق به متطوع الدفاع المدنى يمسك بذراعه ويحاول اعادته ، وهو يشد نفسه الى الوراء محاولا الهرب قائلا للمتطوع :

ـ ارجوك أعمل لى خدمة وتعرف عليه أنت .

يقول هذا والمتطوع يذكره بانه لا يعرف أخاه شخصيا والا لاسدى له الخدمة وتعرف به . فى البدء ولشدة خوفه لم يكن الشاب يسمع جيدا كلام المتطوع . لكنه حين سمعه كف عن المقاومة . وعاد الى غرفة البراد وكان العامل قد فتح الدرج .

فى تمام الساعة الثانية من يوم الحادث أفاقت والدة الموظف من النوم رغم المنوم ، وبدت مبتهجة وهى تصيح : وجدوه .. وجدوه .. وركضت الممرضات اثر صياحها وحاولن تهدئتها واعادتها الى النوم. لكن المرأة هبت من سريرها وأخذت تصفق ، ووجهها يطفح بالبشر كان ابنها ولد لساعته ، تصفق وتقول : لقيوه ياناس لقيوه .

اثناء ذلك كان ابنها قد غادر غرفة البراد دون نتيجة ، فهو لم يتمكن من التعرف بالقتيل صاحب الجثة لشدة ما هى مشوهة . عدا القتيل هى الشىء الوحيد الذى يمكن تمييزه ، وما عدا ذلك ، الوجه والجسد والاطراف كلها محروقة . العينان غير محروقتين لكنهما شديدتا الجحوظ . وعندما فتح الدرج احس بهما تقفزان نحوه .. تراجع مذعورا ولم يتمكن من معرفة شىء ، ليس بسبب الخوف انما بسبب جحوظ العينين . وسأله عامل البراد ان كانت الجثة جثة أخيه اقصد ، قال ، لا مؤاخذة ، اذا كانت العينان عينى أخيه فاجابه صادقا بان عينى أخيه كبيرتان لكن ليس لهذا الحد . اعتذر عامل البراد وقال : عفوا ، هذه هى الجثة الوحيدة التى لم يتم التعرف بها عندنا . الجثث الاخرى سلمناها لاصحابها . عليك الذهاب الى برادات المستشفيات الاخرى .

وقبل أن يلف كل المستشفيات صعد الشاب لينفقد أمه فرآها عندئذ تصفق وتصيح فرحة : لقيوه ياناس لقيوه . فصدقها . لكنه لما نظر الى الممرضة ، رفعت هذه حاجبيها علامة النفى . حينئذ ادرك ان أمه أصيبت بلوثة . فى هذه اللحظة تنبهت أمه الى وجوده فى الغرفة

فركضت اليه تعانقه وتقبله وتضحك وتمسح دموعها وتقول
ياحبيبى لقيوه • بشارة •

غمز الشاب الممرضة لكي تحضر منوما أو تستدعى طبيب وأمسك بامه محاولا تهدئتها • وهى لا تتنبه لذلك بل تبشره بان أخاه قد وجد وأنه لابد من الاحتفال بالفرحة .

ـ روح يا حبيبى اشترى ملبس وزعو على الممرضات والممرضين وعلى الاطباء والمرضى •• وزعو على أهل المستشفى كلهن • وكمان اشترى رز وسكر • شوال رز وشوال سكر ورعهن عالفقرا علشان خيك الله سلمو ونجى من الانفجار •

قالت هذا وفتحت الخزانة وتناولت منها محفظتها وأعطت ابنها ثمن الملبس والارز والسكر . تحلى الشاب بالصبر واخذ يفكر بطريقة تعيد الى أمه صوابها فأجلسها على حافةالسرير وسـألها بهدوء عمن أخبرها بأنهم لقيوه :

ـ قلبى دليلى يا حبيبى • قلبى دليلى • اسأل قلب الام • وحياتك يا ابنى لقيوه •

عندئذ غمز الشاب الممرضة ثانية لكى تاتى لامه بالمنوم . لكن أمه تنبهت الى ما يدور فى خلده فقالت له :

ـ ليش ما بتصدقنى يا حبيبى ؟ صدقنى انو رجع على الأوتيل. طيب على كل حال شو رح تخسر . جرب اتصل بالاوتيل وشوف .

وارضاء لامه رفع الشاب سماعة الهاتف وأدار القرص وطلب رقم الفندق وسمع الجرس يدق ثم يتوقف وأحس بالخط يفتح وطالعه صوت أخيه يقول :

ـ آلو •

منذ تلك الحادثة ، وبعد أنعرف الموظف ملابساتالقصة استولى عليه الذعر وامتنع عن الخروج . اذ أصبح يخيل الله ان الساق الملقاة بين الانقاض هى ساقه ، والحذاء حذاؤه ، وأن الجثة القابعة فى البراد جثته . محروقةسوداء والوجه اسود ، وانعامل البراد سيفتحالدرج وستقفز منه عينان جاحظتان هما عيناه وترتعد فرائص اخيه. حتى أنه كره حذاءه الجديد ورماه فىالزبالة. لكن اخاه استرد الحذاء من الزبالة وقال له : لا ترمه ، اعطنى اياه فانا بحاجة الى حذاء • هجم هو على أخيه وانتزع الحذاء من يده ورماه فىالزبالة من جديد بعد أن لفه بجريدة ووضعه فى كيس حتى لا يكتشفه أحد • وقالت له أمه :

ـ ارميه يا حبيبتي ارميه . الله لا يردو نحس . وقالت له أيضا : بلعن ابو الشغل خليك بالبيت يا تقبرني .

نعم منذ تلك الحادثة والموظف ملازم بيته وهو يزوره من حين لاخر ليطمئن عليه . وكل مرة يحكي له الموظف القصة وحين يأتي على ذكر البراد تجحظ عيناه وتتسمران بالحائط وقد نصحه هو باستشارة طبيب نفسي اذ ليس من المعقول أن تستمر حاله هكذا ، فاجابه الموظف الكل مريض هذه الايام ولا أحد ينفع أحدا . ورغم عدم اقتناعه فقد أعجب بالجواب : أول مرة يكون للموظف رأي ما محدد ومتماسك .

كان قد قطع شوطا في سرده حكاية الموظف والمتفجرة حين لاحظ ان الطبيب قد توقف عن التدوين ليصغي اليه مستندا الى كوع على المكتب . وقد خيل اليه في البدء ان هذه طريقة الطبيب في الاعتراض على الكلام وكاد يقطع الحكاية من منتصفها ، لكن الطبيب اشار عليه بأن يتابع ولولا ذلك لما فعل . وأخبر الطبيب انه منذ تلك الحادثة وهو يعمل وحده في السويتش وعاد يكمل قصته ، لكن الطبيب قاطعه قائلا :

ـ والساق ؟ ماذا حل بالساق ؟ هل وجدوا صاحبها ؟

وسأله أيضا :

ـ أين كان الموظف اذن ساعة المتفجرة ؟

واستغرب ان يكون الطبيب فضوليا لهذا الحد لكنه عاد واستدرك . انه انسان قبل كل شيء وكسائر البشر يحب الاستماع الى التفاصيل فليحكها له .

اخبره انه ما كان ليخطر له ابدا ان يحكي للموظف عن صاحبه وعن العم موسى وتلك الأيام الرقيدة . لكن الشوق كان قد فاض به ذاك اليوم واشياء ظهرت على وجهه ، اشياء قوية ومتأصلة حتى ان الموظف نفسه تنبه لها فسأله لم هو ساهم هكذا . وسأله ان كان عاشقا وان كان قلبه قد علق اخيرا بامرأة أو فتاة ، فقال له لا . وكاد يضيف ان المشاعر في الحرب تتعطل ، لكنه تذكر حنان .. والح عليه الموظف بالسؤال ، عندئذ وجد نفسه يحدثه بأيام الجامعة وشلة الاصدقاء ورحلات الصيد في البحر والصيد على صخور الشاطىء في ذلك المكان . ويومها قال له الموظف انه يعرف المكان جيدا . لكنه . ومنذ ان استمع اليه اصبح يرى الأشياء بصورة مختلفة . وفي الليل يرى احلاما لذيذة تذكره ببيروت ايام زمان وبمغامراته هو الاخر في البحر . وحدثه فيما بعد قال انه ليلة المتفجرة

راى نفسه فى المنام مع الشلة هذه شلة العم موسى . غريب راى العم موسى نفسه وشوقى وصديقته آمال ورأى حنان صديقة الجامعة، نعم استغرب كيف يرى أشخاصا لم يعرفهم من قبل . كانوا يصطادون على الصخور وهو معهم يصطاد . ويذكر انه قد سأل حنان عنه . لم لم يأت ؟ فقالت له : مشغول . عنده دوام فى الفندق . وقد تضايق لأن صديقه لم يأت لكنه ما لبث أن انشغل عنه بالصيد والاسماك وبالسباحة . سبح برفقة هؤلاء الناس لكن العم موسى لم يسبح . وقال الموظف ان هذه كانت أعذب فسحة فى حياته .

وفى صباح اليوم التالى أفاق من نومه وعزوبة الحلم مازالت تدغدغ خياله ، لبس ثيابه وحذاءه الجديد وخرج وفى نيته الذهاب الى عمله كالمعتاد . لكنه بدل ان يتجه الى الفندق الفى نفسه متجها فى الطريق المعاكس نزولا الى الشاطىء ، والطقس دافىء والشمس مشرقة . وهكذا أمضى نهاره هناك معتمداً على ان صديقه سيحل مكانه فى السويتش بطبيعة الحال . كان يسبح ويلهو فى الماء حين وقع الانفجار فلم يتنبه لشىء .

ضحك الطبيب لسماعه القصة وقال جملة ذكرته بالصيدلى الأرمنى . It s Realy Veary Funny

ان كان ما جرى للموظف يوم المتفجرة يدعو للعجب ، فان ما جرى له هو ايضا فى اليوم ذاته يدعو لعجب أكبر .

كان مايزال فى سريره حين دوى ذاك الانفجار واهتزت الجدران وهب من رقاده وشاهد الدخان يتصاعد من خلف العمارات . ثم استدعاه المدير لتسلم السويتش . ورغم قلقه على صديقه ، كان عليه ان يعمل .

كان منكبا على الدفاتر يدقق بمحتوياتها حين سمع خشخشة مفاتيح . وامتدت يد انثى تضعها على الطاولة أمامه . يد يعرفها جيداً ، لها علاقة بتلك الأيام ، لها علاقة برفاق الشلة ، لها علاقة بالغناء ، لها علاقة بشوقى . رأى كل هذا بلمح البصر وسمع صوتها ذاته يسأل عن الانفجار . ففر فمه بالدهشة وهو يرفع رأسه نحوها . وانحلت عقدة لسانه وهو يقول :

ـ أهلا آمال . انت هنا ؟

ـ نعم

ـ منذ متى ؟

ـ منذ فترة .

وقبل ان تسأله عن سبب وجوده فى السويتش ألفى نفسه يوضح

ـ انا مثلك نازل فى الفندق . لكنى اعاون موظف الاستقبال . تعرفى ... طريقة فى تمضية الوقت . وسمعها تعلق بالقول : آه فهمت . لكنها لم تزد . وسألها عن سبب نزولها فى الفندق . وفكر : لعل بيت اهلها هو أيضا موصد بعارضات من حديد وباقفال غليظة . وسمعها تقول :

ـ بيت أهلى باعوه .
ـ باعوه ؟
ـ نعم باعوه .
ـ ولم باعوه ؟
ـ لانهم هاجروا . امى وأبى واختى واخى كلهم هاجروا الى كندا .
ـ هم ايضا ؟ ظننتك وحدك هاجرت .
ـ لا بل هاجرنا معا .
ـ أو لم يكن بمقدورهم الاحتفاظ بالبيت ؟
ـ لا . يومها قرروا الهجرة الى غير رجعة . فباعوه .

وفكر ان يخبرها بانه التقى شوقى ، لكنه تردد واكتفى بالسؤال:

ـ هلّ صادفت احدا من اصدقائنا القدامى ؟
ـ لا . فى الحقيقة لم اصادف احدا .
ـ وهلّ وصلتك اخبار احد منهم ؟
ـ لا فى الحقيقة لم اسمع اخبار احد .
ـ أو لم تحاول الاتصال بهم ؟
ـ لم احاول الاتصال باحد ، فانا هنا منذ اسابيع فقط .
ـ فى الفندق ! غريب .
ـ لا . كنت عند عمتى . لكنها تجرى الان فى بيتها بعض الاصلاحات فانتقلت مع ابنتى الى الفندق .
ـ وكم من الوقت ستمكثين هنا .
ـ بضع اسابيع اخرى .
ـ تعودين بعدها الى كندا طبعا .
ـ لا لن أعود الى كندا .
ـ غريب .. اخبرت انكّ قد تزوجت فىّ كندا واستقريت فيها !

ـ صحيح . تزوجت غير أني لم أطق العيش فيها فانفصلت عن زوجي وعدت لأستقر في لبنان ؟

ـ غريب !

ـ نعم ، غريب .

ـ عفوا لا أقصد ، لكن كيف وجدت بيروت ؟

ـ لشد ما تغيرت بيروت ؟

ـ الا تخشين من عدم التآلف فيها ؟

ـ بعد تجربة كندا لم أعد أخشى شيئا .

ـ ألهذه الدرجة كانت التجربة قاسية ؟

ـ نعم لهذه الدرجة .

ـ وأهلك كيف يعيش أهلك هناك ؟

ـ أمي كانت تتصل بي بالهاتف كل يوم لتقول لي : نعمتان مجهولتان : الصحة والأمان . وحين انفصلت عن زوجي كفت عن قولها هذا .

ـ ووالدك ماذا يقول والدك ؟

ـ في البدء كان يقول ، ما أروع ان ينام الانسان فلا تقض مضجعه الصواريخ يخرج فلا تطيح به المتفجرات . لكنه بعد فترة اخذ يضيق بالملل . يشكو من فقدانه الاصحاب البرنامج نفسه كل يوم . يفتح التليفزيون . يتمشى في البيت ، يساعد أمي في المطبخ . حتى أصبح خبيرا بأصول الطبخ . يتصل بأختي في عملها ليقول لها ان التدفئة ممتازة . هذه بلاد لا تقطع فيها الكهرباء وتقول له أختي انهم لا يسمحون لها بإطالة الحديث بالهاتف فيقفل السماعة . ينتظر بعض الوقت ويعود يطلبها ليخبرها ماذا طبخوا اليوم وكيف اكتشف مكانا جديدا يبيعون فيه برغلا وكشكا وماكولات شرقية ولبنانية ويخبرها انه حضر التبولة . وبعد الظهر يتصل بها ليقول لها كم تمنى لو كانت معهم على الغداء . ويتحسر لأنها تأكل نواشف في المكتب . وكل مرة تطمئنه بأنها تذهب الى مطعم قريب مع زملائها . أحيانا يتصل بها ليخبرها أن فاتورة التليفون قد وصلت أو فاتورة الغاز أو الكهرباء ، ويعلمها بالطقس وبالحرارة . وينتظرها هو ووالدتي الى أن تعود من عملها مساء فيقضون أوقاتا مسلية وتحكي لهم دقائق ما جرى في المكتب ويشاهدون برامج التليفزيون . هكذا في الفترة الأولى ورغم العزلة كانت حالة لا بأس . لكن بعد أن تزوجت أختي أصيب بالكئاب . أخي يلومه . يقول له : لا تعرف كيف تسلي نفسك أو تخترع طريقة لتبديد الوقت .

ويسأله والدي عن الطريقه فيجيب اخي . لا اعلم . زوجة اخي كنديه ولا ينقصها النظف لكنها تعمل طوال النهار واخي مرتاح في كل لان عمله ممتاز . والدتي تقول لهما تعالوا اسكنوا معنا لنساعدك في تربية الاولاد ، فتشكرها زوجة اخي وتخجل ان تكشف عن استغرابها كيف ان فكرة مثل هذه تخطر في البال . تقول البيوت في كندا متوفرة فلم يسكن احد مع احد . وتقول انهم اشتروا منزلهم بالتقسيط على مدى عشرين سنة ليسكنوه . تأتي مع اخي مرة او مرتين في الشهر ويحضران الاولاد معهما . تقول لهما امي اتركوا لي الصغار اربيهم بدل ارسالهم الى الحضانة ، فلدى متسع كبير من الوقت . تضحك زوجة اخي وتجيب : وهل يعقل ان يترك الانسان اولاده يربيهم الآخرون ، تقول لها امي : خلال الاسبوع فقط حين تكونون في العمل . يضحك اخي ويقول لها يا ماما الحياة في كندا غير شيء . في الآونة الاخيرة اصيب والدي باكتئاب . غرق داخل نفسه ، اصبح قليل الكلام ، فاقد الشهية ، يجلس قبالة التليفزيون لكنه على الارجح لا يرى شيئا . نسأله عما به فيقول لا شيء . طبيب لبناني اشار علينا باعادته الى لبنان وقد جئت الآن لادبر مسألة البيت . سمعنا هناك ان السكن لم يعد سهلا كالسابق لكن القضية اصبحت على وشك الحل .

حكت له كل هذا لكنها لم تسأله شيئا عن نفسه . ماذا فعل في باريس ولم عاد منها وماذا ينوي ان يفعل الآن ! ولو لم يسبقها الى اجلاء الالتباس حول عمله في السويتش لما سألته لم يفعل . واستوقفته طريقتها في التعبير ! ليس هذا بوح او مكاشفة . بل كلام قيل عرضا بصوت عال ، واللقاء هذا نفسه فيه أعراض ... مضمون الكلام ربما كان لا يحمل اعاضا ، بل ولعل الاعراض في تلك اللامبالاة ، في هذا الحياد ، او في طريقة السرد او في النظرة التي ترى ولا ترى او في حركة الكتف التي تصد باقترابها . ولقاؤهما على اي حال تم مصادفة ... لو لم تقع المتفجرة ويغيب الموظف لما نزل هو الى السويتش صباحا ولما نزلت هي لتستفسر . هكذا مصادفة عرضية اتاحت اللقاء . وسألها ان يتناولا طعام الغداء أو العشاء معا في مطعم فاعتذرت وقالت انها مشغولة هذه الايام وان اهتمامها بابنتها يستغرق كل وقتها . وقال لها : نأخذها معنا فأنا راغب على أي حال بالتعرف بها . شكرته على اهتمامه وابتسمت له ابتسامة لائقة من تلك التي يبتسمها غريب . بغريب في مناسبة عامة .

ورغم هذا فكر بأن يأخذ المبادرة ويسألها مجددا عن نفسها ، يسألها عن الغناء . ماذا عن الغناء ؟

ـ أى غناء ؟ قالت !

ـ اهتمامك بالاغنية العربية وهوايتك فى الغناء ؟

قطبت جبينها ثم قالت :

ـ لم يحدث لى أن غنيت هناك مع ناس سوى مرة واحدة .

ثم ضحكت وأردفت :

ـ ومرارا فى الحمام .

ـ انما بوسعك الآن معاودة الاهتمام .

ـ بأى شىء ؟.

ـ بالاغنية ، بدار الفنون .

قطبت جبينها ثانية وشخصت ببصرها الى زاوية فى السقف كأنها تحاول أن تتذكر . لكنها لم تتذكر .

ـ أى فنون ؟ سألت

ـ دار الفنون التى كنت تنوبن اقامتها للأطفال ، نسيت ؟

قطبت جبينها من جديد لكنها لم تشخص فى الحائط ولم تضيق عيناها . واضح أنها قد تذكرت وقالت :

ـ بالنسبة لحياتى فى بيروت ليس لدى أوهام ..

وتمنى لو يذكرها كيف غنت فى تلك الليلة والعم موسى يعزف على الناى . يوم خشوا أن تعكر أصواتهم صفو اللحظة وكيف وحدها ارتفع صوتها البديع ينشد كما فى معبد . لكنه وجد نفسه يسألها عن شوقى . هل التقت به قبل سفره ، فقالت : لا لم التق به . ودون أن تعلق على حكاية السفر اكتفت بالقول :

ـ لا . لم اصادفه .

وأخبرها أنه من ناحيته التقى به مصادفة فى الطريق . كيف هو سألته :

ـ تغير ؟ قال ، وقالت هى :

ـ فى هذه الحرب ليس غريبا أن يكون الكل قد تغير .

ـ صحيح .

ثم سألها كيف تتصور حياتها المقبلة فى بيروت وماذا بالنسبة لعملها فقالت :

ـ لا اظننى ساعيش فى بيروت .

ـ لعلك تفكرين بالسفر الى بلد آخر ؟

ـ لا . افكر بالعيش فى القرية .
ـ فى القرية !
ـ نعم فى القرية .
ـ وحدك ؟
ـ لا . مع ابنتى .
ـ بصورة نهائية ؟
ـ بصورة نهائية .
ـ لكن أيكون فى وسعك العيش فى القرية بعد ان امضيت طوال حياتك فى المدينة ؟
ـ ولم لا ؟
ـ أوليس من الافضلّ ان تجربى .
جربت مباشرة بعد قدومى من كندا ذهبت اليها وامضيت فيها اسبوعين قررت بعدها العيش هناك بصورة نهائية . استأذنت خالتى اصلاح البيت الذى تملكه فوق والسكن فيه . فرحت وقالت انها مستعدة ان تدفع التكاليف بنفسها اذا قطعت الراى . تقول ان اصلاح البيت ووجودى فيه يشجعها هى ايضا على الذهاب الى القرية بين الحين والحين .
ـ وما الذى دعاك لاتخاذ قرار كهذا ؟
رفعت كتفها . صمتت هنيهة وقالت :
ـ لانى احسست بسلام داخلى افتقدته منذ فترة طويلة .
وتجرأ هو وقالّ :
ـ ربما منذ ايام الجامعة !
ـ بل وقبلّ ذلكّ .
ـ منذ متى اذن ؟
ـ لا اعلم . كنت كلّ يوم حين استيقظ من النوم فى القرية اخرج الى الشرفة . الوديان امامى فسيحة ووراءها الهضاب . السكون فى الصباح يضعنى فى حالّ من الانسجام .. كانى وهذه الوديان والاشجار والهواء شىء واحد . واحس بنفسى هادئة وبطيئة مثل الطبيعة ذاتها . امتدد فى الارجوحة وامضى وقتا هكذا لا افكر بشىء ، بل اتركّ احاسيسى وحدها تنساب وتنتعش . وتستيقظ ابنتى فاحضر الفطور ونتناوله معا على الشرفة . وتشعر الجارة بوقع اقدامى فتغلى القهوة وتصعد الى نحتسيها معا وابنتها تلعب مع ابنتى . عندها اربعة اولاد بنتان وصبيان . حين ادخل منزلهـا

اشعر بالطمانينة . ابنتها الكبرى فى الرابعة عشرة . تاتى الىلاساعدها فى دروسها وكذلك ياتى احيانا اخوتها . بعد الظهر آخذ ابنتىوابنتها وتتنزه فى البرية . مرة فى أحدى نزهاتى اكتشفت مكانا .. يا الهى .. صخرة مستديرة ملساء كانها حجر طاحونة قديم وتحتها يجرى جدول صغير . والصخرة هذه تظللها شجرة . حين يمر الهواء بين اوراق الشجر يا الهى ، تسمع له وشوشة حين يمر . وشوشة تنساب الى الأعماق حتى انى لا اعرف ان كان الشجر هو الذى يوشوش ام شيء آخر . كنت اترك ابنتى وصديقتها تلعبان وأسند راسى الى حافة الصخرة الملساء هذه واغمض عينى . منذ أن اكتشفت ذلك المكان اتخذت القرار بالعيش هناك .

ولا يدرى لم خامره مجددا ذاك الاحساس بان آمال لا تكاشفه بهذا مكاشفة صديق لصديق بل تحكى أشياء حكمتها لغيره بالوتيرة ذاتها . ولا يدرى لم حين صعد الى غرفته بل وبعد ذلك بزمن ظلت تتراءى له كفها وهي تصف الصخرة الملساء وأناملها النحيلة تجسد حركة الضوء وحركة أوراق الشجر حين يمر بها الهواء ويحدث فيها وشوشة . وش .. وش .. وكيف انها تستعذب هذا وتسند راسها الى حافة الصخرة وتنام .

بعد انقطاعه عن العمل شهرا عاد الموظف الى الفندق . دخل باسما وسلم عليه سلام من طال مرضه ثم تعافى . ودخل على المدير ودار على سائر العاملين فى الفندق ثم عاد اليه . وبعد سلام وكلام قال له :

ـ خلص اخذت القرار .

ـ اى قرار ؟

ـ الهجرة الى كندا . استلمت رسالة من خطيبتى فكلمتها بالهاتف واتفقنا . اسافر ونتزوج هناك . عمها فتح سوبر ماركت وقال يمكننى أن اشتغل معه . أمي واخي سيلحقان به حالما استقر وادبر شئونى . امي باعت قطعة ارض فى الجبل ستعطينى ثمنها وربما استعملت المبلغ للمساهمة فى السوبر ماركت أو لشراء بيت .

حين اخبره الموظف بذلك انقبض صدره ، لا يدرى لم انقبض صدره فهو الذى شجعه على السفر . اكثر من مرة شجعه وها هو يتجاوب . وها هو منذ ان قرر السفر يبدو منطلقا . ياتى الىالفندق ويرجع الى البيت مرة أو مرتين فى اليوم . يتنقل دون خوف ويلف

على الدوائر من اجل الاوراق والمعاملات ، يتنقل بحرية كأنه فى اجازة. وسأله مرة كيف سيسافر والمطار مقفل ؟

ـ اسافر بالبحر ، قال الموظف

ويوم السفر صحب الموظف الى جونية لوداعه ومعهما والدته واخيه . والدة الموظف تمسح دموعها تعانق ابنها ثم توصيه بالانتباه على أغراضه حتى لا يضيعوا فى فوضى المراكب والمطارات : بتاخد بالك من قنوسك يا حبيبى وقبل ما تعمل شى بتلفن أو بتكتب او بتبعت تلفراف . واذا كان الشغل مامن اشترى بيت النا والك ولعروستك نشالله بتتهنا يا حبيبى . وسلم عليها كتير وخليها تدير بالها عليك وانتبه عاثيابك الجدد وعلى جاكيتك اللى بطانتها فرو ما بتستغنيش عنها بالبرد . وسلم على أهل العروس وقلهن كنت رح أبعتلهن بقلاوة اكتر بس علشان الوزن ماقدرت ونشاءالله بكرة لما بلحقك أنا وخيك باخدلن كل شى .

كانت أمه تقول هذا والشاب يمسح دموعه ثم يعود وينسى حزنه ويتحدث عن رحلته وعن كندا وعن خطيبته ووالدتها وعمها . وقال لأمه انه يفضل المساهمة بالسوبر ماركت على تجميد الفلوس فى بيت وتساءل ان كانت خطيبته ستلاقيه على المطار . طبعا يا حبيبى رح بتلاقيك عالمطار . قديش صارلها ناظرتك . الله يهنيها ياعمرى أخدت شب قد الدنيا ، شب بيسوا مملكة . الله يهنيها .

وبعد انتظار بدأ الركاب بالصعود الى السفينة وبدأ الموظف بالوداع . بكى الموظف كثيرا حين ودع أمه . بكى كالأطفال وبكى أيضا حين ودع اخاه لكنه حين ودعه هو لم يبك . سلم عليه بحرارة وامتنان لكنه لم يبك . وقد تمنى لو انه بكى كما فعل حين ودع امه واخاه . ولما صعد الموظف الى المركب وجلس مكانه لوح لهما بيده . ثم لوح بيديه الاثنتين ولما تحرك المركب متأهبا للرحيل اوح لهما بذراعيه الاثنتين. وكان هناك ركاب كثيرون يلوحون بالأيدى والأذرع لمودعيهم على المرفأ.

فى طريق العودة لم يكن يصغى لكلام المرأة . يعرف أنها تكلمت كثيرا وحكت حكايات واستعادت قصة المتفجرة والحذاء لكنه لم يكن يصغى لشىء . كان منقبض الصدر وهو نفسه قد تساءل لم شق عليه لهذه الدرجة فراق الموظف ! وحين صعد الى غرفته جثى على سريره وبكى . من اعماقه . بكى . وتذكر الشاب الى باعه المجوهرات.

انه الآن وهو جاثٍ على حافة السرير يبكي يشبه ذاك الذى جثى على كيس المجوهرات وبكى . ولقد ظلمه دون شك حين تخيله منفيا الى صقيع سيبيريا يودع حبيبته قبيل الرحيل . فهو على الأرجح ، بعد بيعه المجوهرات قد استولى عليه ذاك الاحساس بأن مبرر حياته قد انتهى . ان كانت خسارة الرجل المجوهرات أفقدته مبرر حيـــاته فسفر المؤلف أوقعه هو فى دائرة من الفراغ يشعر فيها بأن بيروت قد أصبحت موحشة وأكثر فأكثر غير آهلة بالناس .

الجزء الثالث

(١٩)

يحلو لك فى أواخر حزيران ، الشهر السادس من السنة . حين يكون كل شيء هادئا ، الطبيعة استراحت فى فورانها واكتملت عمليات التفتح والبراعم أزهرت والطير خرج من مخبأه فرحا فقد بلغ النجاة من هول الصقيع ونبت لصغاره أجنحة كالعشب ينبت فى الارض ..

يطولك فى اوائل هذا الشهر أن تخرج وتتنزه . تسير على الشاطىء وتتامل . كيف يمكن لعناصر الطبيعة أن تبلغ هذا المدى من التفتح ! السماء زرقاء زرقاء والبحر أزرق أزرق . وتنظر الى الاعلى وتتلفت حولك فترتعش فى فؤادك أشياء تحاول أن تجد لها مرادفات فلم تفلح . كذلك عبثا تبحث للسماء فى مخيلتك عن كنية أو تشبيه فلا يسعك الا أن تسميها باسمها فتقول ان السماء زرقاء . وهذا الخط الرائع الذى يسمونه الأفق والذى تلحظه عادة فى تأملك صفحة البحر لا ترى له أثرا اليوم . وتدرك أنه حين يبلغ الصفاء مداه الكلى لا يعود فى مقدورك تمييز الفواصل . هكذا يحدث الاندماج . وتتعجب كيف أن اللانهائى ، الذى أمضيت حياتك تظنه مستحيلا من مستحيلات الدنيا ، هو الآن عالمك المحسوس . وتخشى على نفسك فراق الانسجام الضوئى ... ورغم هذا يسبقك النظر الى الفلاء حولك فتراها قد امتلأت بشقائق النعمان وزهر الأقحوان ، أقمارا ضاحكة تركع على كوكب أخضر . ولولا هذه البيوت وتلك العمارات لخيل اليك أنك أنت الأمير الصغير وان هذا كوكبك .

ثم تعود وتستغرب دهشتك جمالا طالت الفتك له . ففى ربيع مثل هذا وعلى مدى سنين الطفولة والصغر كنت أنت وأترابك ترعون فى بهجة مثل هذه . هكذا ودون سابق اتفاق تخرجون من البيوت لتنتشروا فى ملاعب الطبيعة . وتلك الفسحة البديعة التى تفصل منزلكم عن البحر تتوزع حينئذ بين موج أخضر ورمال ملساء وتتحول الى ساحة عيد تقيمون فيها مهرجانا . لم ينظمه أحد . اذ يحدث أن تبادر فتاة جريئة الى الخروج تتحلق بها أخريات بفساتين زاهية كالفراشات وضفائر عقدت فيها شرائط ملونة . هكذا يبدأن اللهو . مجموعة هنا ومجموعات هناك يقفون على الحبل ، لعبتهن المفضلة .

ربما لانها تجعلهن أكثر فأكثر اشبه بالفراشات . والهنيات لزاوو ايقاع العفز ينشدنها عاما بعد عام . أرجوزات أسلمتهن اياها صبيات أصبحن الآن صبايا او امهات أو جدات ، أو فتيات كبرن قبــل الأوان وقبل ان يصيبهن ملل اللهو فى هذا المكان . وإذ تبدأ اللعبة تصدح الحناجر بالاغنيات وتخفق الالوان وتضرب الاقدام الصغيرة الارض ضربا ناعما وشيقا ويعلو الحبل فوق الرءوس ويدب الحماس فى افئدة المتفرجات فينزعن التهيب من قلوبهن ويدخلهن الحلبة بدورهن منشدات ، اللعبة الموسيقية نفسها والارجوزات تلك المنقوشــة فى ذاكرة كل طفلة فى البلدة وكل شابة وكل عجوز . يكفى أن تشرع الصغيرات باللهو حتى تخرج هؤلاء الى الشرفات او تطل من النوافذ مبتهجات باستعادة الذكرى ، فتغدو البلدة حينئذ مثل جنائن معلقة شاخصة الابصار .

أو يحدث فى الموسم ذاته ان يخرج صبى الى المرتع حاملا طائرة من ورق ملون . طائرات الورق الملون : لعبة ليســت كالالعاب بل كفنون الخــوارق ! تحليقهــا مازال يدغــدغ الخيــال منذ الربيع الغائب . كيف تصمد تشكيلات شفافة مثل هذه فى كبد السماء ! تجالونها متدلية منها بخيوط من نور . حين يرخى الصبية طرف الخيط وتبدأ عملية الطيران ، ترتعش القلوب وتعلو الأبصار ، وتتساءلون ان كانت التجربة ستنجح والاجنحة سترفرف والزعانف ستنساب ويتمايل الذيل تمايل الاسماك فى الماء وتنبعث من جديد تلك الخشخشة العذبة . وتتساءلون ان كانت طائرة الورق هــذه ستستقر على طبقة من طبقات الأثير وسترنو اليكم من فوق . مثل وجه الشمس الصبوح .

وقد يأخذكم الشوق الى الفلوات القريبة والبعيــدة فتطلقون السيقان للريح . ها هى الرمال الذهبية ، سهولا وكثبانا تغــرى القلب . لقد طال الفراق لها أشهر الشتاء ، وما هى كما عرفتموها نظيفة حرة ومتماوجة . أقدام الريح وهبات النسيم لامســتها فى ذهابها وغدوها بين البحر والبحر فى شبه الجزيرة الآهلة تلك . وحولتها الى ثنيات رقيقة كالدانتيل . الثنية تلو الثنية . رقيقــة ومتعرجة . لا يلخبط هندستها شىء . وإذا طالعكم اثر لاقدام ثعلب او ابن آوى ضل الطريق ، توقفتم عن العدو ورحتم تتأملون تلك الاثار المنقوشة نقش الزخارف .

الرمال الممتدة هذه تحكي حكايات تأخذكم الى مدن قائمة تحت الكثبان . صبعت طبقات ... مدينة فوق مدينة تتحدثون بها ويتحدث بها الناس . يسكنها امراء واميرات وحاشيه بلاط وكنوز . تيجان ولآلىء ومرجان وأساور وحلى من ذهب لو تبشتم الرمال لاكتشفتم ما يأخذ الألباب ! وتحلمون انكم ذات يوم ستفعلون هذا . كل منكم سيصبح بالتأكد أميرا عليها . ثم يأخذكم النسيان فتندفعون الى الشاطىء البعيد تلملمون الاصداف وتتأملون الوانها البراقة . في راس كل صدفة ثقب . والفتيات يصنعن منها عقودا وأساور . وانت تعطيها لاختك جاجا فتلمع عيناها اذ يسعدها ان تزين بها اسوة بأترابها .

في مهرجان القرح الملون تدرك معنى ان يكون الارجوان قد ابتكر في هذا المكان . فلم تستغرب اليوم بهجة الفتها ؟ فانت وأترابك واختك جاجا مع الفتيات كنتم في ربيع كل عام ترتعون في جمال مثل هذا ، لا تعيرونه انتباها ظنا منكم لبراءتكم ، انه بمتناول الكف كائن في كل زمان ومكان . وحين تطالعك الآن العاب الأطفال المقننة في شاشة التليفزيون تدرك فداحة الخلل الذي آل اليه العصر ، وياخذك الاشفاق اذ يتاكد لك ان عصر التآلف مع الطبيعة في طريق الزوال . اي خلل يلحق بالعالم حين تتم القطيعة بين الانسان وبين محيطه المألوف !

نعم يزداد احساسك بالخسارة حين تدفق الذكريات من عالمك الطفولي . هاهي الفتيات شابكات اكفهن بعضها ببعض في دائرة رحبة ذات الوان ، دائرة تتسع بالقادمات اليها ، حتى ليخيل اليك انها ستصبح وسع الحدائق ، وسع كثبان الرمال ، وسع البيوت بل وستصبح وسع المدينة كلها والبساتين ، وتحدثك نفسك بالكرة الارضية فتكتمل الصورة في ذهنك وتتمنى لو ان مهرجانا مثل هذا قد منى بحظ التسجيل بالتصوير . لو حباه الله بفنانين مرهفين مثل اولئك الانطباعيين الذين عرفوا بهجة اللون . فلوحة كهذه جديرة بأن تخلد في ذاكرة الاحياء . ثم تفطن الى أن لا فائدة من التسجيل مالم يبد الرجوع الى عالم مثل هذا ممكنا مثل رجوعه اليه اليوم والدنيا جنة زرقاء وأرض خضراء تسير انت فيها ببساطة ووئام .

لكن ... في الصفاء الخالص هذا تساورك خشية ان توقع بالكون خللا ... امور هي بحد ذاتها بسيطة وعادية انما تشعرك بمحاذرة الظل . فيصبح هندامك أو ملابسك او حتى لحيتك ونظاراتك ، كلها تصبح اشياء زائدة تخشى ان تعكر صفاء الكون بغبارها او بغبار علق بحذائك . هكذا وبتلقائية الطير حين ينفض

ريشة تنزعها عنك ملابسك وتنزل فى الماء . وحدك الآن مستمتع بهذا الجمال ورغم هذا فانك لا تشعر بالوحدة . اذ يستقر فى فؤادك ذاك اليقين الذى طال سعيك اليه بأن كل مخلوق على هذه الارض له الآن حق الاستمتاع بهذا الجمال .

هكذا نزعت ملابسك ونزلت تعوم فى الماء ناسيا نفسك زمنا لا تعرف مداه . رغم هذا تعاودك موازنة الاحتمالات خشية أن تكون ولا مفر قد أوقعت خللا ما بالطبيعة من غبار علق بشعر راسك . خلل مثل هذا اشبه بمن ينصب فى قبة السماء البهيجة جسرا يقطر صدءا يصل الأفق بالأفق ! . وتستمر فى العوم لا يطاوعك قلبك على الخروج من الماء فالخارج منها الآن مثل خارج طوعا من الجنة . لكنك ما تلبث أن تتذكر ... مثلك لا يحق له الاستمتاع بهذا الجمال . فقط يحق له ذلك من بلغت نفسه الصفاء وانت لم تبلغ هذا . اذا لست بطائر لكتفى بنزع الريش عن الجسد . نعم انك قد تفاءلت وتهربت ونفسك لن تعرف الصفاء ما لم تستسلم صك البراءة وتقطع الشك باليقين وتذهب للبحث عنها . أين هى الآن ؟ من راح الى القرية قال انها لا تصل وقال من بقى فى العمارة انها ليست هناك . وانت تعرف انها لا تمرح الآن مع رفيقاتها فى ارجوحات العيد . فحنان على أى حال قد كبرت وأسلمت الدور لفتيات يصغرنها امثال فريال . التى امتنع عليها اللعب قبل الشروع به وقبعت فى ملاجىء الحرب مكتفية باراجيح الأحلام أو بعرش امارة كالذى جلست عليه لفريد .

نعم ، لن تعرف نفسك البراءة ... واذا ما تقاعست فى البحث عنها تكون قد حكمت على نفسك بالخروج من جنة الانسجام النير هذا . لا ليست المسألة على هذا النحو الحسابى . فوجودك فى جنة الانسجام هذا يدفعك بلا هوادة للعثور عليها والاتيان بها اليك . تلك مسئولية تطال حد العذابات . أن تتغافل عما جرى لها مثل حارس يدع طفلا يدخل حلبة تتصارع فيها النمور . أنت فعلت هذا . والحقيقة ضاعت بين مدينة دمرت وقرية ليس من المؤكد انها قد استعادت أبناءها . وانت تسوف وتتذرع بحجج المرض والهواجس وتستسلم للسوداوية كأن ليس غيرك قد عاش الاهوال أم قد تخيل اليك أن آلام هؤلاء الناس هى اقل شأنا من الملك . وتتبدى لك سخافة احكامك حين عانقتك ذاك العناق ... كان عليك أن تشعر بتحسسها

عذاب الفقدان فلا تماطل والايام تمضي والوقت يهدر . وهل أتمن من الوقت في زمن تقع فيه المآسي بلمح البصر ؟ وتتمثل بالحجج . فيما مضى كنت تحتمي بالامين . ولما كبرت واضحيت مستقلا. اوهكذا خيل اليك، اصبحت تحتمي بالبطاش . ارتضيت لنفسك هذاوجعلته ظلك الذي يتعقب خطاك للانتقام . أو ليس ظل يسكنك على هذا النحو هو افظع انتقام ! الكبرياء الذي يبله حد الغباء أودى بك الى هذا . تدور حول البطاش كأنكما في مسلسل بوليسي وليس في عالم مليء بأمثاله وأمثالك . هكذا تقوقعت في مخاوفك حتى انك لم تعد انت انت . ولكأنك شخص آخر رحت تتنقل من مكان مجهول الىآخر مجهول وارتضيت لنفسك الاقبية المظلمة والوقت يهدر وليس غيرك يمكنه مساعدة ضعفاء امثال حنان واهلها فمعارفك رغم كل شيءوعبر والدك او خالك او حتى الأمين كثيرة . لكنك آثرت التسويف . وبدل أن تضع الكلمة في موقع الفصل وضعتها في مكان آخر ورحت تكتب مرة رواية ومرة قصة أو قصيدة منشغلا بتسجيل الحدث بدل الانشغال بالحدث نفسه . وجلي انك بالكتابة انما تنشد ابتعادا . فالحقيقة ان حنان وامها وكذلك اخاها لم يصلوا الى القرية كما لم يصل الى مواطن الامان آلاف الناس الذين اجبروا على الانتقال من مكان الى مكان . لمن تركت هذه الصغيرة تحس قبل الأوان بان الحياة موحشة ، وانها ان تنسمت أملا فانما تتنسمه بوجود أحياء لها امثالك وأمثال اخيها . هذه المخلوقة كلها حياة لكنها لم تعرف لغة الجسد . اللغة كامنة في الأعماق تواقة للتعبير وكان في مقدورك ان تكون انت المبدع . لكنك تمنعت متذرعا بالامانة الا تذكر هذا ؟

حين اشتد الخطر ونصحوكم بمغادرة المبنى جاءت تنبئك بالقرار وجلست على حافة الكنبة وتكومت على نفسها ثم قمرت وجهها بكفيها وبكت . ولما نظرت اليك لم تتوسل . وجهها هو الذي توسل. حين دخلت كانت تمازحك كعادتها وتضحك . وما هي سوى لحظات حتى ارتد ذاك الوجه . كيف يمكن لوجه طفل مثل وجهها أن يريد ؟ ولما اقتربت وعانقتك وقفت أنت كالتمثال تحتمل الفجيعة ولا تقول شيئا . فقط تفكر انك أسير الامانة ، لكن ماذا يعني أن تحفظ أمانة الأخ والام ؟ أو ليس حبها لك ، في هذا التشكيل المأساوي، هو الأمانة ؟

وحين طالعتك صورة اخيها مع مجموعة الشبان على الجدران.. انت تعرف معنى أن يطالعك على الجدار ملصق يحمل صورة ...

ازددت غوصا في عالمك الداخلي ورحت تساوي بين الخيال والواقع. تقارب هذا وتبتعد عن ذاك مبتدعا لنفسك ايضا على الجدار علامة. صورة لتمعن بتكذيب ما رات عيناك . ان كانت صورتك باطلا فصورته بطلان ايضا . وازددت انغماسا في التدوين . تكتب مرة بالازرق ومرة بالاحمر ظنا منك انه هكذا توضع الفواصل . هكذا تميز الواقع عن المتخيل والحرب عن السلم والماضي عن الحاضر والغزو الاسرائيلي عن الحرب الأهلية . أو هكذا تضع الحد النهائي بينك وبين البطاش . ومادار في خلدك أن لا فائدة من التفصيل وأن امورا مثل هذه تنتمي كلها الى جوهر واحد . فالمغبة في التجزئة. وانت جزأت نفسك وأسلمت شيئا منها للبطاش . ما انت سوى البطاش عاش عيشة مغايرة .

وحين خطر لك . في ما بعد ، أن تكسر جدار الخوف وتذهب لزيارة من بقي في تلك العمارة ، رأيت أحباءك أولئك يعيشون بين انقاض ... عاجزين عن اصلاح ما تخرب . يضعون الواح الكرتون وأوراق النايلون مكان الزجاج . رفعوا ما رفعوا من حجارة تهدمت لكنهم ابقوا على تلك الكبيرة منها يستعملونها طاولات ومقاعد . وأم سمير ، قالوا ، منذ أن دمرت الطوابق العليا تسكن في بيت ابي سليمان. وطالعتك ظلمة لم تعهدها في هذا المكان . احباؤك هؤلاء يجلسون في الزوايا القاتمة . تحييهم ، تبتسم لهم ، فينظرون اليك بلطفهم المعهود ، لا تصدر عنهم ردة الفعل التلقائية التي تطمئنك بأن صورتك قد اتضحت في أذهانهم . أو بانهم وضعوك في الاطار الذي عرفوك فيه . بينهم وبينك حاجز لا تعرف مداه . كأنك من اهل الكهف خرجت عليهم بعد اغفاءة دهر . يحدقون بك فيخيل اليك انهم عرفوك وحين يمعنون التحديق يتأكد لك أنهم يفتشون في أعماق ذاكرتهم عن المناسبة التي التقوك بها . وبخجلك تذكيرهم بخطوبة تغريد . فتسالهم متى حصل كل هذا ! فيعاودون النظر اليك بعيون ذابلة كأنهم في مستشفى عجزة . ويجيبونك بصوت واحد : ابان المعارك . يقولون هذا ليركنوا الى صمتهم من جديد . ومن جديد يلقون عليك عيونا ذابلة تنبىء بأنهم في مستشفى عجزة . ما انت سوى عابر سبيل مر في حياتهم ومضى . واحد من الاستثناءات الشاذة التي عاشوها والتي لكثرتها باتوا لا يتذكرون تفاصيلها . وتلاحظ ان الصغيرة فرنال لم تكبر كما يمكن لمثيلاتها ان يكبرن ، بل ظلت صغيرة وشاحبة . وحين طافت بك عيونها الشاحبة ظننتها ستقسم برحمة أخيها عباس. وتمنيت لو تقسم برحمة اخيها عباس . لعلها تتذكر انها قد

فعلت هذا سابقا بحضورك . لكنها لا تقسم . فعباس نفسه اصبح نسيا منسيا فى دهاليز ذاكرتها المثقلة بالعذابات .

وتلتفت حولك فلا تجد أبا سليمان . لعله قد اذعن وسافر . وتسألهم عنه فيجيبونك بتلك النظرة التى تنبىء بالهلاك ، فلا تجرؤ على المزيد . ولما استجمعت شجاعتك وسألتهم عن صديقك ، اخيرا اجابوك بالنظرة ذاتها التى تنذر وبالهلاك ، عندما طالعتك مجددا صورته المعلقة على الجدران فصدقت وتذكرت ...

اخبرك انه ذات يوم عاد الى البيت ، فاستقبله اخوته بالبهجة ذاتها التى يستقبلونه بها كلما عاد . قفز الصغار الى ذراعيه وأمه جاءت تقبله واخته حنان ... وكان هو مبتهجا بلقياهم يضاحكهم كما اعتاد . جلسوا الى المائدة وغناء فيروز بصوتها الرهيف ينبعث من احدى الاذاعات . وذكر لك ان اخاه الصغير كان قد شرع يحكى عن المدرسة والجيران وان امه اخبرته عن احساسها بقدومه ، وقد سألتها حنان فى الصباح لم تحضر طبق القمحية فاجابتها بأن قلبها يحدثها بقدومه فاليوم قد اتم الثامنة عشرة .

واخوه الصغير كان يتابع حكايته . يقول ان المدرسة مبسوطة منه لانه رغم تغيبه اسمعها نشيد الوقواق كله صح . وسأله عن الوقواق . ما هو الوقواق ؟ وبذكر انه لم يرد عليه . ظل الوقواق يرفرف فى ذهنه هنيهة والكلمة ذاتها ترتسم أمامه . كلمة تشكلت من حرفين . و . ق . و . ق . والالف ويده فى تلك اللحظة توقفت على حافة الصحن . واخوته كانوا منشغلين بالاكل فلم يلاحظوا شيئا . لكن أمه لاحظت فسألته عما به وكررت السؤال . وقد سمعها بالتأكيد وهى تلح بالسؤال لكنه لم يجب . بل سمع نفسه ذاتها تسأله ماذا يعنى ان يكون مقاتلا ؟ ماذا يعنى ان يطلق الرصاص فى مكان آخر تساله ان كان قد اصاب احدا يعرفه أو لا يعرفه تساله ان كان لهذا المجهول اخوة مثل اخوته او كان له أم وأب ؟ أو لعله لم يصب احدا على الاطلاق ؟ أيكون قاتلا دون أن يدرى ؟ ليته يعرف الحقيقة . لو عرف الحقيقة لاتيحت له على الأقل تلك الفرصة العظيمة : طلب العقاب أو الغفران . وتأكد له ساعتها ان غموضا قاهرا مثل هذا يلازمه مدى الحياة هو أفظع عقاب . وسمع أمه تساله عما به واخوه يسمعه نشيد الوقواق وبذكر انه سحب كفه عن الصحن ودخل الى غرفة فى البيت واتكأ على نفسه. أيام طويلة بل شهور مرت وهو يحاول الاجابة على التساؤلات ، حتى

كاد زمام التوازن يفلت منه . وحين توصل الى الـ [illegible] انه سيمضي ما تبقى له من عمر فى التصدى للحروب مال خاطره الـ [illegible] هكذا اختار سبيلا آخر وقرر العمل فى الدفاع المدنى . يساعد ضحايا الحرب : ينقذ من يمكنه انقاذه حتى وان عرض نفسه للخطر .

حين اجابك سكان العمارة بتلك النظرة ادركت أن هذا مدعاة الم عظيم لا يجد مرادفا آخر يعبر فيه عن ذاته . هل سيكون فى وسعك التعبير عنه بالكتابة ؟ الم تعاهد النفس على ان تهدى روايتك الى احبائك الذين لم تقتلهم الحرب ؟ ها قد جرت الامور بعكس النوايا والصقت صوره على جدران المدينة . عينان واسعتان شفافتان تتركان لك حرية قراءة الاعماق وتمنحانك الثقة بعمر مديد ومستقبل رغيد وسلام ، وعدل يقام لشعوب تنمو وتزدهر وتعمر الارض . هل سيكون فى وسعك التحدث بموته ؟ ان تجرات وفعلت تكون قد نكثت بالعهد ، لكنك ان اغفلت تكون قد أخليت بالوفاء . لا لن يكون فى وسعك قبول مقتله لا فى الواقع ولا فى المتخيل . وعلى اى حال فان مساحة كهذه او تلك لا تتسع لبراءته . ها هو الفصل الاخير من روايتك ينتظر خاتمته . كلما قاربته لبسك الذعر . الهذا الحد يزعزع موته فى أعماقك اتساق الأمور ؟ اكثر ما يخيفك أن تحدثت بموته أن الضوء الذى تريده ان ينير عالمك يكون قد انطفا . لك الحق فى ان يزعزك اغراق عالم باكمله فى ظلام دامس وها هو المصباح قد انطفا . لكن الحب يعود وياخذك . وياخذك الوفاء فتنزع عنك التخاذل وتكتب وانت على حافة الهذيان . اذ يتضح لك بما لا يقبل الجدل أن الحب يدعوك للبوح والاعتراف بانه لا معنى لشيء ، بل لا وجود

صديقته جاءت الى الفندق . صغيرة وحيية . سالتك عنه . اربك خجلها فلم تستفسرها كيف اهتدت اليك . لاشك ، هذه هى الفتاة التى أخبرتك حنان انه يتكتم فى حبها . وبادرت الى الافصاح بانه لطالما حدثها عنك . انما الآن جزعة فقد سمعت حكايات وليس فى وسعها الذهاب اليه . وكررت الفتاة قولها انها منشغلة البال . واودعتك رسالة ورجاءفى البحث عنه فوعدتها خيرا . وصديقتهلم تعاود الاتصال ايقنت أن خبر المأساة قد بلغها هى ايضا . لكن الرسالة مازالت بحوزتك . ماذا ستفعل بالرسالة الآن ؟ لمن تكون الرسالة هذه الآن ؟ بالطبع ليس من حقك أن تفتحها ، كذلك لا يطاوعك قلبك على رميها . هل ستحتفظ بها مقفلة الى ابد الدهر ؟ لعل صديقته تعود وتسترجعها فترتاح . لكنها لم تعد . رسالة الفقدان هذهتراوح

بين مرسل مجهول ومرسل اليه مفقود وانت الواسطة . امضيت حياتك مكتفيا بالوساطة وانتظار الآتي . هكذا لم توثق علاقتك به ولم تكثف اللقاءات . ظننا منك انك ستفعل هذا حين يرسو مركبك في مكانه الملائم . ما اكثر الفرص الخاسرة بانتظار الملائم . وحين عدلت عن اخبار الرجل في حديقة الصنائع قصتك مع أهل العمارة خشية ان تسلبه حقه في اليقين المأساوي اضعت انت حقك في اليقين المأساوي . فقد غاب عنك انك في هذه الحرب قد خسرت اكثر من مرة أحباء وعوالم دافئة وآهلة بالناس . هكذا تفرق الأصدقاء ، شلة العم مرسي ، وغادرت أحباءك في باريس ، وانقطعت صلتك بأهل العمارة وفقدت ابا سليمان والصيدلي الأرمني . وها هي خساراتك تتوج بما يطفىء النور في عالمك ويغرقه في ظلام دامس . أو ليس في البحث عن الحبيبة المفقودة تعويضات لمجموعة الخسارات هاهي أزهار الاقحوان تطل عليك ، اقمارا ضاحكة ، شقائق النعمان تتراءى بابتسامتها الرحبة . وحنان ليست في عداد اللاهيات باراجيح العيد ولا هي في عداد اللواتها ينشدن ارجوزات الربيع . والانسجام النير هذا يحدو بك للبحث عنها . نعم . فهذه، منذ الآن وعلى مدى العمر ، مهمتك .

هكذا وجدت نفسك تنسحب من الماء وتترك جسمك يجف بأشعة الشمس والهواء . ارتديت ثيابك صعدت الى الطريق العام واستلقيت سيارة طلبت من سائقها ان يذهب بك الى الجنوب ففعل .

كلما ابتعدتم عن المدينة خفت حركة السير والناس حتى بدت الطريق خالية أو تكاد . وطالعك فراغ . السائق يزيد من سرعته السيارة فيزداد الفراغ الى ان أصبحت الدرب مقفرة تماما . ماعهدت هذه الدرب مقفرة هكذا ! كيف تقفر درب تصل العاصمة بمدن وبلدان وقرى ؟ السائق يبدو واجما وجوم من ينتظر حدثا خطيرا . وصمت الأشجار على هذا الجانب من الطريق أو ذاك ينذر بالخطر أيضا . الاشجار صامتة وقديمة كأنها ، رغم خضرتها ، قائمة هنا من عهد نوح . والاسفلت يلمع تحت أشعة الشمس لمعان سراب . هل هذه واحة ؟ هل انتما في صحراء ام في جيب هوائي لن تلبثا ان تخرجا منه الى العالم الآهل ؟ وهذا الانسجام الذي عشته للحظات خلت ، ارتسم على التو علامة استفهام . اين هم الناس ياترى أين هم ؟ ليس سوى انت والسائق وعناصر الطبيعة وطريق اسفلتي يحدق بك ، يعكس اشعاعا رمادية تزيغ البصر . والبحر

الى يمينك ساكن كانه فى سجود . يغيب بعض الوقت خلف بساتين الليمون ثم يظهر من جديد فى تداخل رتيب . ليس سوى الصمت والانسحاب . ولا نسمة هواء واحده تنبىء بحركة . وخيل اليك انك ستعيد النظر باحساسك بالصفاء . فراغ مثل هذا يوقع بالوجل. مثل جنة خلت من الناس . وسالت السائق ان كنتم فى واحة فأجابك لا ، لسنا فى واحة . لكن الاحوال ليست على مايرام . وحين استفسرته عن مغزى كلامه أجابك بانهم ينتظرون غزو اسرائيليا لم يشهد له مثيلا من قبل . عدت تستفسر ، فاكتفى بهز راسه وبالقول : نعم لم يشهد له الناس مثيلا من قبل .

البارحة مساء خرجت الى الكورنيش وحانت منك التفاتة الى السماء فوجدتها صافية ومرصعة بالنجوم ولم تفكر بالوحشة بل تذكرت انك منذ أمد طويل لم تستمتع بدفء الليل يمر بك . قطيعة على غفلة منك وقعت بينك وبين ألفة الليل . منذ متى فقدت الصلة بالعناصر الليلية الرحيمة ؟ ربما منذ طفولتك . حين كنت تخرج مع ذويك فى السهرة يأخذونك معهم الى الأقارب والأصحاب . وتعبرون على الاقدام تلال الرمل الباردة الندية . كان يلفتك أن والدك فى امسيات مثل هذه يمسك بيدك وجاجا تمسك بيد امها . وكنت تتمنى لو تطول النزهة ويطول سيركم على الرمال الباردة ووالدك ممسك بيدك . وتروح تراقب ظلالكم تتحرك على الارض . لا تدرى لم كنت تحاذر دوس الظلال ، ظلك وظلال الاخرين . الهواء فى أمسيات مثل هذه يكون نديا منعشا وكنت تحب هذا وتحب التغير الذى يطرا على سلوك والدك . يبطىء السير فترفع راسك وتنظر اليه فتراه حينئذ رافعا هو ايضا راسه ، شاخصا فى السماء يتامل الابراج . ويشير الى مجموعة منها ويقول موجها كلامه لك : هذا هو الدب الاكبر . وهذا الأصغر . يحدثك بالمذنبات وعن قطب الشمالى الذى يقال ان ملوك المجوس قد اهتدوا به . فتستغرب اهتمامه بكل هذا . ولما وطأ غاغارين سطح القمر ، سمعته يقول ان الانسان ، مهما تقدم فى العلم ، لن يتمكن من الوقوف على اسرار الكون العظيم . كلام مثل هذا منه يبدو غريبا عليك فوالدك قلما اهتم بمسائل غيبية او ابدى ميلا خاصا بالفلسفة او بالروحانيات . ورغم هذا فانه علق على الرحلات الفضائية بالقول ، انهم ينشغلون بغزو الفضاء ولم يحلوا مشاكل الارض بعد . ويلفتك انه بثقة العارف يبدى آراءه تلك ! من موقع قوة يبديها . كانه معنى بها مباشرة . وحين تقدمتم لامتحان

مادة الفلسفة الاجنبية فى الشهادة الثانوية وجيء اليكم بالموضوع القائل ، اعطنى ثمن صاروخ اشفى به مرضى السرطان ، واستصعب رفاقك الفكرة ، رحت انت تكتب بحرية ويسر اذ وجدت عناصر الفكرة وتفاصيلها ماثلة فى نزهاتكم المسائية تلك .

ولما كبرت اصبحت تناقش والدك من موقع الند . كنت تستغرب كيف يكون فى آن ، شديد القرب منك شديد البعد . وقد تسنى لك بلورة اختلافك عنه مصادفة اثر حادثة تذكرها ... حين رحت اليه تعرض عليه ما حصل ، لم يكن فى نيتك بالطبع ان تشكو الامين ، بل اردت ان تعرض عليه تفاصيل خلاف جرى بينه وبين احد العاملين فى المزرعة اظهر فيه الامين شيئا من قلة الأصناف . ولا تنسى كيف ان والدك بعد الاصغاء نظر اليك تلك النظرة ! كان استغرابه شكواك اشد من استغرابك انت سلوك الامين يومها لخص لك اختلافكما بقوله ان ما يهمه فى المسالة ، وحرصه على حقوق الشغيلة ؛ ليس معرفة اين ضاع الحق ، بل هيبة الأمين فى نظر الشغيلة هو المهم . وخلصت يومها الى أن مايشغل والدك ليس العدل بل الجاه. كنت فى السادسة عشرة من عمرك ويومها احسست انك وحيد وحزين . وايقنت انك مختلف . وكان هذا عزاؤك . تلك الليلة وقبل أن تنام اقسمت انه ان كان عليك أن تقضى حياتك فى البحث عن الحق الضائع فستفعل .

البارحة مساء ، حين نزلت الى الكورنيش لم يلفتك أنه مقفر . مررت بالطاولات والكراسى التى يضعها على الرصيف أصحاب المقاهى السيارة ، بائعو القهوة والمرطبات . جلست الى واحدة منها وطلبت قهوة وطافت برأسك افكار وأنت تتأمل ابراج السماء . وراودتك تلك الرغبة التى كانت تراودك وانت طفل ، أن تلامس بأناملك صفحة القمر وتلامس النجوم .

هكذا انصرفت عن ملاحظة الفراغ الى قراءة التشكيلات النيرة وسمعت نفسك تقول : هذه ابجدية السماء تنتظر قارئها الابوى .

الطريق الآن تلمع أمامك لمعانا يزيغ البصر . واشعة الشمس تتكسر على حواف السيارة . السائق يحدق بها جزعا ، يزيح عنها بصره ثم يعاود التحديق . وطيف الاشجار المصطفة على الجانبين يزيد من هيبة الفراغ . ليس من ابن آدم واحد ولا عابر سبيل . اشجار الكازورينا تلقى فروعا متعبة على الأسوار . واشجار السرو مازالت على عهدها شاهقة داكنة . ورغم هذا لا تمنحك الاحساس بالقوة . بل تبدو

شاخصة كبرج مراقبة ، شاهد أبكم على ما سيدور فى هذه الدار، الازهار تفوح بأريجها المميز . اللغة الوحيدة التى تعرفك بالاشياء ، وكل ما عداها يوقعك بالغربة • أتسال الاشجار عن بنى البشر لم هم ادبروا ؟ لو ضربت قنبلة ذرية نشرت العدم لتناهى الى مسمعك شيء • أو لو ضربت قنبلة كيماوية أودت بالبشر وحافظت على الحجر لاودت بك أيضا • وقال السائق : لا • لم يضربوا قنبلة ذرية ولا كيماوية • غير انهم سيشنون حربا يقام لها ويقعد •

— ومن سيشن حربا على من ؟

— الاسرائيليون • يقال ان الجيوش التى حشدوها على الحدود أضخم من حشد الحروب العالمية لها • ويقال انهم سيجتاحون جنوب لبنان للقضاء على المقاومين الفلسطينيين وكل من يناصرهم أو يحميهم افلسطينيا كان أم لبنانيا • سيدكون كل عمارة مشبوهة وكل بيت بل كل حديقة وكل بستان • سيحاصرونهم من كل الجهات • سيقطعون الطرق ويسدون منافذ البر والبحر • سيتعقبون آثارهم حتى ولو مروا فى ثقوب الابر . هل هذا معقول ؟ سيقتلعون اساسات المنازل وجذور الاشجار بحثا عن الذخيرة والسلاح . هل هذا معقول ؟ لا بل سينخلون الرمال ويصفون ماء البحر ويمشطون تراب الارض بحثا عن الدبابيس والاشواك • هل هذا معقول ؟ يقال انك بعد مجيئهم لن تجد سكين مطبخ ولا مقص خياطة • هل هذا معقول ؟ كل شيء فى هذا الزمن معقول • اما سمعت بهذه الحرب ؟ بلى سمعت بها • لكن ما خيل لى أنها ستكون وشيكة لهذه الحد •

— بل هى على ما يبدو وشيكة جدا ولا عجب ان هى بدأت الآن • لذا ليس من المحمود ان نتقدم أكثر باتجاه الجنوب ، فان رغبت بالعودة معى الى بيروت فانا حاضر •

تابعت سيرك على الاقدام رافضا العودة الى بيروت ، فالعزم كان أقوى · أو لعل الملابسات قد تشـــكلت على هذا النحو لكي تشـــهد ماشهدت . أمضيت حياتك تولي مسألة الاختيار والارادة الثقل الاكبر. ظنا منك ان المصادفات لا تطال سوى حيز بسيط من السياق الكلي . وها هي الاحداث تكشف لك عن الجانب الغامض للمقدر . أن كنت قد أمعنت في الهرب فلم عدت في هذا الوقت بالذات ؟ أوليس لتوقن أن حدوث ما حدث بشهادتك أمر لا مفر منه ؟ وفيما بعد ، وحين أخبرت بما حدث ابان الغزو الاسرائيلي للطفلة الموضوعة في حاضنة الاوكسجين اهتزت من جديد ثقتك العمياء بالارادي · عندما انهـــال القصف على المدينة مستهدفا المستشفيات هرعت الممرضة الى حاضنة الاوكسجين ، والمولودة التي فيها منذ أيام لم تبلغ مبلغ الاصحاء . واحتـــارت الممرضة بأمرها · أتترك الطفلة في الحاضـــنة أم تدبر بها الى مكان أكثر أمانا ؟ ان تركتها فلا شيء يضمن لها الســـلامة وان أخرجتها فلا شيء يضمن لها العيش · ولما عاودت الصواريخ انهمارها على المستشفى انساقت الممرضة الى العزيزة ففتحت الحاضـــنة وهربت بالطفلة الى الملجـــأ · وتوالى عليهم ما توالى من أحداث وتنقلوا بين مكان ومكان واستقر بهم الحال في مقر ميداني للاطفال أقيم في الاستراحة السياحية على الشاطيء · الاطفال بالعشرات من كل الاعمـــار وزجاجة واحدة يرضعونهم بها مداورة · يغســـلونها بماء البحـــر ان تيسر ذلك ، فتمديدات المياه ، دمرها القصف . ان لم يتيسر لهم أرضعوا بها طفلا تلو الاخر بلا تنظيف · ورضيعة الحاضنة ضـــمن هؤلاء تتنفس هواء مثقلا بالدخان والاتربة · تحكي لك الممرضة هذا ·· بأية صيغة حكت لك الممرضة هذا ؟ بصيغة الدهشة · بصيغة أن كل شيء ممكن وأنها منذ تلك الحادثة لن تدع اليأس يدخل قلبهـــا حتى وان كانت ترعى مريضا في النزع الاخير · « تصور ! من حاضـــنة الاوكسجين الى مقر ميداني يكده القصف والدخان · أرضـــعتها من زجاجة مغسولة بماء البحر حليبا معدا ليس للرضع ولا حتى للاطفال ظلت في حضـــانتي عشرة أيام لا يعرف ذووها عنها شيئا ولا نحن نعرف عنهم شيئا · ولما

ابلغوا أن لهم أبنة فى المقر استغربوا أن تكون رغم كل الاهوال مازالت فى قيد الحياة » ٠

أنزلك الرجل من السيارة بعد أن نصحك بمتـــابعة السير فى دروب البساتين ٠ ولما سألته عن مغزى النصيحة شرح لك أنه ليس من المحمود الآن ، السير فى درب مكشوف ٠

ترددت فى الامتثال لنصـــيحة الرجل ٠ المدينة من بعيد تراها بكليتها راسا برءا داخلا فى البحر وحولها البيوت منتشرة ٠ لاترى تفاصيليا ورغم هذا خيل اليك أنها قد أقفلت أبوابها ونوافذها ونامت ٠ كيف تنام مدينة بأسرها ؟ المســـافة بينك وبينها من ذاك الشـاطىء المكشوف ، تشعر ليسرها بمقدورك فى اختصارها بخطوتين ٠ وفكرت أن تختصرها لكنك عدت وامتثلت لنصيحة الســـائق ٠ فبعد رحيله شعرت بالرهبة ٠ وحدك الآن تماما فى هذا المكان والدرب مقفر وهذا السراب ٠٠ نزلت فى البساتين وحثثت السير بين الاشجار ٠ بيـوت حراس البساتين الباطونية تبـــدو هى الاخـرى مقفـــلة ٠ فى كل بســـتان بيت أو اثنان على الاكثر ٠ وصـــادفك منزل عادى من حجر ، نوافذه اباجور خشبى ٠ وتمنيت لو يخرج أحد منه تســـاله النصيحة او تستعلم شيئا لكن لم يخرج منه أحد ٠ عاودت السير ٠ تسمع حفيف نعليك بالتراب وحفيف ثيابك وكتفيك بأوراق الشـجر ٠ والطريق العام تلوح لك ، من بين الاغصان ، خالية تبرق تحت اشـعة ضاربة وصامتة ٠ هل ما يجرى لك الآن صـحيح أم أنك تحلم ؟ لعلك مازلت تحلم تحت الماء مثلما حدث للموظف يوم المتفجرة ! لا شىء يؤكد ولا شىء ينفى ولا غصن يهتز ولا ورق يرتعش ولا حتى طائر شريد ٠ وتسمع صوت انفاسك وانت تتابع السير ٠

مررت ببستان آخر وفرحت اذ لاح لك من بعيد باب مفتوح يقف به رجلان ٠ حييتهما ٠ ورغم الوجل ردا التحية ٠ ولما اقتربت منهمـا حييتهما من جديد ٠ وسالك أحدهما كيف وصـلت ومن أين أتيت ٠ « من بيروت » عجب ! قال : ومن أوصلك ؟ « سائق لقيته فى الطريق » عجب ! وأين هو هذا الســـائق ؟ « عاد الى بيروت » عاد الى بيروت ؟ أأكيد أنت مما تقول ؟ « نعم ٠ أكيد » ٠ كيف يعود والطـــائرات منذ ساعة تغير على طول الساحل من طرف العاصمة حتى اقاصى الجنوب ؟

ــ لا أدرى ٠

أحد الرجلين بدا واثقا بكلامك والآخر حذرا ، مأخوذا بالشك قبل

العجب . يلقى عليك الاسئلة ، يستجوبك . ترى من تكون انت بنظر هذا الرجل ؟ عاد يسالك من اين جئت ومتى وكيف لم تسمع بالغزو الاسرائيلي ! ثم سألك عن اسمك . من انت ؟ ابن من انت؟ وسمعت نفسك تقول موجها الكلام له ولصاحبه : انا فلان ابن فلان اضطررت للعودة الى البلدة للاطمئنان على اهلي · ابتسم الرجل الواثق وبدا الآخر غير آبه بالافصاح عن الاسم · الرجل الواثق رحب بك واخبر صديقه ان الاسم ، اسم الاب والعائلة ، معروف في المنطقة · وان الأب يملك ارضا والعائلة ايضا في الناحية الاخرى ، هناك ، قال مشيرا الى الناحية الاخرى · وسأل الآخر صديقه ان كان أكيدا من المعلومات التي قدمت · وازاء هذا الغموض تناولت جواز سفرك وابرزته فابتسم لك الرجل واعتذر · لا تؤاخذني يا أخي · هذه الايام ·· ودعاك الواثق للبقاء عندهم ريثما تنجلي الامور · كما دعاك للمبيت اذا استدعى الامر · فليس من المحمود في هذه الظروف السير على غير هدى ·

ـ يقال ان ما سيجرى لم تشهد له المنطقة مثيلا من قبل ·

ـ المدينة هي المستهدفة ؟

ـ المنطقة كلها مستهدفة · كل منزل تصدر عنه حركة سيهدم وكل عمارة ستدك وكل بستان سيحرق · سيتتبعون خطى الانس والجن بحثا عن الفدائيين الفلسطينيين بل وعن كل فدائي افلسطينيا كان أم لبنانيا · لن يميزوا بين لاجيء ومواطن ولا بين مقاوم واعزل · خلق كثير حمل عتاده ورحل بحثا عن ملاذ لكن الغسالية العظمى لزمت بيوتها · فاذا ما داهمك القصف اياك أن تتحرك والا ظنك الطيارون مقاوما واشعلوا المكان الذي انت فيه · لو لمحوا ظل قطة ، لو تراءى لهم طيف فارة ·· أشعلوا المكان ·

قال الرجل هذا ثم كرر دعوته لك بالمكوث عنده فقلبت الفكرة في ذهنك ، لكنك خجلت فاعتذرت · وقبل انصرافك نبهك الرجل الى خطورة السير في درب أمكشوف « حاذر أن تخرج من البساتين الى الشاطيء ما لم تتأكد » ·

تابعت السير بين الاشجار · ظلك الصمت وهذا المكان المهجور · وبيروت صغيرة موصدة · أشعة الشمس تدخل من شقوق النوافذ والابواب . اصخت السمع لعلك تحس بنأمة أو بصوت ينبئك بوجود انسان · لا شيء ينبيء بشيء · أين هرب الناس ؟ ما سمعت في حياتك ببشر تحضروا لغزو تحضر هؤلاء الناس له · هذا بيت آخر مقفل أيضا . واخذك الندم لعدم قبولك دعوة الرجل . وتولاك الحنين للجزء

القديم من بلدتك ، ذاك الفائر المتكور على نفسه عند طرف الحجر البيت فيه لصق البيت • هكذا تلتصق المسان بعضها ببعض . . . ان هذا ليس عناقا بل خوفا يعبر عن نفسه بالعنــاق • وخطر لك ان تطرق باب البيت القادم ثم عدلت • والتقيت كلبا فزعا هب لاستقبالك. ينظر اليك لاهثا مستعطفا • يتطلع حوله لا يستقر فى مكانه لحظه • اتراه فى فراغ مطبق مثل هذا يتحســس خطر الحروب تحسســه خطر الزلازل ؟ واندفعت هرة مذعورة من ورائك نحو المنزل وأجفل الكلب • وراحت الهرة تقفز الى النوافذ كالمجنونة . تحـاول دفع الاضلف . ثم توارت خلف البيت وسمعت صوت مخالبها على الخشب • وفجاة حدث ما كنت تنتظر حدوته . تصدعت جدران الســماء . وماجت تحتــك الارض وبالغريزة القيت بنفسـك تحت الشجر . انها الطائرات تمطر الارض صواريخ ونيران • تمر فوق رأسك أسرع من الصوت • جسور حديد دخانها امشاطباطون • تنقض فيخيل اليك انها تنقض عليك • وانتشر لهب ساخن فى المكان والاشجار عصفت بها رياح سوداء ، وانت تتمنى لو تحفر بجسمك فى التراب حفرة تطمر فيهــا نفسك • أحطت رأسك بذراعيك والقذائف تتساقط • وحرائق تشتعل غير بعيد • ثم تراءى لك طيف احتل حيزا من الضوء مر بك • رفعت رأســك انملة ناحية الظل فشاهدت امراة تهرول باتجاه البيت • ولما رأتك أجفلت • تراجعت خطوة وتوقفت هنيهة كانها تســــــمرت فى مكانها • جدران السماء تتصدع وهي واقفة فوق رأسك مذهولة • حدقت بك لحظة ثم سارعت بالابتعاد الى البيت • استعجلت النهوض للحاق بها لعلها تأذن لك بالاختباء عندها . الحرائق تتعالى والارض تتفجر وزعيــــق الطائرات يصم الاذان . ورغم هــذا كلمتها . سمعت نفسك تقــول لها بالصراخ انك من سكان البلدة . وافصحت لهــا عن اسمك واسم عائلتك لعل الاسم يعنى لها شيئا • أنا فلان ابن فلان فاجاني القصف وانا فى طريقى الى البلدة . لكن صوتك ضاع فى الضجيج . وسارعت المراة الى بيتها والكلب لحق بها يقفز قفزا يحاول التشبث بثيابها . لكنها تملصت منه وتوارت خلف منزلها وبقى الـكلب فى الخارج • وايقنت انك خسرت الفرصة • جلست ارضا واسندت ظهرك الى حائط البيت الخلفى • ومن جديد عادت الطائرات تصدع جدران الســـماء تنقض على الارض فيهوى قلبك . لحظة الانقضــاض هى لحظة انهمار الصواريخ بت تعرفها • الجسور القاتلة تتوالى افــواجا • جسر يعلو وينخفض • يدك ويرتفع ، وما يكاد يبتعد حتى ينتصب مـكانه جسر

آخر يزعق زعيقه ويرمي رميه • وابل صواريخ وقنــابل • لو كلمت نفسك في تلك اللحظة لما سمعت شيئا • ووجدت نفســك تنبطح على الارض من جديد وتحيط راســك بذراعيك وتتململ حيث ترقد . تحس بالتراب يتحرك تحتك . لعله سيكون فى مقدورك حفر الحفرة! التربة لتحرك تحت ركبتيك وقدميك . ولما غارت الطائرات وراء الافق رفعت راسك لتستنشق الهواء فأحسست بالتراب يملأ عينيك وانفك وشاهدت أمشاط الدخان الكثيفة تملأ الفضاء . ورايت الكلب قد حفر حفرة لنفسه وقبع فيها .

ثم وفى لحظة ما هــدأ كل شيء . مرت دقائق على هــذا النحو ورغم هــذا بقيت وجلا . ولما طال الهدوء اعتــدلت فى جلســتك ونفضت التراب عن وجهك • وســمعت أنينا فاجفلت والتفت صوب الانين . أنه الكلب يدس نفسه بالحائط ويغط راسه بالتراب ويبكى. رفعت جســمك لتوســع دائرة رؤيتك وتخمن ما ســيجرى فلاحت لك روءس الأغصان ووراءها لاح لك البحر ممتلئا بالبوارج • بوارج مصطفة اصطفاف عساكر تنتظر أوامرها ! ورؤيتك لهــا كانت هي الأوامر • ما أن وقع بصرك عليها حتى انطلقت منها حمم فى كل اتجاه • هذه ليست بروقا ورعودا وتلك ليست عواصف وأمطارا • هذا لمعان صواريخ وقنابل وألسنة لهيب وهدير مدافع • بوارج بحر وبوارج سماء والبحر كالأرض يموج تحتها • هذه ليست حربا محليــا بل حربا كونية تكثفت فى بقعة صغيرة من العالم • الســماء حمراء والارض حمراء والبحر ليس ماء بل زيتــا فائرا لبابا أشعلت فيه نيران • شاهدت أفلاما كثيرة عن حروب عالمية هى اذا ما قيست بما يجرى حولك تــالى أولاد . استكثشات الماب هــل ســيمحون المدينة من الوجود ويرمون انقاضها فى البحر ؟ لا تعلم كم من الساعات مضت وأنت على هــذه الحــال لكنك استسلمت . تأكدت أن عبورك بلا ألم • ان كتب عليك الموت هنا فليجنبك الحظ شقاء الالم • وظللت بعد هذا بأمد طويل ، وكلما لاحت في ذاكرتك ساعات الهول تلك . وصلت الى نقطة غامضة . فجوة فارغة مظلمة تتلقفك فى عبورك المتخيل الى عالم الموت •

الكلب غير بعيد تكور على نفسه غاطا رأسه فى جوف الحفــرة ، لكنه لا يتحرك • أتراه قد مات فزعا أم أغمى عليه ؟ وأنت رغم الاهوال لا تتمنى أن يغمى عليك • رفع الكلب راســه قليلا ثم عاد يغط فى الحفرة • وأنت تغمر راسك بذراعيــك • وخفت حدة القصف وأنت

مازلت تغمر رأسك بذراعيك ، وهدأ القصف وأنت تغمر رأسك • بعض طلقات الرصاص يسمع بعيدا هنا وهناك • لكن الطائرات غابت وراء الافق وتوقفت البوارج عن القصـــف • الوقت قبيل الظهر • أشعة الشمس تنفذ اليك من بين أغصان الشجر تذكرك أنك منذ البـارحة هنا وأنك أمضيت ليلك في هذا المكان •

ولما طال الهدوء اعتدلت في جلستك وأســـندت ظهرك الى جذع الشجرة فأحسست بشيء يقع منها على الأرض قربك فأجفلت • برتقالة خضراء هي التي سقطت • برتقالة شاردة فالموسم الثاني ، الرجعي ، كما يسمونه بلغة العامة هنا قد انتهى • تنـــاولت البرتقالة ونزعت قشرتها وأكلتها وأنت مستند الى جذع الشجرة • تنهدت مســـتجديا نفسا عميقا ورفعت رأسك الى السماء طالبا المزيد فشاهدت ما لم تقدر على تمييزه للتو. قطع ورق فاقعة الالوان تتناثر.مربعات صغيرةحمراء خضراء وبرتقالية تهبط باتجاه الأرض • وفطنت الى الرســـائل التي يرسلها الفزاة الى الشعوب المفزوة . هذه لابد مناشير تحمل رسالةما. ورغم الاعياء تسلقت الشجرة لترى سماء المدينة غير بعيد تمتلىء بقطع الاوراق الفاقعة تلك . سماء البساتين وسماء الضواحي والسماءفوقك تمتلىء بها أيضا •

الحرائق تتصاعد من كل مكان • ألسنة نار ودخان ، مثـل أذرع كائنات تاريخية قديمة تتجه الى الســـماء • تتضرع • أكف كائنات تاريخية عملاقة من عهد الفراعنة وآشور والكلدان والسومريين أو من عصور وسطى غامضة وغارقة في الظلام . أكف نيران عملاقة تولول في عالم أسود ابكم أصم واعمى وغارق في الظلام .

وسمعت صرير الباب يفتح ورأيت المرأة تخرج • في البدء لم تنتبه المرأة لوجودك على فرع الشجرة لكنها حين رأتك أجفلت كما اجفلت في المرة الاولى • تراجعت خطوات وتسمرت في مكانهـا • نزلت أنت من على الشجرة ورحت اليها تطمأنها • قام الكلب من مكانه ووقف قربك يندس بك • المرأة تبدو خائفة • تلقي عليك نظرة وعلى الـكلب نظرة وهي متسمرة في مكانها • ثم ســـألتك بالاشـــارة من أنت • تعم بالاشارة ! أتراها لشدة الفزع فقدت النطق أم أنها هي في الأصـــل بكماء ؟ عادت تسألك بالاشارة من أنت ؟ تلح بالسؤال • وصدر عنهـا صوت ما ينبىء بأنها بكماء • هل أنت مقاتل ؟ سألتك بالاشارة وهي تصوب يدها نحوك كما لو كانت تحمل رشـــاشا • لا لست مقاتلا •

ورفعت كفيك علامة السلام • وبدون فطنا حين أخبرتها بالاشارة انك تهتم بالقراءة والكتابة • أشارت لك الى أولاد صـــغار وكتب وأقلام لتسألك ان كنت مدرسا فهززت رأسك بالموافقة • وسـألتها ان كانت هي تعرف القراءة فأجابتك بالنفي ثم ناولتـــك منشـــورا كانت قد التقطته . ناولتك اياه لتشرح لها فحواه . يقول المنشور : ان جيش الدفاع الاسرائيلي جاء ليخلص الناس من الارهابيين الفلســطينيين وأعوانهم اللبنانيين • وهم يطلبون من السكان مســاعدتهم في ذلك ويطلبون منهم الاستسلام أن هم أرادوا السلام . » ويقول المنشور ان أية حركة تنبيء بمقاومة أو بوجود مقاومين ســـتعرض المكان بأسره للدمار • أنت تقرأ والمرأة تستعجل التفسير • حاولت أن تشرح لهـا مضمون المنشور ورسمت بيديك مقاتلين ثم أشرت الى طائرات تقصف والى بوارج • فهمت المرأة القصد ورسمت نجمة داود على قبعة عسكريه تخبرك بأن اليهود قادمون لضرب المقاومين حاملي الرشـــاشات فيزز رأسك بالموافقة • وما كدت تفعل حتى بان فزع على وجههـا • قطبت جبينها واربدت قسماتها ثم غطت وجهها بكفها وأخذت تبكي • تبكي بصوت معاق . تبكي وترفع ذراعيها الى السماء وتقول . الله . الله. ولاحظت ان كلمة الله في نطقها تقارب الصواب وتشبه لفظ الناس الاسوياء .

بكت المرأة قليلا وتضرعت ثم هدأت • وكأنها تذكرت شـــيئا • والثقة التي أولتك اياها منذ قليل تلاشت فجأة • اتسعت عيناها وبان هلع على وجهها وعادت تسـألك من أنت ولم كنت واقفـــا على رأس الشجرة • وتسألك ان كنت مقاوما • لست بمقـــاوم • وعدت ترفع كفيك علامة السلام • صعدت الى الشجرة لأرى المدينة والمناشير قلت وانت تشير الى المربعات الورقية . أنا من هنا وأشرت الى المدينة. من هذه البلدة • نشأت فيها منذ صغري ولنا فيها منزل وحديقة ولنا في الجوار أرض. وفهمت المرأة كلامك . لغة البكم ليست صعبة . يكفي أن تحول الفراغ بكفيك الى مجسـمات أو تشير بها الى نفسك والاخرين. لغة البكم هي بلا شك لغة الاشـــارات المنسية وها أنت تتذكرها • وقلت للمرأة انك تائه وخائف وانك تبغي الوصول الى بيتك • لكنـك تخشى أن يفاجئك القصف وأنت على الشاطيء المكشـــوف وانك لهذا اضطررت للمبيت هنا في الليل • قلت لها كل هذا وبدا انهـــا فهمت وصدقت كلامك • واستأذنتها الاختباء عندها في البيت فأذنت لك • دخلت ودخلت هي ولحق بكما الكلب لكن المرأة طردته • دخلتما وظل

الكلب في الخارج يحاول دفع الباب بمخالبه ·
بعد ذلك وحين عاودت الطائرات والبوارج القصف بكت المرأة كثيرا · واضح انها رغم الصمم تحس بدبيب الانفجارات · تسد اذنيها بكفيها فترتسم معالم أوجاع على قسماتها . تبكي وتندب حظها وبين الحين والاخر ترفع يديها الى السماء وتقول الله · الله وحده تقول · وتفهمك أنها هي أيضا وحيدة ليس لها سواه · ولما جن جنون الطائرات وتلاحق انقضاضها على الارض وتلاحق رمى الراجمات حممها دب اليأس في قلبك أنت أيضا وأيقنت أنكما أنت والبكماء ستقضيان هنا معا · ورغم قناعتك بأن الملابسات هي التي قادتك الى هذا المكان ، فقد أصابك ندم . بل ولبسك احساس قاهر بالذنب . ماذا لو مت هنا الان ؟ وتولاك اشفاق . لو حدث هذا . . ما هم أن تموت اليوم أو غدا فأنت على أي حال ستموت ·· لكن ان كان لابد أن تموت في وقت محتوم فمن الحري بك أن تموت في مكان معلوم ، والا كيف سيتمكن هؤلاء المساكين ، أهلك ، من اكتشاف اللغز والعثور عليك ؟ لغز كهذا لن يقدروا على فكه حتى ولو قضوا العمر كله في البحث عنك · حتى ولو نذروا حياتهم للعثور عليك · حتى ولو طرقوا البيوت بيتا بيتا وجابوا المدن مدينة مدينة والبلدان · كيف سيخطر لهم انك مت هنا في بيت حارسة البساتين البكماء ؟ هنا ستقضى في غفلة عن ضمائر الاحياء ·· ويأتي مجهولون يدفنون ضحايا الحرب مجهولي الهوية ، وأنت بنظرهم من المجهولين أولئك · المرأة تبكي بكاء صامتا . وخطرت في ذاكرتك رحلة امرىء القيس لما بكى صاحبه حين رأى الدرب دونه لكن امرىء القيس كان يحاول ملكا ويطلب مجدا . وما المرأة هذه الا مثلك طالبة أمان . وفكرت أن تقوم وتواسيها مواساة منكوب لمنكوب . نعم خطر لك هذا وقمت من مكانك · لكنك استحييت أن تفعل فاتجهت الى المطبخ لتحضر لها كوب ماء · اندفعت المرأة اليك تمنعك من دخول المطبخ · تفهمك أن المطبخ غير امن وأن الغرفة هذه وحدها آمنة · وشق عليك مصارحتها بأن المنزل كله غير آمن وأن أية قذيفة بل أية شظية لو سقطت عليه فستسقط مباشرة على راسيكما · لا شيء يحميكما سوى سقف رقيق من باطون . سقف لو كنت أشد عودا بقليل لرفعته بكفيك ·

عند المساء توقفت طلعات الطائرات وخف قصف البوارج فاستسلمت للنوم على الكنبة · هذه ليلتك الثانية في هذا المكان · الاولى أمضيتها في الفلاة بين الشجر والثانية في بيت حارسة البستان·

ولم تستيقظ سوى في الصباح الباكر على هدير المصفحات . البكماء قفزت من مكانها تنصت الى الهدير . واشارت عليك بالتصنت . هذه دبابات وليست طائرات . تقول هذا وتبدو مرتاحة ولم تفهم أنت مغزى ارتياحها الا حين افهمتك بأن كل شيء قد انتهى . هذه جيوش نجمة داود تدخل المدينة . انتهى كل شيء .

جلست قباله المرأة وخطر لك ان تسألها ماذا ستفعلان الان وهل سيعاود الاسرائيليون القصف وهل تنصحك بالخروج والذهاب الى البلدة . ربما انها هي أيضا كانت تفكر بالمسائل ذاتها . كلاكما يعرف أن الاخر مثله لا يعرف شيئا . خرجت المرأة الى البستان وعادت الى البيت . ثم خرجت بدورك الى البستان ورجعت . ثم وبعد قليل خرجتما معا . لم تلمحا أحداً ولم تسمعا شيئا عدتما الى البيت ثانية . قامت المرأة وحضرت القهوة وقدمتها لك . لا تدرى لم اثر بك تقديمها القهوة هذا التاثير ! أحسست أنك ستبكي . ربما لأن قدح القهوة هذا قد فتح لك نافذة أمل صغيرة على الحياة . ثم أحسست بمفتاح يوضع فى فتحه القفل . لكن الباب موصد من الداخل . ثم سمعت ضربات على الخشب قوية ومصرة . واحسست بيد تهز الباب ثم تضرب النوافذ . أخبرت مضيفتك ان أحدا يضرب الباب فاشارت عليك بأن تلزم مكانك وقامت هي تستطلع القادم من بين الشقوق . وسمعت صوت أنثى يقول : افتحى . وكأنها حدست ذلك فالتفتت اليك تسألك عن المتكلم تود أن تقول لها : امرأة . كيف تقول امرأة بلغة البكم ؟ أشرت الى شعر طويل فسبقتها أيديها بالاشارة الى استدارة نهدين فهززت راسك موافقا وفتحت هي الباب ورأيت القادمة .

كنت تراقب المرأة لتقرأ شيئا وتفهم ما يدور حولك . المرأتان أخذت الواحدة صديقتها بالاحضان وبكتا . وبعد ذلك سلمت عليك المرأة ، وشرحت لها البكماء أن القصف داهمك وأنك بت ليلتك هنا .

القادمة ليست بكماء ، أخبرتك بالكلام أن الاسرائليين دعوا الناس ، كل الناس للتجمع على شاطئ البحر في مركز الاستراحة السياحي . ثم شرحت لصديقتها المعنى ذاته بالاشارة . البكماء تجيب بأنها تفضل البقاء في المنزل . لكنهم سيقصفون الاماكن كلها ، قالت صديقتها ، الاستراحة هي المكان الوحيد الذي لن يطاله القصف والمهلة تكاد تنقضي ، بل هي ستنقضي في نصف ساعة . طلبوا من الناس كل الناس اخلاء المنازل . أى منزل اهالي هو بالنسبة لهم مصدر مقاومة وسكان المدينة كلهم يتجهون الآن الى مركز الاستراحة .

أى وسيلة اعلام ابلغ من هذه ؟ ابلغ الوسائل الخوف . هكذا قيل لك فما صدقت حتى شهدت .

جمعوهم عند مدخل المدينة وقرب الاستراحة . اللبنانيون والفلسطنيون . قسموا بعضهم فريقين . فريق يتقدم الدبابات فى دخولها المدينة وفريق يتقدمها فى دخولها مخيمات الفلسطينيين فى الضواحى . هكذا تحتمى الدبابات بالبشر . والرصاص قبل ان ينال من الحديد لابد وان يمر بالجسد . هكذا دخلوا المدينة .

امروهم بحمل الاعلام البيضاء وبالحضور الى مركز الاستراحة السياحى . الرجال والنساء . الشيوخ والأطفال ، المعافى والمعاق ، الجريح وغير الجريح كلهم مدعوون الى الاستراحة وكل متخلف عنها لابد مقتول .

أى وسيلة اعلام ابلغت هؤلاء الناس ، عشرات الالاف من الناس ضرورة حمل الاعلام البيضاء ؟ من أين أتوا بكل هذه الاعلام البيضاء ؟ مناديل وملاءات . اغطية مخدات ، مناشف يدين ومناشف حمام ، قمصان داخلية ، وقمصان رسمية وحتى فساتين . كلها شارات بيضاء تتحرك فى الفضاء . أى شيء أبيض تلفه هؤلاء المذعورين فى ساعة الهدنة واندفعوا به الى الشارع باتجاه المكان المحدد للنجاة : « الاستراحة » وبدت الاستراحة مطلبا ملحاحا . البعض يقول استراحة والبعض يقول رست هاوس . والكل ذاهب اليها انما يقصدها من درب مختلف ظنا منه انها الافضل .

هكذا غصت الدروب الفرعية ، واتصلت بالساحات بمنافذ الطرقات ، وامتلأت ببشر متحهين الى مكان غير آكدين انهم سيلقون فيه الخلاص . مثل يوم القيامة الذى يتحدثون عنه . يوم تلتف الساق بالساق ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، يوم تذهل المرضعة عما أرضعت .. وها هم هؤلاء الناس . الكبير منهم يحمل الصغير والمعافى يحمل المعاق والشاب يسند العجوز وكلهم يرفعون أعلاما بيضاء مثل زوبعة ذات شعاب تتحرك فى الساحات .

وجوه الناس ، معفرة بغبار داكن أو متشحة بالسواد كانهم خارجون لتوهم من منجم فحم . لكن لا أحد يعير انتباها للون أحد .

امراة شابة تحمل رضيعا وتمسك بيدها طفلا . طبقة من القحـ تغطيها من الراس حتى القدم . عيناها فقط تبرقان بلون عسلي . ووجه الرضيع مسود أيضـا . مرت بقربك وكادت تاخذك بدربهـا . نظرت اليها فقالت لك : مات . ناولتك اياه وولت ... نظرت ال الرضيع فوجدته بين ذراعيك يتنفس ثم فتح عينين زائغتين . لكـ يتنفس . وكـدت تلحـق بهـا لتقـول لهـا بأن طفلهـا لـ يمت وانه يتنفس . لكنهـا كانت قـد اندسـت بين الجمـو الزاحفة ، تدفع الناس لتصل . واقترب منك رجل قال ان الرضيـ هذا ابنه . وأنت لا تعرف ان كان من واجبك تصديقه أم لا لكنـ صدقت فاعطيته اياه . وقد سالك الرجل لم تركت زوجته الطفل . وحاولت أن تشرح له لكنه على ما يبدو لم يسمع . الرجل يحاول اللحاق بزوجته يناديها : يانادية يانادية خذي الطفل . يانادية خذيـ لاحضر العجوزين ، والمراة لا تلتفت . امراة اخرى تناديها بالصراخ: يانادية ردي على زوجك يانادية ، لكن نادية التي كانت قد سـبقت الجميع الى الاستراحة لم تلب النداء .

رجل مسن شديد النحول يرفع منديل ورق يمشي بجـانب امراة مفرطة في السمنة ، يلهثان في سيرهما . المراة لا تحمل علما . زوجها يحاول اقناعها بحمل منديل ورق مثله فتجيبه بانها لا تقوى على رفع ذراعيها . مش قادرة تقول بتوسل مش قادرة . وبعد قليـل بدا الرجل نفسه عاجزا عن متابعة السير . توقف لكن لهاثه ظل قويا متلاحقا كانه ينفخ في بالون ، وزوجته تحثه على متابعة السير . مش قادر ، قال هذا ثم زاغت عيناه وترنح . اتكأ على كتف زوجته واخذ يتلفت حوله يقول احملوني . ياناس أحملوني . وزوجتـه تتلفت حولها وتقول : احملوه . وفجـاة بان رعب على وجهـه . نظر اليك ثم نظر الى زوجته وقال . أوعكن تتركوني وتروحو . وفكرت أن تحمله ووقع نظرك على عيني المراة التي اشاحت عنك وجهها وهي تردد : احملوه . تقدم شاب قوي البنية وانحنى وحمـل العجوز على ظهره ثم أسرع به . المراة البدينة تستمهل الشاب لتتمكن من مرافقة زوجها . لكن الشـاب هرول مبتعدا صوب الاستراحة .

ومن بعيد ظهر علم عملاق مرفوع على عارضة من خشـب عملاقة هي أيضـا ، ملاءة بيضاء هائلة تغطي وجه حاملها وصدره وتصل حتى الركبتين مثل خيمة . حامل الملاءة رجل . ساقاه عاريتان . حين ترفرف الملاءة تكشف عن فخذيه أيضا وعن سرواله الداخلي . وربما

انه في سباق الهول نسي أن يرتدي بنطاله . السائقان سائقا عجوز لكن العدو عدو شباب بل أشبه بعدو أطفال حين يتسابقون . لم يتعدم الرجل صوب الجموع المنتشرة بل انحـــرف في درب فرعي مستعجلا الوصول الى الاستراحة .

البكماء توارت عن ناظريك مع صديقتها . صديقتها لدى وصولها. تناولت مفرشا ابيض مطرزا لكن البكماء انتزعته منها واشارت الى حافة التطريز . دخلت احدى الغرف وعادت وبيدها قطع قماش قديمة ، اين هي الآن ؟ على مقربة منك سيدة تقول اشياء . ربما تقولها لنفسها او للشاب الذي يرافقها تعد على اصابع يدها : فريال واحمد وآمال تحت الردم . وسمير وجمال وأحلام مش عارفي وين. مش عم اتذكر وين كانوا ساعتها . عائلة بأكملها وجوهها مغطاة بتراب اسود . والعيون تحت ثقل التراب تبدو شبه مغلقه . المراة تسأل عن ابراهيم واسماعيل فتجيب الأخرى بانه قد مات مات ؟ ايوه مات . كيف مات ؟ شظية ؟ لا يمكن ضغط . لما شفت الدم بيـدفق من منخاره وسنانو قلت يمكن خلص . تطلع في هيك لجهة واحـدة وفكرت انو رح يحكيني ويقلي شي . بس ما قال شي .

امراة اخرى تستفسر شقيقتها عن احد ما ، ربما اخوها او ابنها ، ماذا حل به ؟

ـ من هوي ؟

ـ محمود .

ـ محمود ؟

ـ لا فوزي

ـ فكرتك عم تحكي عن محمود

ـ لا محمود يمكن سبقنا عالاستراحة .

ـ انت شفتيه ؟

ـ لا ما شفتو بس اكيد سبقنا عالاستراحة .

ـ طيب وعماد شو صار فيه ؟

ـ عماد لما نزلت علينا الصواريخ كان متخبى بالحمام . انسـد عليه الباب . وهلق اكيد بيكون عم يطلع من الشباك .

ـ كيف بدو يطلع ؟ شباك الحمام على علمي زقير .

ـ ايه زقير بس عماد رفيع بيخلص حالو من الشباك .

ـ والولاد امهن شو صار فيهن ؟

ـ وداد امهن حظها منيح . قبل مانزل الصواريخ بدقيقتين راحت لعند الجيران تجيب كم رقيف للرقار .

ـ طيب والزغار وينهن .
ـ لحقوها . شفتهن لما راحت امهن لعند الجيران لحقوها . اسامه ومنير وفادى لحقوها . بس عبير قالتلها روحي انتي وتركيني انا مع ستي وجدي .
ـ طيب وين عبير ؟
ـ عبير ؟
ـ أيوه عبير وينها هلق ؟
وكأنما فطنت المراة فجاة الى اختفاء عبير . اسعت عينـــاها بالخوف واخذت تتلفت حولها وتتساءل :
ـ صحيح وين عبير ؟ ليه ما اجت معنا عبير ؟ اطلعي يا اختي وراكي منيح يمكن تكون ورانا . لأ مش ورانا . ياحبيبتي ياعبير .
تقول المراة هذا ، تبكي وتندب . وينك ياعبير . اتركوني روح شوف عبير . لازم ارجع عالبيت شوف عبير .
ـ مافيش وقت ، قالت لها اختهـــا ، مافيش وقت تروحي وترجعي . ويمكن عبير سبقتنا مع الجيران عالاستراحة .
اجبروهم على الاحاطة بالدبابات من كل الجهات . اجبروهم على الهرولة امام الدبابات . الدبابات تصر صريرا ، تنهش الطـــريق الاسفلتي وتترك فيها حفرا عميقة . الدبابات ترحف وهم يهرولون امامها . الدبابات تقصف بينما هم يسيرون بمحاذاتها . تقصف من فوق رءوسهم . مثل مدافع تؤدى التحية فى احتفال مهيب . الناس تهرول ولا احد يجرؤ على الابتعاد ، ورغم انه لم تعد هناك حاجة لرفع الاعلام البيضاء الا انهم كانوا مازالوا يرفعونها .
مصورو التليفزيون الاسرائيليون كانوا يصورون المدينـــة وهى تحترق ويصورون السنة اللهب المتصاعدة من بيوتها وخيم الدخان التى تطوف فوق سمائها ويصورون الناس وهم يهرولون امـــام الدبابات والجموع الزاحفة نحو الاستراحة . ولاشك فى انهم قـد صوروا الاعلام البيضاء . التصوير التليفزيونى يواكب كلَ مرحـــلة من مراحل الاجتيـاح وحين كانت الدبابات تقصف ، كان المصـورون يصورون القصف . اكثر من فرقة شاركت فى التصوير . فرق تصور الناس وفرق تصور الجيش فى اقتحامه المدينة . وقد اجمع الناس على أن هؤلاء المصورين ليسوا صحافيين مدنيين بلْ عسكريين . ولاشك فى ان الافلام التسجيلية هذه موجودة باكملها فى ارشيفات الجيش الاسرائيلى .

امراة تحث صغيرها على الاستعجال · اركض تانوصل عالاستراحه
ـ عم اركض ياماما عم اركض · لا اركض اكثر ·
ـ طيب وين البابا ؟ ليه ما اجا معنا ؟
ـ هلق بيلحقنا .
ـ طيب وينو ليه ماأجا معنا ؟
ـ عجل يمكن سبقنا عالاستراحة
ـ لا . قولي الحقيقة . البابا بعدو بالبيت انا شفتو نايم بالبيت.
ـ طيب هلق عجل يا حبيبي تا نوصل عالاستراحة عالوقت .
ـ ليه بدنا نروح عالاستراحة ؟
ـ علشان الاسرائيليين قالولنا نروح .
ـ طيب وليه نحن منرد عليهن ؟
ـ علشان اللي بيعقد ببيتو بيهبطو البيت عليه .
ـ طيب واذا هبطو علينا الاستراحة ؟

اسماعيل لو لحق حالو كان خلص . قبل الاعلان عن الاستراحة بنص ساعة وقعت قذيفة بس ما انفجرت · قام من محلو ومشى · لما مشى تدربكت الحجارة فوق بعض وانفجرت فيه القذيفة .

ـ وابراهيم
ـ لا . ابراهيم خلص حالو وراح عالاستراحة .

مثل جيش جرار من نمل زاحف بزاده الى ثقب جبار فى الأرض. هكذا هى الجموع زاحفة بأعلامها الى الاستراحة . الغبار الذى يغطى الوجوه والاجساد تنبئك بالحادث الذى وقع لها ، حريق أو دمار والبعض لم يحدث له شيء من هذا . منذر انقطعت ايدو ، حملها وهرب . وبعدين رماها وسكر جرحو بالايد الثانية وراح عالاستراحة. معظم الجرحى فعلوا هذا والبعض شلونهم على الاكتاف والجرحى من الاطفال والرضع محمولون على الأيدى .

حين صعد الجنود الاسرائيليون بمصفحاتهم فوق السيارات سمعت ولولة نهت الناس فالتفتوا . قيل انهم دهسوا السيارات بمن فيها وقيل بل انزلوا ركابها قبل أن يدهسوها . فأجابنهم البعض . لا . لم ينزلوا الركاب وهم يفعلون هذا احيانا مثلما دهسوا السيارة بركابها الخمسة .

فى الاجتياح السابق على طريق الشهابية . لم يدهسون السيارات الآن اذن ؟ لأنهم طلبوا الى الناس المجيء سيرا على الاقدام الى الاستراحة

ربما منذ الغزو امتنعت عن الكلام فى البدء كانت تكتب ما تريد على ورقة . وفيما بعد توقفت ايضا عن الكتابة ، وهى الآن فى طريقها مع ذويها الى الاستراحة . تمشى مثل انسان آلى ، يتناقلون حكايتها وهى تقف ساهمة كأنهم يحكون عن شخص آخر .

لم يكن من السهل التأكد يومئذ اذا ما كانت المصفحات الاسرائيلية قد دهست السيارات بركابها . لكن فيما بعد تبين انهم قد انزلوا منها الركاب . السيارات بعد أن مرت فوقها المصفحات بدت أشد طولا وعرضا مما هى عليه . طويلة ورقيقة مثل الصفيحة . الفولسفاكن بدت بحجم المارسيدس وبدت هذه أكبر من الأولزموبيل. السيارات المدهوسة ظلت فترة طويلة من الزمن ملقية على الرمال غير بعيد فى الاستراحة .

الاستراحة ، ذاك المركز السياحى البديع يحاذى البحر تقريبا . قاعاته الفسيحة ذات واجهات زجاجية عريضة . وهى على رحابتها ضاقت بالجموع الوافدة اليها . الذين يتأخرون فى الوصول يقوا فى الخارج حولها وجلس البعض على الرمال . اثنتان من غرفها حولهما أطباء المدينة الى غرف جراحة . وبعض الغرف للطوارىء . عمال الصليب الأحمر الدولى يساعدون الأطباء . أحد الجالسين على الرمال انفجرت قرحته فنقلوه الى الطوارىء ثم أجريت له جراحة مستعجلة. كثيرون شاهدوا العملية من وراء الواجهات ورأوا معدة الرجل وأمعاءه. لكن بعد ذلك أحضر رجال الصليب الاحمر ملاءآت بيضاء وغطوا بها الواجهات فلم يعد باستطاعة الناس فى الخارج مشاهدة عمليات الجراحة فى الداخل .

بعد أن جمعوا الناس على شاطىء الاستراحة قصفوا المدينة طويلا وقصفوا المخيمات والبساتين . الدبابات التى قصفت كانت هى الأخرى على مقربة من الناس لا تبعد عنهم سوى أمتار . القذائف تتعالى من فوق الرءوس مثلما حدث حين رافق الناس الدبابات فى فتح المدينة والمخيمات . الواقفون على الشاطىء ينظرون الى ما يدور حولهم بعيون مذهولة . ربما انهم لا يصدقون ما يجرى لهم . وربما ان أعصابهم لشدة يُسهم وانتظارهم الموت . أياما متتالية ، قد فقدت مرونتها . لولا هذا كان يمكن لقلوبهم أن تتمزق فى صدورهم لهول الأصوات كما تمزقت معدة الشاب . كان يمكنهم ان يفروا من أماكنهم فرار طيور أمام بنادق . مثلما حدث لبعض المسنين الذين قضوا على شاطىء الاستراحة ودفنوا فى المكان عينه الذين قضوا فيه .

قيل ان من مات قد مات من ضربة الشمس ، لكن البعض ، كما أكد الاطباء ، كان مريضا ولم يتحمل ضغط الانفجارات . مجموعة من الشبان تولت عملية الدفن . وبدوا وهم يدفنون الموتى أشبه بمن يزرع اشجارا فى التراب .

عدد الاطباء الذين تطوعوا لمساعدة المصابين واجراء العمليات لم يكن كاف وكذلك التجهيزات . بعض الجرحى مات قبل ان يحين دوره فى الجراحة . وربما لأن جراحة كانت بالأصل بليغة أو ربما لأن دوره لم يأت فى الوقت المناسب .

حين يتوقف القصف هنيهة يسود الصمت . عشرات الالاف من الناس على هذا الشاطىء يتكلمون بما يشبه الهمس والبحر لشدة هدوئه لا يسمع له صوت . رجلان يتناقشان بهدوء ، أو بغير اكتراث. أحدهما يقول أن البيت الذى يحترق الآن فى العمارة المقابلة هو بيته، فيؤكد له الآخر على أن البيت بيته هو . الطابق السادس هو الذى يحترق وليس الخامس . لا أدرى ، يجيب الآخر ، يبدو لى ان الخاص هو الذى يحترق .

الدبابات حين تغير وجهة القصف لا تتحرك من مكانها . مدافعها فقط تدور لتقصف فى هذا الاتجاه أو ذاك ، شرقا باتجاه المخيمات أو شمالا وغربا باتجاه المدينة . الحرائق تتعالى من جهة المخيمات ومن جهات مختلفة من المدينة . عمارات أو طوابق من عمارات تتهدم بلحظة على مرأى من أصحابها ، أما العمارات البعيدة الكائنة فى البلدة القديمة فقد تهدمت دون أن يشهد تدميرها أحد .

الطائرات أيضا شاركت فى قصف المدينة والمخيمات . قيل سيستمرون فى القصف الى ان يسكت آخر رشاش لكن الرشاشات لم يعد لها صوت . قيل سيستمرون بعد ذلك طويلا من باب الحيطة. الطائرات تكاد تحاذى الارض تمر فوق الرءوس وقد رأى الناس طياريها . قائدو الطيارات يرتدون ثيابا عسكرية ويضعون على أعينهم نظارات قاتمة . لا شك فى أنهم يضغطون على أزرار فتنهمر الصواريخ. منظرهم وهم جالسون فى مقعد الطائرة لا يوحى بانهم فى ساحة حرب بل فى نزهة . يختالون فى الطائرات اختيال فرسان فوق جياد . طائراتهم تمر فوق الرءوس تكاد تحاذى الارض ولولا سرعتها لخيل اليك انه فى مقدورهم مصافحتك . الطيارون يضعون على عيونهم نظارات قاتمة ورغم هذا فانهم على الأرجح لا يحدقون بالناس بل يحيدون النظر عنهم لجهة البحر كانهم يستكشفون حالة الطقس .

وقد رايتهم يحيدون بصرهم لجهة البحر لحظة انهمار الصواريخ .

ولولا انهم يضعون تلك النظارات لوقع بصرك فى بصرهم . لولا انهم يضعون نظارات لقرأت ما يجول فى خواطرهم وهم يضغطون الأزرار . لا ستنبشت أعماق أعماق انفعالاتهم وعرفت ان كان يخجلهم ام لا أن يروا ما يحدث للناس تحت وهم يضغطون الأزرار .

الطائرات فى مرورها تخلف امشاطا عريضة من الدخان جوانب السماء تصدعت كثيرا ذاك النهار وخرجت منها شقوق حمراء سوداء الحرائق تتعالى قريبا وبعيدا وتمتد ، كأذرع كائنات تاريخية عملاقة هبت على الناس فجأة لتلقى فى قلوبهم الذهول .

لم تلمح أحدا منهم ، أصابك دوار لكثرة ما تلتفت حواليك . اصابك دوار لكثرة ما تقلت عينيك بين الوجوه ، وجوه النساء ووجوه الرجال . وكنت تتساءل اذا كانوا هم أيضا قد أتوا الى شاطىء الاستراحة . وظللت تتساءل . رغم أنك سمعت الناس يقولون ان الناس كل الناس قد أتوا . اصابك دوار لكثرة ما ادرت رأسك الى هذه الناحية وتلك . العمارات تهوى امامك . اصابك دوار وان تتبع مظلة الدخان التى كانت تطوف فوق الرءوس فى سماء المدينة .

قبيل الغروب أذنوا لكم بالعودة الى البيوت لكنهم طلبوا من الرجال أن يحضروا باكرا فى اليوم التالى الى الشاطىء . وعينوا لهم مكانا بعيدا عن الاستراحة . الرجال من سن الثانية عشرة حتى الثمانين ، اللبنانيون والفلسطينيون على حد سواء ، عليهم الحضور غدا لأخذ التصاريح . اية تصاريح ؟ التصاريح التى تصرح لهم بالتجول . ومن لا يأخذ تصريحا ؟ من لا يأخذ تصريحا لا يتجول والا تعرض للشبهة .

لا تذكر ان احدا من أهلك قد سالك ، ذلك المساء ، عن سبب عودتك او عن الظروف التي رافقتها . ولا تذكر انك بادرت انت الى تفسير هذا بنفسك . كل منكم استعجل الذهاب الى فراشه ونام . ربما ان امك وانت على حافة النوم قالت لك شيئا ، وربما انك اجبتها بشيء . لا تعلم . لكنك في تلك الليلة خفت ان تستعيد في النوم ماعشته في اليقظة . غمرت راسك بالغطاء واغمضت عينيك كانك تجري بروفة لما سيدور في ذهنك بعد قليل . ورغم ان الغطاء الذي غمرت به راسك كان ابيض الا انك احسست بستار اسود سميك كستارة المسرحية يسدل . غطيت في النوم والبروفة التي بدأتها منذ لحظات غرقت وذاكرتك في ظلمة كثيفة .

في الصباح ، استغربت ان تكون والدتك قد جهزت الفطور باكرا . وطلب اليك والدك ان تهتم بتدبير طعامك وشرابك حسبا ليوم طويل . كنت تحس نفسك ضعيفا وخاويا ورغم هذا لم تكن راغبا بالطعام . ورايت والدك ينهض ويتاهب للخروج . وقد طلب منك ان تلحق به وبعجل الى المكان المحدد . وفيما كان خارجا سمعته يسالك عن السبب الذي حدا بك للعودة الآن . قال هذا بلهجة اقرب الى العتاب وما كان ينتظر جوابا .

لم تذهبوا معا الى المكان الذي حدده الاسرائيليون . كل منكم ذهب بمفرده . فكرت انه ربما فعلتم هذا من باب الخجل وحتى لا يكون الواحد منكم شاهدا مليا على تفاصيل ما سيجري له وللاخرين هناك .

الرجال ، من سن الثانية عشرة الى سن الثمانين ، اللبنانيون والفلسطينيون على حد سواء ، تجمعوا في المكان المحدد على الرمال غير بعيد عن الشاطىء ، الرجال فقط ، أما النساء والأطفال فقد امروا بملازمة البيوت لحين اصدار القرارات .

امروهم بالركوع ، البعض قال انهم قد فعلوا هذا اذلالا لهم . وقال البعض الآخر ان السيطرة على رجال راكعين اسهل بمالا يقبل الجدل . الرجل قربك عجوز تقول ان ركبتيه تؤلمانه فهو في الثمانين . سالته لم جاء اذن ، اجابك انه لم يبلغ الثمانين تماما . يلزمه ستة

اشهر ايضا . وان زوجته نصحته بالذهاب حتى لا يلحقوا به الاذى ان هم عرفوا بوجوده فى البيت . ثم انه يحتاج لتصريح والا كيف سيتجول بالمدينة بعد ذلك وكيف سيتحوج الأغراض اللازمة للبيت؟ رجل متوسط السن علق على هذا بالقول للعجوز انه أخطأ بالمجيء. ما التصاريح سوى حجة لجمع الناس ... وان الغاية من هـذا كله اعتقال الشبان الذين يشتبه فى انهم من المقاومة او من انصارها.

الضباط الاسرائيليون يتجولون بين الراكعين يضعون نظارات قاتمة خضراء أو رمادية . لا يحيدون ابصارهم عن وجوه النـاس كما فعل الطيارون بل يحدقون بهم واحدا واحدا . الضباط يحملون عصيا غليظة اما الجنود فلا يضعون نظارات ولا يحملون عصيا ، بل رشاشات .. بوجهونها نحو الراكعين . الضباط يأمرون الرجال بالاقتراب واحيانا بالتراجع . عندئذ تتحرك الرءوس ثم لا تلبث أن تثبت مكانها دون حراك . العجوز قربك بعـد ان ركع وقتـا عاد وجلس . قال ان ركبتيه تؤلمانه وانه حتى فى الصلاة بات يؤدى فروضه جالسا . وقد اخذ مشورة متفقه فى الدين . والمتفقه قـال له ان الانسان غير مكلف بما ليس فى وسعه .

الاسرائيليون يراقبون الجموع الراكعة من نوافذ العمارات القريبة فوهات الرشاشات والمدافع تظهر للعيان من النوافذ والسـطوح وكذلك النواظير الكبيرة ، كلها تراقب ما يجرى تحت متأهبة للرد بالنار على أى شيء قد يحدث على غفلة .

هذه ليست جموع مكتظة . هذا بحر موجه من بشر . حقل زئبق يميل الى هذه الكفة أو تلك ، وفيما بعد ، تساءلتم كثيرا عن السبب الذى حدا بكم للامتثال ! أذ ليس هذا من سجلات القدر ولاالتاريخى بل من سجلات التزوير . اخضاع قاهر يستتب بغطرسة التفوق ، غطرسـة التفوق وحدها تجرؤ على هـذا ! نعم تسـاءلتم كثيرا عن السـبب الذى حدا بكم للامتثـال ، غير ان كـلا منكم تذكر بأن المعترض ذلك النهار قاض لا محالة . كل معترض مقتول كل معترض قتيل كل معترض قاتل . وعلى الأرجح فان كلا من هؤلاء الرجال كان مذهولا غير مصـدق ما يحـدث له وللاخرين ، تلزمه المسافة الضرورية ليستوعب عقله ما يحصـل ، كل منكم كان ينتظر مرور الوقت ليعيد ترتيب أموره الذاتية ، لياخذ ردة الفعـل الملائمة للغضب والـذل وليعرف من اين يبـدأ . كل واحد قد أدرك أن ما يجـرى على هـذه البقعة من الارض

الان هو من سجلات التزوير ، وان اعادة الامور الى نصابها امر لا مفر منه . وان تلك وعلى مدى الحياة مهمته .

ثم جيء بالمقنعين . وشخصت نحوهم الابصار اى حزن واى رهبة القاها فى النفوس قدوم المقنعين ، وجوههم مغطاة بقناع من قماش سميك لاشك فى انه صنع خصيصا لهذا اليوم . ثم توزعوا بين الناس يرافقهم الجنود حاملوا الرشاشات ، يحيطون بهم . يحرسونهم . ابصار الناس كلها تعلقت بالمقنعين حين جيء بهم .. العيون تتفحص المقنع ، تتفحص ملابسه . تتفحص مشيته وتتفحص دقائق جسمه . العيون تحاول أن تنفذ من خلف القناع لترى المقنع . القناع يغطى الوجه كله ما عدا العينين . كل واحد من الناس ، لكثرة ما حدق بالمقنع كون له فى ذهنه صورة . كل واحد قال فى نفسه أن فى مقدوره أن يتعرف به اذا ما لمحه بلا قناع . المقنع لا يتكلم ابدا . لا يصدر عنه أى صوت . فقط يشير الى أحد الراكعين فيتقدم الجنود نحو المشار اليه ويأخذونه . مرور المقنع بين الناس يوقع الرجل فى القلوب وشيئا كالحزن . لا تدرى لم أحسست وانت تراقب المقنع بأن هذا مدعاة حزن كبير .

فى بعض الاحيان كان يحصل التباس . يشير المقنع الى أحد الشبان فيتقدم الجنود ويأخذون غيره ، من كان يجلس مصادفة قربه . فيبادر المقنع الى تصحيح الخطأ . عندئذ يعاد الشخص الملتبس بأمره الى مكانه ويأخذون الآخر المعني بالشبهة . واحيانا يظل الالتباس على حاله . كثيرون اقتيدوا خطأ مع المعتقلين .

أغلب الذين أخذوهم كانوا شبانا يافعين . لكنهم أخذوا عددا من الرجال وبعض الفتيان أيضا . قلة هم الصبية الصغار الذين اعتقلوهم ولا أحد كان يعرف ذاك النهار ، الجهة التى سيأخذونهم اليها . والمعتقل الذى أصبح فى ما بعد أسطورة لم يكن قد تحدد فى أذهان الناس بعد .

أصعدوا المعتقلين الى شاحنات قريبة ، ولما امتلأت أحضروا شاحنات غيرها فارغة . منظر الشبان فى الشاحنات لا يدل على أنهم ذاهبون الى معتقل ، بل الى نزهة مع المدرسة . كانوا يتحادثون بصورة عادية واحيانا يتضاحكون او يرحبون بقدوم رفيق لهم . أحد الراكعين وراءك يتمتم . يقول اشياء . التفت اليه . رجل متوسط السن وسمعته يقول : أيها الناس . من عاش مات ومن

مات فات وكل ما هو آت آت . ليل داج ونهار ساج وسماء ذات ابراج ، الله أكبر الله أكبر . مطلع من خطبة قديمة ربما لزهير بن ابى سلمى . يكررها هي ذاتها ، وكل مرة يختمها بعبارة الله أكبر. يقولها مرتين بلهجة تشبه لهجة المصلى حين يقولها .

رجل آخر غير بعيد كان يتمتم بأشياء مختلفة ، يشتم ويتوعد بانه سينتقم وبانه سيتبرأ من أولاد السبعة . ان هم لن ينتقموا مثلما سيفعل ، أولاد السبعة ، شبابنا سيقول لهم أنهم أولاد حرام ان هم توانوا عن الانتقام .

حاولت كثيرا ان تغض النظر فلا تلمح والدك او عمك او احدا من اقربائك ، غير انك لمحتهم . اكثر من مرة وقع بصرك عليهم وهم راكعون الأمين وخالك وعمك وابيك . لا شك فى أن كثيرين قد حذرك ذاك النهار وتجاهلوا وجود أشخاص . ولاشك فى انهم قد بذلوا جهدا كى لا يكونون شاهدين على ما يجرى للآخرين ممن يعرفونهم.

الرجل مستمر فى الشتائم والوعيد والآخر مازال يردد : أيها الناس ، من عاش مات ومن مات فات ... لعله فيلســـــوف أو مجنون .

الوقت يقـــارب الظهر والشمس فى منتصف السماء تصـــدع الرءوس . تسطع على الرمال والرمال تستعر استعار آجر مصلى، حبيبات الرمال تلمع لمعان طحين من زجاج . البحر بعيـــدا يبرق بغشاء أبيض يتبخر على سطحه والشاحنات تمتلىء بالشـــبان . العجوز قربك قال أن راسه يؤلمه . ثم قال انه يؤلمه الما لا يطـــاق وانه يحس بدوار رهيب . قال انه يرى البحر يدور حول الرمال وحولكم كأنهم فى دوخة . وسالك ان كنت تحس بهذا الدوران الذى كالدويخة وان كان فى وسعك ان تفعل له شيئا . نصحته بأن يخلع قميصه ويغطى به راسه ففعل . سالك ان كانت هذه هى ضربة الشمس التى يحكون عنها ، وتمنى لو أن احدا يعطيه جرعة ماء . وندمت لأنك لم تمتثل لنصيحة والدتك وتحضر معك قنينة ماء . لو احضرتها لسقيت الرجل ، أو لصببتها على راسه . الرجل الآخر مازال يتوعد . حاول العجوز النهوض ، وقف نصف وقفة . توقف الرجل الاخر عن عبارة : والسماء ذاج ابراج . التفت الى العجوز. لم يقو على النهوض فاتكأ على كتف الرجل لكنه ما لبث أن وقع . تمدد على الأرض وبدا مغمى عليه . هب الرجل وصاح : بأعلى صوته : أيها الناس . من عاش مات . وقبل أن يتابع خطبته وثب

جنديان اسرائيليان نحوه وسددا رشاشيهما الى جسده . وعلى الارجح فقد خيل اليهم انه مسلح أو انه سيرميهم بقنبلة . الطريقة التى هب بها اثارت بهم الذعر ، ولما تأكدوا من انه أعزل اقتادوه صوب الشاحنة . الرجل يحاول التملص لمتابعة خطبته . يصيح : أيها الناس هذا عجوز مات من العطش . ومن مات فات . الجندى يحاول أن يكتم فمه والآخر يضربه بعقب البندقية والرجل مصمم على الافلات : أيها الناس ستموتون جميعا بضربة الشمس . جاء جنود آخرون فامسكوه واوقعوه . ضربوه بأعقاب البنادق وركلوه ثم اقتادوه بعيدا ولم يصعدوه فى الشاحنة مع سائر الشبان .

ظل العجوز ممدا بين الرجال ولم يتول الجنود الاسرائيليين نقله ، كذلك لم يسمحوا للآخرين بان ينقلوه . ولا تعلم ماذا حل به بعد ذلك . كانت الجموع تتقدم باتجاه المنصة الخيمة ، التى يجلس فيها بعض الضباط وحولهم الجنود ومقنع فى المنتصف . مثل لجنة فاحصة فى امتحان رسمى ، كل واحد بمفرده يمثل أمامها لأخذ التصريح . يهز المقنع رأسه بالموافقة فيسلم التصريح لصاحب الشأن واذا لم يفعل ، أن هو رفع سبابته بالنفى اقتيد المعنى الى الشاحنة .

عين الشمس ما زالت تسطع . تحدق . تصدع الرءوس . والحرارة تصعد من الارض وتنفذ الى الاجساد تتصبب منها عرقا . النور يبهر الابصار والابصار شاخصة الى المنصة . لابد أن كل واحد من هؤلاء المجتمعين كان يتساءل عن معقولية هذا . عن مغزى ما يحدث وما سيحدث فيما بعد . كل واحد من هؤلاء يحاول أن يجد فى رأسه صورة ما يعبر فيها لاحقا عما يعتمل فى داخله فى غضب . كان ما يجرى له وللآخرين الآن لا يدخل فى نمط المعقول بل يدور فى فيلم عجيب وأن الواقع سيبدأ فيما بعد . حين يرجعون الى بيوتهم ، حين يلملمون شتات عقولهم المذوية بلهيب القيظ ويستعيدون قدرات جهازهم العصبى المشلولة بالارهاق والالام ، ليصدقوا أن ما حدث لهم قد حدث بالفعل وأنهم ليسوا ممثلين ثانويين فى فيلم سمج حكم عليهم الاسهام به . كل منهم كان أكيدا أن شيئا ما رهيبا وعظيما سيحدث فى هذه البقعة فى الأرض . شيئا لا يعرف له صورة محددة سلفا لكنه سيحدث بالتأكيد .

وسيظل ما جرى ذلك النهار لغزا في الاذهان . ذاك النهار كان على النحو الذى شهدت والذى مازال يتحدث به الناس . الضابطان الاسرائيليان يجلسان تحت الخيمة وراء الطاولة . حولهما وخلفهما الجنود والمقنع جالس بينهما . الرجال الراكعون يزحفون الى المنصة لاخذ التصاريح والمقنع يهز راسه بالموافقة أو الرفض . الجموع ماخوذة باليأس والحر وباطياف ذكريات ما حصل فى الايام السابقة وبلا معقولية ما يجرى لهم الآن . ورجل وراءك يتلو آيات . لا يتوعد مثل الذى قال خطبة واقتادوه . فقط يتلو آيات . وكنت انت ايضا ماخوذا بكل هذا حين حدث ما حدث . .

لمحت الأمين عن بعد يمط جسده ويرفع راسه وبشخص نحو المنصة ، يحاول أن يتبين شيئا . ووالدك فى ذات اللحظة رفع راسه وشخص الى المنصة هو ايضا ، فشخصت اليها بدورك لمعرفة مايثير اهتمام ذويك . ورايته . نعم هذا هو البطاش لا مراء فى ذلك . صورتك مع هذا الفارق . . . ومددت يدك الى ذقنك فقطنت الى انك مازلت ملتحيا . وتذكرت الحديث الذى دار بينك وبين الأمين فى ذاك اللقاء الذى كنت تظنه ، ولفترة طويلة ، من سجلات المتخيل. واحسست بضربات قلبك تضج فى ضلوعه وسمعت انفاسه تلهث . ها انك تقف واياه وجها لوجه فى يوم تاريخى على مرأى من آلاف الرجال وتحت اشعة شمس ضارية . فى داخلك وجل عظيم كانك تلقاه ليس فى وضح هذا النهار بل فى كواليس مظلمة وقد فاجاك بساطور . وهو لا يعيرك انتباها . بل يقف أمام الضابطين الاسرائيليين وأمام المقنع منتظرا الجواب . وخيل اليك انه لا مبالى. هذا غير الشخص الذى ارتسمت صورته فى مخيلتك وظلت تطاردك ردهة طويلة من الزمن . ذلك الذى كده الشقاء واثقل عليه الزمن وخلف ندوبا وجروحا فى الوجه والعيون . هذا الواقف امامك غير ذاك المتخيل . نعم يبدو خلاف ما توقعت ، حسن المظهر رصينا واثقا وربما انه غير مبالى . ولولا الشبه الذى حدثك به الأمين والذى تتبينه الآن بنفسك لما استرعى وجوده انتباهك . ورغم هذا فقلبك يضج وضلوعه تخفق . ربما لمجرد أن الملابسات قد تشكلت ماساويا على هذا النحو العجيب .. هكذا ساقتك الاقدار أو سقت نفسك انت اليها لتشهد . وها هو المقنع يهز راسه واضح انه من خلف القناع يحدق به . وها هو المقنع يهز راسه

بالنفي . يميل به الى هذه الجهة وتلك ، يقول لا . باصرار يقول لا . غريب ! ويرفع سبابته . اكيد انه يقول لا . وها هما الضابطان يراقبان حركة المقنع ويومئان الى الجنود فيأخذونه . وكانه كان ينتظر ذلك . فهو حين اقتادوه لم يبدر عنه اى استغراب او مقاومة .

في صدرك وجلٌ عظيم . لم يلتفت اليكَ ولم يعركَ انتباها ولم يبد انه كان يبحث في الوجوه عن أحد منكم . كنت تتمنى لو يلتفت اليك لتتأكد . لتمعن النظر بقسمات الوجه . فالشبه هذا ، رغم علمك المسبق به يوقعك في صدرك الرهبة . كنت ماخوذا بافكارك ومذعولا بما يجرى . وسطح البحر يبرق ببياض . ندف ثلج لاهية تتحرك فوقه والرمال المصلية تلمع ببياض هي الاخرى وآلاف الرجال راكعون ركوع ابي الهول . والدك ، ذاك الكيان البطركي الصامت راكع ايضا وعمك راكع وخالك والامين . كل رجل في البلدة كان في ذاك النهار راكعا . نعم ، في ملهاة مأسوية مثل هذه لم لا تقابل البطاش ! كيف لا يكون كل شيء معقولا في هذا السياق اللامعقول ! لم لا يكون البطاش أخاك الفعلي وليس المنكر ! شقيقك التوأم . نشأتما وترعرعتما معا ، ثم وقبل ان تدخل الذكريات الوعي اجتاحتكما عاصفة سوداء فاطاحت باحدكما وتركت الآخر . ثم وبعد حقبة من الزمن اجتاحتكما عاصفة اشد سوادا فحدث بينكما هذا اللقاء المذهل . كنت ماخوذا بافكار شتى حين تقدم الجنود اليه وساقوه. وقد رايته وهو يتجه الى الشاحنة ورايته وهو يصعد اليها ورايت الشاحنة تتحركَ مكتظة بالشبان ، وتبعثر الرمالَ تحت عجلاتها وتبتعد والرمال تتعاطى تغشى الرؤية . ورغم هذا فانه ظل يتراءى لكَ في مؤخرة الشاحنة وحوله ووراءه سائر المعتقلين ، يتراءى لكَ وانت تحدق به غير مصدقَ .

وظللت تحدق به تلاحق الشاحنة وهوَ فيَ مؤخرتها الى ان توارت الشاحنة كليا من الابصار .

الجزء الرابع

٣٢

كنت أسير اختلاف فأضحيت اسير شبه ، استدعوني وقالوا انه من الاجدى في مغادرة المنطقة كي لا يشتبه بأمري . كثيرون أخذوا بالشبهة او الاشتباه . لم يبق واحد اشتبه به الا وساقوه الى المعتقل ذاك ، الذي أضحى في ما بعد أسطورة . منهم من كان على صلة واضحة بالمقاومة ومنهم من لم يكن على صلة بها اطلاقا ولا أحد يعرف لم أخذوا البطاش .

هكذا عدت الى بيروت وفتحت المنزل القائم في الطرف الغربي من العاصمة وجرى ترتيب الامور لتأمين راحتي. وقالت أمي انها ستأتي الى من حين لاخر للغرض ذاته . البيت هو هو لكن كل شيء في المدينة قد تغير . المدينة هذه غيرها تلك التي عرفت . وعلى أن أبدأ من نقطة ما ولا يمكن القيام بما لا يهواه القلب ، فمن أين أبدأ ؟

لقيت عبد الله مصادفة في الطريق . وبعكس ما توقعت فقد اخذني في الاحضان كما كان من المفروض لشوقي انه يفعل. ودعوته الى البيت . استذكرنا أشياء وتحادثنا بأشياء . وقال عبد الله ان في وسع الانسان البدء من جديد حتى وان بلغ نقطة الصفر .

لكن ما هي نقطة الصفر ؟ هي النقطة الذي يصل اليها الانسان اذا ما قاوم الانهيار .

يتكلم بهدوء وثقة . ويقول ان نقطة الصفر هي ذاتها في الغالب نقطة التحول . عبد الله قد تغير هو الاخر . ربما أن طريقته في التعبير او هذا الهدوء قد أوحيا لي بذلك . حكي لي عن تجربته بعد التخرج . عمل مهندسا في الخليج بضع سنوات ثم عاد لقضاء أجازة في لبنان . كان به حنين الى الاقارب والاصدقاء والى تلك الايام ... لكنه في مروره على أحد الحواجز اعترضه مسلحون واختطفوه . لا يدري لم اختطفوه . شهور طويلة ظل معتقلا ولا أحد يعلم عنه شيئا. شهور طويلة أمضى بعضها في زنزانة تكاد لا تتسع له . وأخبرني أشياء عن أساليب التعذيب النفسي والجسدي . استغربت كيف يمكن لانسان نحيل ورقيق مثله أن يقوى على هذا الاختبار . واستغربت كيف أنه بعد هذا عاد وتجرأ على العودة الى لبنان . قال انه قاوم . كيف قاوم؟ بالامل . بالثراء الداخلي . في داخل كل انسان جنائن لو عرف كيف يرعاها لبلغ النعيم . ما الجسد الذي تراه سوى بيت طائر ، مقر خيال

لا يحده الافق . كنت اطلقت جناحي واحلق . اطال اكثر النجوم بعدا . الجسد هذا لو تحرر الانسان من حدوده لبلغ المعجزات . الحدود هي مسببات الشقاء . وكيف يتحرر الانسان من الحدود ؟ كما قلت لك . بالتفتح الداخلي . هكذا وفي الزنزانة تعلمت الرسم كيف تعلمت في الزنزانة الرسم ؟ كيف حصلت على عدة الرسم ؟ ما حصلت على عدة رسم . العدة موجودة هنا . وأشار الى صدره . موجودة هنا . واشار الى راسه . الاشياء في غالبيتها موجودة في دواخلنا وما علينا سوى اطلاقها من عقالها . كنت اذا ما انتهيت من لوحة وضعتها في ادراج ذاكرتي . واذا ما احتاجت الى تعديل اجريت عليها التعديل . اللوحات هذه كانت تمرح في ذهني مراح فراشات في الحقول . هكذا لم أطلق سراحي بعد سنة ونصف لم أجد مشقة كبرى في أن أنقل على الورق ما سبق ورسمته في الخيال . ها هو يتكلم مثل عجوز القلعة ! مع الفارق أن هذا الاخير لم يتسن له تجسيد أحلامه . لو أنهم اعفوا عنه لفعل المعجزات في مزرعته التي بناها في صرح الخيال . والان؟! تركت العمل في الهندسة وتفرغت للرسم . أقمت معرضا هنا ودعوت للاشتراك بمعرض في الخارج . كان هذا هو القرار .

وترددت في سؤاله عن كرستين . خشيت أن يحكي لي اشياء حكاها شوقي . لكن عبد الله ضحك . قهقهة الاعماق ذاتها التي عرفناها . وقال الحب هو الاقوى .. الحب خالد . يقول هذا ليذكرني بحادثة بعيدة تعود لتلك الايام ! عبد الله وكرستين تعارفا في الجامعة . صعوبات كانت تعترض زواجهما تعود الى فارق الدين .. في الفترة ذاتها دعي الشاعر أراغون الى لبنان في اطار النشاطات الثقافية لمهرجانات الصيف في بعلبك . وفي زحمة استقبال الشاعر والتفاف الناس حوله تمكن عبد الله من الوصول اليه ومعه بطاقة بيضاء . عبد الله يومها تمكن من القول للشاعر ان حبهما هو وهي تعترضه عقبات . وطلب منه توقيعا على البطاقة . فكتب اراغون شيئا عن قوة الحب وعن خلوده . وقتها حدث جدال فيما بيننا حول تفسير الفقرة الثانية . قال البعض ان الشاعر لا يقصد بها أن حبهما هو الخالد ، بل لعله يشير الى خلود الحب في الاساس .

وجلسنا نستذكر تلك الايام . منذ أمد بعيد لم أحس بانفراج مثل هذا . عبد الله آنذاك كان خاله عضوا ناشطا في لجنة مهرجانات بعلبك . كان البعض منا في الصيف يتطوع للعمل مع اللجنة لقاء أجازة ممتعة وحضور البرامج . هكذا تسنى لنا مقابلة شخصيات ونجوم وفنانين ، عرب وأجانب من مختلف الجنسيات . أم كلثوم

وعبد الحليم حافظ وجورج موستاكي وداليدا وأراغون وقائد الاوركسترا العالمي كاريان وغيرهم كثيرون • كذلك قلما كنا نفوت لقاء في دار الفن والادب أو غيرهما من المراكز الثقافية • بالنسبة لي كان لقاؤنا المخرج الفرنسي فرانسوا تروفو هو الاهم • كان قد دعي الى مهرجان الافلام الناطقة باللغة الفرنسية في قصر البستان في بيت مري . انسان رقيق ونحيل يتكلم من غير انفعال . يحادث بصوت خفيض . حساسية فائقة تتخذ صورة الهدوء . يومها عرض له فيلم « ليلة أمريكية » . فنان مرهف يكافيء نفسه بفيلم يدور حول المتاعب التي يلقاها المخرج أثناء العمل • مسائل صغيرة وكبيرة ، وحساسيات العاملين معه الكبار منهم والصغار ، يعالجها بصبر وأناة • المتاعب تمر به فتتحول الى مادة خلاقة تطور المسار الابداعي للفيلم . والفيلم على رقته لم يحظ باستحسان البعض • الجمهور انذاك كان متعطشا لاعمال هادفة والى فكر سياسي وايديولوجيات. من تلك الاعمال التي تعالج قضايا المجتمعات • وانبرى بعض المثقفين يناقشون «تروفو» . يعترضون ليس على مضمون الفيلم بل على الاختيار ذاته. وهو يرد عليهم بأدب فائق . موقف المثقفين أغاظ كرستين . قالت ان هذا النمط من المثقفين لا يمل من اجترار الافكار التي تدور في راسه. هؤلاء يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بالاشياء الجميلة • دائما على غير رضي دائما يصرون على أن تكون الاشياء طبق اصل لصور رسموها في أذهانهم . وكانت يومها من الجراة بأن ابنت رايها أمام الحاضرين ، وكان الحاضرون بالمئات •

وسألت عبد الله عن كرستين فابتسم وقال : لم تتغير . مازالت كما عهدتها نشيطة ومتفائلة • وهي الان بعد أن كبر الاولاد عادت الى التدريس لكنها تفكر مجددا بالدراسة . مازالت مهتمة بتربوية التعليم . أثناء ما كنت مخطوفا نشطت مع أهالي المخطوفين للعمل على الافراج عنهم وبعضهم ما زال لحد الان يزورها بين الحين والحين لاخذ الرأي •

كرستين فتاة رائعة الجمال ، لها عينا ظبية وشعر أسود فاحم وبشرة سمراء وقامة نحيلة وممشوقة كالغصن • أذكر أن حنان ، حين عاد عبد الله ومعه البطاقة الموقعة من أراغون ، التفتت الى كرستين وقالت : حبكما أصبح خالدا بدمغة اراغون . أما نحن ، ونظرت الي، ضاحكة وتابعت ، لا أحد يعلم . لكننا لم نحصل على الدمغة .

وسألني عبد الله عن نفسي فاحترت في الجواب • ماذا أقول له ؟ الاحداث هذه التي عشتها والملابسات ليس من اليسير الافضاء بها لاحد•

بعض الاشياء أن هي لم تصل الى الاخرين في وقتها المناسب أصبح من العسير الافضاء بها فيما بعد. مثل دمل كلما فار في الجسد صعب استئصاله . كان في ودي ان أخبره بكل هذا . منذ اليوم الذي استدعوني فيه ، أول دخولي الجامعة ، وقصوا علي حكاية البطاش حتى اسابيع خلت يوم ركعت المدينة بأسرها ووقفت مع البطاش وجها لوجه، واشير اليه المقنع بالنفي واقتادوه الى المعتقل . كان في ودي ان أقول له اني أنا الاخر راغب في أن اضع أحمالي وأغدو كما قال خفيفـــا كالعصفور ، حرا كهواء الربيع . راغب في ان أحلق خارج زنزانتي . كيف يصبح الانسان حرا ؟ ينتزع من نفسه الخوف . وقلت في نفسي إنشمع الاحاسيس الخوف . وقال هو : الخوف هو السجن الاكبر . وأنه بعد هذه التجربة ما من شيء عاد يلقي الخوف في قلبه . رائع أن يصبح الانسان خارج الاسر وخارج الخوف .

وسألته :

ـ هل قابلت أحدا ؟

ـ قابلت شوقي مصادفة ..

ثم تنهد وقال :

ـ لشد ما تغير شوقي

وقلت لي نفسي : ولشد ما تغيرت آمال . ثم تجرأت وســـألته : ان كان يظن بأني ، أنا شخصيا ، قد تغيرت .

ـ لا . لا أظنك تغيرت .

لكنه بعد برهة صمت قال :

ـ بل لعلك تغيرت . أو تغير فيك شيء ما لا أعلم ما هو .

وسألني عن تجربتي في فرنسا فقلت له ان الثمرة التي جنيتهـا هناك لا تقع فقط في حيز المعرفة بل أيضا في حيز التواصل . كسبت اصدقاء جدد . اناسا رائعين . فقال : ان معرفة لا تفضي الى التواصل مآلها العجز ، أو القهر . ماذا يقصد ؟ الكثير من أسباب القهر في هذا العصر قد بني نتاج المعرفة .

وسألني ثانية عن نفسي وألح بالسؤال فلم أخبره اني أعالج عملا روائيا بل اكتفيت بالقول اني دونت أوراقا وفصولا عن تجربتي ابان الحرب وقبل الحرب في بيروت . فتنهد وقال :

ـ لشد ما تغيرت بيروت

ثم لمعت عيناه وقال :

ـ ليتك تفعل هذا . ليتك تكتب عن بيروت .

ـ لكن ..

ـ ليتك تكتب عن تجربتنا في بيروت .

أذكر أني في تلك الجلسة التي يصعب استذكارها حكيت للطبيب عن المصاعب التي تواجهني في اكمال روايتي • منذ شرنقه اصبحت داخل هذه الرواية . هل كتب لي العيش أبدا داخل الحدث الدرامي •

وسمعته يقول :

ـ كلنا يحيا داخل الحدث الدرامي •

والرواية هذه لخبطت أشياء • حتى أني بعد أن كتبت ما كتبت لم يعد في وسعي تمييز المعاش عن المكتوب . ولعل الاحداث لم تجر على هذا النحو بل أن سياقها الروائي أوهمني انها قد جرت على هذا النحو .

ـ ليس اليقين بالامر اليسير •

ـ لكن اوليس الدلالات ••

ـ الدلالات هي ذاتها في الواقع وفي المتخيل •

ـ انما الكتابة فن ••

ـ للتجارب كلها وجه فني •

ـ فن لا دراية لي به . الضمائر تتلخبط فيها كما الازمنة ..

ـ دع الامور عفوية واكتف بالتسجيل . هاهو بلامشقة يعطيني المفتاح • فلامعنى ولمعنى الاحداث والشخصيات نفسها بنفسها ، وأنا ليس في وسعي سوى تسجيلها كما تحفر في الذهن وسأكون سعيدا أن يشاركني أصدقائي في الخارج تجربتي هذه . بالوجدان . لكن حكاية البطاش ! غريب •• لم أخبرهم بتلك الحكاية ! حدثتهم عن العم موسى أكثر من مرة حدثتهم عنه ، في المرة الاولى كنا بضعة أشخاص نتسامر قرب المدفأة عند صديق لنا من أصل لبناني ، مولود في داكار اسمه غسان • وعبرت في رأسي ذكرى العم موسى فأخبرتهم بحكايتنا معه • وأدهشني ذلك الاصغاء • حتى اني وقتئذ كنت لا أسمع سوى صوتي وصوت الحطب يتكتك في المدفأة • كنت أعتد أن شخصية العم موسى مدهشة ، انما كان يخيل لي أنها تدهشنا نحن فقط • واذا بي اكتشف أناسا لا علاقة لهم به ولا بواقعنا وما هم زاروا بيروت يوما ، يستمعون الى تلك الحكاية ويتعلقون بأهداب التفاصيل • لم اكن أعلم أن لي براعة في الوصف • ثم فطنت الى أن البراعة ليست براعتي بل براعة العم موسى . غير اني لم أحك لهم عن البطاش . بيسار لن يعلق بشيء وربما أوجد لي التبرير الملائم • ومريام •• ماذا ستقول مريام ؟ ما أهمية ذلك ستقول . وفي نهاية الامر من هو البطاش ؟ داخل كل منا بطاش • أما جوانا فسيأخذها العجب وتقول : ها هو

يبوح بكل شيء . أكانت لابد من هذه الحرب وهذا الرحيل لكي يفصح عن الخفي ! ها قد خرج الان عن صمته وكشف السر . والسر هو البطاش . ما سيذهلهم على الارجح ليست الحكاية بحد ذاتها . على الرغم من انها مذهلة ، بل اخفاؤها على هذا النحو هو ما سيسبب لهم الذهول . ثم فطنت الى ذاك الاحتمال انه قد يخيل اليهم ان حكاية البطاش بدعة من الخيال ابتكرتها بحثا عن عنصر درامي مفقود .

هكذا قررت أن أكتب . وهكذا سيتيسر لي قراءة تجربتي وأكون المستفيد الاول منها . هذا ما قاله الطبيب . العناصر الدرامية متوفرة لا تخف .. ثم ان المسافة الضرورية لاستعادة الاشياء في الذهن تبدو ملائمة والتجربة تقارب نهايتها .. اني أرى من بعيد ذلك القادم من فرنسا بعد أن تلقى برقيته التي تدعوه اليهم . أراه نازلا سلم الطائرة وفي صدره لهفة طفل . هذا مالا يمكن نسيانه أبدا . محطة من محطات العمر . تماما مثلما هي محطة أن تتركه ميريام . أن تقول له هكذا دون مداراة أنها أحبت شخصا آخر وأن عليه أن يقبل . ورغم حزن الفراق هناك أحس برعشة في الفؤاد للقاء احبته هنا . بدت له المدينة من فوق مثل نسر فرد جناحيه على الرمال وترك رأسه يغط في محيط أزرق . يا لتلك المدينة الساحرة ! قسماتها المطوية في حنايا الضلوع المتوغلة في شعاب الذاكرة .. أي سر في هذا الحنين ! كان منفصلا لملاقاتهم . هو يعرف أن أمه نفسها لن تأتي لاستقباله في المطار. عودته أن تنتظره في البيت ، تحضر ما يطيب له من طعام وحلوى تنشر الزهور . ولمسات على بساطتها تبعث البهجة في المنزل . وتتاهب للقيام .. أية قوة يملكها ذاك الذي يملك يقينا مثل هذا ! ان تحبه تلك التي جاءت به الى العالم حب العالم هذا كله ! في البدء كان يحس بهذا الحب مثل عبء كبير لا قدرة له على احتماله. ومع الوقت راح العبء وبقي هذا اليقين كنزا سريا في القلب . لم يكن له معها أشياء مشتركة كالهوايات ، انما كان لهما عالم خاص . شيء مثل تفاهم صامت وعميق . هكذا هو معها .. وبالطبع لم يفاجئه عدم حضورها بل أقلقه ان أحدا لم يلقه في المطار سوى الامين . الامين يعرفه منذ أن تفتحت عيناه على الحياة . بدأ عمله مشرفا على أرض أبيه وحين انتقلوا الى بيروت كبرت مسئولياته فأصبح مؤتمنا على كل شيء . كان الامين يحبه ، ولطالما شاركه عبث الخيال والاحلام بعكس والده الذي كان يكلمه بالعقل وحده . حتى انه كان يشك أحيانا في حبه له . كان يخيل اليه أن والده يؤثر عليه أخته جاجا . كانت جاجا تبكي لاتفه الاسباب ولطالما كانت تشكوه لوالده الذي قبل أن يستمع الى التفاصيل

يضع اللائمة عليه . انت الكبير ، يقول له ، وهي صغيرة لا تفهم . كان في تلك اللحظة ينظر اليها فلا يراها صغيرة بل يمقتها لدلعها . وكم دهش مرة حين سمع الامين يحدث زائرا ، بأن والده لا يحب انسانا في هذه الدنيا قدر حبه له . وقد خيل اليه ساعتئذ أن الامين غلطان . بل كان أكيدا من أنه غلطان ، والا لم يخفي والده حبه الكبير هذا عنه ولا يخفيه عن جاجا ! أمه لا تفعل هذا . كانت جاجا متعلقة بها تتبعها كظلها تمسك بطرف ثوبها وتدس نفسها فيه وهو ما احس يومابغيره على أمه من جاجا. كان لديه ذاك الاحساس بأن بينه وبين أمه حبا مثل سر عظيم يدركه كلاهما بالنظرة . وحين تنظر اليه يخيل اليه أنهما في كل مرة كأنها تراه لاول مرة . كان يحب جاجا لكنه قلما شاركها أفكاره. ربما لانه كان يعتبرها غير أهل لذلك . ولم يخطر له أن يحدثها عن الشاطىء الابيض المتماوج وعن البحر . كان هو شغفا بالبحر . يراقب حركاتها وتحركات المراكب فيه . المراكب الكبيرة التي تغيب في الداخل تصطاد الاسماك ، أو تبحر الى مدن طالما تراءت له في الخيال . المراكب الصغيرة لا تصطاد السمك بل تتهادى كعرائس ورق يأخذها الفتيان في نزهاتهم . وبعضهم يذهب في مركب بخاري يقوده بحار متقاعد . لم يكن والده ليسمح له برحلات مثل هذه . يقول له : أنت صغير ولا تجيد السباحة. كلام مثل هذا . كان يغيظه والده تنقصه الامانة ! بنفسه طلب من الامين أن يعلمه السباحة أريدك أن تعلمه أصول السباحة قال . أريده سباحا ماهرا . أو دبر له من يعلمه . وعلى مسمعه شهد له الامين بالمهارة وقال : غدا يكبر ويقطع المانش .

وظلت تلح عليه فكرة الذهاب مع الاولاد في النزهة البحرية تلك. وذات مرة قال لوالده انه ذاهب الى القرية لزيارة الاقرباء . كان عند والده حنين لصلات القربى هذه . وكان يصحبه الى القرية مرات في السنة يقضي فيها أياما ذات طابع استثنائي مثل أيام العيد . ولم يكن يزعجه أنه مختلف عن أقربائه أولئك ، أقرانه الذين لم يبارحوا القرية أبدا ، فقد كانوا يحبونه . ربما لان هناك سحرا ما آت من المدينة يجذبه اليهم . ثم تباعدت الزيارات بعد نزوله مع أهله الى بيروت . يذكر انه أخبر والده بنيته في الذهاب الى القرية لكنه بدل أن يتجه اليها راح مع الاولاد في المركب . كان يوما من تلك الايام التي تبقى حية في الذاكرة أبدا ! يومها اكتشف عالما قائما بذاته كان غائبا عنه . دهش كيف كان البحار يحادث الاولاد طيلة الرحلة بكلام مفهوم غير مفهوم . يسألهم فيجيبون . الالفاظ عربية لكن الكلام غريب مركب ! واطربه ايقاع الاخذ والرد. انها لغة البحارة وطريقتهم في

الكلام . أمن الاسماك تعلمها أم من الامواج ؟ يقول البحار جمله فينطلق الاولاد بأغنية . واضح انهم قد دابوا على التنزه معه والا لما امتثلوا بهذه السرعة لكلامه ، وحفظوا عن ظهر قلب تلك الاناشيد الشذلى . وغبط هؤلاء الاولاد ، واحس بالاغنيات كانها تجيء من بقعة اخرى من العالم . هكذا امضى فاصلا زمنيا لا يشبه ما رآه قبلا . من هم هؤلاء الاولاد وأى المدارس يرتادون ؟ لم لا يصادفهم فى حياته اليومية! وأحس حياته هو ناقصة وسطحية فقرر أن يعيد التجربة ، لكن الامين ضيعه فى طريق العودة وخاف أن يشكوه لوالده. ووعده الامين بالا يفعل لقاء وعد منه بالا يعيد الكرة . سأله عن السبب فأجابه الامين باشياء لا يقبلها العقل . الأمين فى مواقف مثل هذه يتكلم مثل والده . حدثه بأمور تتعلق بكفاءة هذا النوع من المراكب .. الأمين يتكلم وهو منسحب يستعيد فى خياله تفاصيل الرحلة والنعمة التى يعيش فيها الاولاد ، وذاك الانطلاق وايقاع الاخذ والرد . يستعيد كل هذا والأمين يكرر على مسمعه بانه سيصحبه فى رحلة فى مركب مع العائلة فينقبض صدره . ما يسحره فى ذلك ليس المركب بل الاولاد وفرحة المشاركة. الاخذ والايقاع والرد . وجدد الامين وعده بألا يخبر والده بما فعل . ورغم حزنه لضياع الفرصة فقد كبر الأمين يومها فى ناظريه .

أمور مثل هذه كانت تميزه عن جاجا . جاجا حياتها محدودة وهى لا تجرؤ على الذهاب وحدها الى البحر . كانت تلعب مع رفيقات لها فى البيت أو الحديقة أو تصحبها أمها فى زيارة أمهات لهن فتيات من سنها . كانت تذهب الى البحر مع والدها الذى علمها السباحة بنفسه . هو يشك فى أن جاجا كانت شغفة بالبحر . وعلى الأرجح ، ما كان يدفعها اليه ليس الرغبة فى السباحة ، بل صحبة والدها كانت هى الدافع. يقول لها نذهب . ويومىء برأسه نحو الغرب فتفهم . وتسرع لتغير ملابسها وتمسك بيده . وهكذا تعلمت جاجا السباحة دون مشقة وبرعت فيها . وكانت جاجا تتحرش به لكى يلعب معها ، وكان هو يحب أن يلعب معها لولا أن اللعب كان كل مرة ينتهى بمشكلة . لم يكن يرضيه طبعا أن تغلبه فى اللعب فهو الكبير كما يقول والده . وكانت هى اذا ماغلبها بكت وتمرغت على الارض ، تضربها بقدميها ثم تذهب وتشكوه لوالده وكان والدها حكما يضبط أصول اللعب . وكان يستغرب هو كيف أن شخصا مهما مثل والده يتدخل فى أمور تافهة مثل هذه ! كانت جاجا تقول له وهو يصغى اليها : غشاش . غلبنى

بالغش • وهو في حقيقة الامر لم يكن يغش ليغيظهـــا بل لاحســـاس داخلي لديه بان الغش في اللعب هو جزء من اللعب . كان يغيظه ان جاجا اذا ما عاد والدها الى البيت قطعت اللعبة في منتصفها • وكأنهـا كانت تلعب لتملأ فراغها أثناء غيبته • وما أن تراه جالسا حتى تهرع اليه لتجلس على ركبتيه وكأن ركبتي والدها كنبة • كانت تفعل ذلك برشاقة وتمرس • تقف على رءوس اصابع قدميها وترفع جسمها و •• أوب •• تصبح فوق ثم تنظر اليه بشماتة كأنما لتذكره بأن الجالس على ركبتي والده هي وليس هو • ورغم ذلك كان يحبها • يهتم بهـا في المدرسة فلا يجرؤ أحد من الاولاد على ضربها في الملعب . فاذا ما حصـــل هذا نظرت اليه دون كلام نظـــرة يعرف مغزاها ، فيهـا استعطاف ودعوة للتدخل • وكان غالبا ما يتدخل لنصرتها أو الانتقام لها • لكنه كان يخاف على جاجا من الصراط المستقيم • ويخيل اليـه أن الصراط المستقيم حبل رفيع مثل حبل الغسيل ، يتسلقه الممتحن يوم الحساب ويسير عليه مثل لاعب سيرك ، فاذا ما نجح في اجتيازه وصل الى الجنة • فالجنة في خيـــاله تقع هناك في الطرف الآخر من الحبل • واذا ما وقع الممتحن هوى في النار • ولطـالما تراءت له جاجا متسلقة هذا الحبل بفستان أبيض منقوش كفســاتين لعب العرائس • تتهادى . تميل الى هذه الناحية وتلك . وكان يغيظه انها تتهادى لا مبالية كعادتها ، تفتح ذراعيها لتحفظ توازنها شأنها حين تلعب • وقد اشتد به الخوف مرة من أن تقع في النار وارقه خوفه في الليل فسأل جدته في اليوم التالي ان كانت جاجا حين ستموت ستذهب الى الجنـة ام الى النار . يذكر تماما ان الجدة استنكرت أن يفكر هو بموت جاجا. وقالت له ان جاجا ماتزال صغيرة وانها ان شاء الله ســتكبر وتتزوج وبصبح لها أولا . وتخيـــل هـو أولاد جاجا صـــغارا كأصـابع اليد أو مثـــل العصـاب الكاوتشـــوك التي يشربهـــــا من الدكان . وظـــل مؤرقا .. فكـــلام جـدته عن مـستقبل جاجا وأولادها لم يطمئنه فجاجا لا تصلي • عاد يلح على جدته ويســـألها اذا كان الحساب العسير يلحق بالفتيات الصـــغيرات مثل جاجا • وبعد تفكير قالت جدته ان لديهن متسعا من الوقت حتى سن الثانية عشرة • لكن صديقتها أم مصطفى خالفتها الرأي مؤكدة أنه على الفتيـات البدء بالصلاة في سن التاسعة • وعندما حسب السنين في عقلـه اطمأن : أمام جاجا سنتان في حساب أم مصطفى وخمس سنوات في حســـاب جدته •

وذات مرة قال لها :

ـ يجب أن تتعلمي الصلاة يا جاجا ·
ـ الصلاة ! أنا صغيرة يا أبله والصلاة طويلة ·· طويلة ··
قالت ذلك ومدت ذراعيهـــا الاثنتين وهي تلفظ كلمة طويلة · وحاول اقناعها فحدثها عن الصراط المستقيم وهوة جهنم التي تنتظرها · ثم أكد عليها أن تتعلم الصلاة كي لا تذهب الى النار ·
رفعت جاجا كتفيها غير آبهة بما يقول . بل تمايلت بغنجها المعتاد وقضمت قطعة من لوح الشوكولا الذى كان في يدها وعملت طاق طاق بلسانها ثم قالت :
ـ انا لا اذهب الى النار . ثم ان الماما لا تصلى .
فقال لها بلهجة واثقة :
ـ يابلهاء الماما كبيرة .. ثم ان الله يحب الامهـــات كثيراً ولا يرسلهن أبدا الى النار ·
تمايلت جاجا وقالت :
ـ سأقول له ـ تقصد لله ـ انى سأبقى مع ماما لانى صغيرة ·
وبصبر وعاطفة حقيقية قال لها :
ـ يا أختى يا جاجا يوم القيامة سيكون الله مشـــغولا جدا ولن يسمع كلامك كل أهل البلد سيكونون هناك يوم القيامة ·
وأحس بالزهو ، وعبارة أهل البلد تخرج من فمه بلهجة تشـــبه لهجة الأمين ووالده حين يذكراها · وبثقة لا ينازعها الشك قال لجاجا :
ـ اسمعى ياجاجا · حبل الصراط المستقيم للفتيـــات الصغيرات فقط · لذا لابد وأن تتعلمى الصلاة ·
ـ قلت لك سأبقى مع الماما ولن اتسلق الحبل .
قالت ذلك ورفعت كتفيها من جديد وهى تقضم الشوكولا وتلحس شفتيها . واغتاظ هو لانها لم تأخذ كلامه على محمل الجد . ولشدة غيظه رفض أن يأكل من الشوكولا · أحس أنهـــا تقدم له رشوة · وسمعها من جديد تعمل بلسانها طاق طاق ·
وذات مرة ، خطر له ، لا يدرى كيف ، أن يقول لجاجا هذا الكلام : جدتها لا تحبها بل تحب الصبيان فقط · قال ذلك وما انتظر ان يكون لكلامه هذا الوقع عليها ! تبدلت سحنتها بشكل غريب ثم طفقت تبكى وترفسه بقدميها · كانت في العادة تفعل هذا وكان هو يضحك · لكنه هذه المرة هاله التأثر الذى بان في وجهها وأصابه ندم · يذكر أنه ظـل فترة طويلة كلما تراءى له وجهها مربدا هكذا تولاه الاشـــفاق وشىء

ما يعتصر في القلب · ومنذ تلك الحادثة أدرك كم هو يحبها · يذكر ان صوتا هتف في صدره يكاد يكون مسموعا يقول : أنا أحب أختي جاجا · ومن يومها قرر أن يعاملها من موقع سنها · كانت جدته تحب جاجا انما تعلقها به كان يفوق الوصف · حين ماتت ظل فترة يختلس فرصة غياب أهله ليسند رأسه الى سريرها ويبكي · وبمرور الوقت بات يخيل اليه أنها لم تمت بل لعلها سافرت أو ذهبت في زيارة الى القرية · حتى أنه أصبح عندما يتكيء على سريرها يشعر براحة لا مثيل لها · وهو يذكر كيف نام أول مرة في ذاك السرير ·· تم ذلك دون قرار مسبق أو تفكير . هكذا .. قام دوس جسده تحت الغطاء ثم غمر به رأسه كما كانت تفعل هي · لم يكن خائفا ولا متألما · كان لديه شعور عميق بان جدته قد أصبحت جزءا منه لا يشاركه به أحدا .

جاجا لم تكن تهتم بالأمين · تتصرف كأنه غير موجود · والدها كان يستأثر بكل اهتمامها · وربما أنها لم تلاحظ وجود الأمين الا بعد ان كبرت فأصبحت تعامله باحترام كبير · كما أخذت ومنذ مراهقتها تولي أولاده رعاية خاصة · تشرف على دروسهم وغالبا ما تكلفها زوجة الامين امتداد طبيعي لوالده . كأن لا غنى عنه . يحبه انما يضيق به والمناسبات · وجاجا تفعل هذا بعاطفة حقيقية كما لو كان أولاد الأمين أخوة صغارا لها · كان هو في صغره ينظر الى الأمين بشكل مختلف · الأمين امتداد طبيعي لوالده · كأن لا غنى عنه ، يحبه انما يضيق به أحيانا ضيقه بوالده ، فمثله كان لرأيه وطأة عليه · ذات مرة سمعهما يناقشان شخصا بمسألة الزراعة والتصنيع · أحس بوالده متعصبا للزراعة والآخر يخالفه الرأي والأمين يميل لرأي والده دون تعصب · تكلما بشئون كثيرة وأتيا على ذكر تجربة مصر وقناة السويس وبناء السد العالي ، وهو في الواقع لم يفهم شيئا محددا انما هالته تلك الثقة التي يبدي الكبار فيها آراءهم وهذا اليقين ! وبدا له كل شيء وقتها حقيقيا وغير مفهوم · وتساءل ان كان سيأتي يوم يصبح له فيه رأي خاص وشيء أكيد مثل هؤلاء الكبار · كل واحد منهم حين يتكلم يبدو مقنعا . رغم ذلك تبدو آراؤهم متناقضة تماما. فهم من صديق والده أن هذه البلاد ستصبح مثل أوروبا. وراقت له الفكرة حين ارتسمت في خياله تلك الصور الجميلة التي يراها في المجلات وعلى بطاقات المعايدة · انما رأي والده كان مختلفا والأمين يحاجج معه · ثم هاله الامر حين أكد والده بأن الزراعة ستموت . . وخيل اليه لحظتها أن الاشجار في بساتين والده سيصيبها اليباس وأن الأرض سيحل بها

الجفاف وأن المزارعين المساكين ، أولئك الذين يعرفهم هو شخصيا ، سيرغمون على ترك الارض ويساقون الى العمل في مصانع مطلعه كالاقبية . ثم ولعجبه ، رأى والده والامين يسلمان على الرجل ويضحكان . كما تواعدا على أن يسهروا معا في نهاية الاسبوع . راح كل في طريقه وظل وحده منشغلا بهذه المسألة . استغرب أن ينفض النقاش على هذه الشاكلة . لم لا يقرون صراحة أن الزراعة هي الافضل أو العكس ، فيرتاح !

لم تكن جاجا لتهتم بسائق كهذه . كان همها اللعب والأكل . يوم زواج الأمين لبست فستانا جميلا انما بدت غير منتبهة أن المناسبة تخص الأمين . كانت تدور حول نفسها أو تخرج الى الشرفة تلعب مع رفيقات لها ، ثم تعود لتجلس قرب والدتها . في مناسبات مثل هذه كانت تأكل من الحلوى دون حساب . يومها بدا له الأمين منفعلا بشكل خاص . لاول مرة يراه منفعلا هكذا . والده كان سعيدا دون انفعال . أما هو فكان يراوده ذاك الاحساس بانه هو أيضا بشكل أو بآخر عريس . ولم يتبدد احساسه الا بقدوم العروس تتابط ذراع الامين . في تلك اللحظة أحس بهيبة الموقف فانسحب .

ولفترة طويلة ظلت جاجا تحلم بالمدن الملونة . كانت حين يحدثها بها تضيق عيناها وتشخص في الافق البعيد . وكان هو يخترع لها حكايات .. لكنه خاف أن تركب رأسها يوما وتلحق بتلك المدن الشاطئية . وكم من مرة فكر أن يكشف لها السر ويخبرها ان المدن الملونة هذه غير موجودة ، وأنها حكاية من ابتكار الأمين .

ذات يوم قال لها :

ـ جاجا ، اياك أن تذهبي وحدك الى الشاطىء البعيد . تأخذك الغولية . لو تعرفي مرة تراءت لي الغولية على الشاطىء .

ـ كذاب ، قالت ، الغولية كذبة غير موجودة .

ـ طيب تأخذك النورية . النورية موجودة .

وهو الآن حين يرى جاجا على هذا القدر من الاستقلال يتأملها بدهشة وأعجاب ويتساءل : أهذه هي الفتاة الصغيرة التي كانت تبكي اذا ما غلبتها في اللعب ! انما يخيل اليه أنها بالرغم من قوة شخصيتها ما تزال في داخلها طفلة تبكي اذا ما قوبلت بالغش . مع الفارق انها تبكي في السر ولا تشكو هزيمتها لاحد . بل تقابلك بوجه ملؤه الثقة وشيء آخر مثل التحدي . انها الآن مع زوجها في البرازيل . أول وصولها بعثت له ببطاقة تقول : من مدن ملونة أبعث لك هذه البطاقة .

لكن السؤال الذى أصبح يلح على خاطره بعد تلك التجربة يحيره · أين تقع البداية ؟ وهل للانسان بداية واحدة تسيره، أم أن لكل حقب من حقبات حياته بدايتها ؟ ألم تكن بدايته هو حين جاء به الامين الى تلك العمارة ثم تركه بين هؤلاء الناس الذين أحبهم وأحبوه ؟ لم يكن يعرف أنه قد أحب حنان · كان يخيل اليه أنها فتاة طائشة تسليه بعبث الخيال · وقالت له ذات مرة : أنظر · وشدته من يده وقادته الى السطح فاستسلم هو لطيشها · أشارت الى السماء والوقت ليل والسماء مليئة بالابراج · قالت : حدق بالقمر حتى يتراءى لك وجه الفتاة التى تحبها · ماذا تراءى له ؟ تراءى له وجه ميريام · ثم ، ويا للعجب ! تراءى له وجهها · مثل غلالة ترقرقت على وجه ميريام تغلفه ولا تخفيه · وجهان شفافان مثل قمرين ، مر الواحد منهما فوق الآخر مرور غيمة بنجمة ، ثم انسحب عنه برفق دون أن يتوارى · وظل الوجهان يدوران فى السماء · غريب ! وسمعها تطلب منه أن يعد النجوم · هذه طريقة مضمونة لكى يصبح الحب خالدا · وسألها كمن يسأل طفلا :

ـ أوتظنى أننا ، أنت وأنا نحب بعض ؟

ـ بالطبع ، أجابت ·

ضحك وسألها :

ـ من قال هذا ؟

ـ أنت تحبنى مثلما أحبك · لا تعترف بذلك لكنك تحبنى ·

وفكر انه يحب ميريام · لم يكن يعلم وقتها أنه يحبها هى أيضا حبا لا يقل عن حبه لميريام . أما هى فكانت متيقنة . أنت تحبنى حب العبادة مثلما أحبك . وكانت تضحك . ثم تحول الضحك فجأة الى بكاء . لاول مرة بعد تلك الحادثة عادت تقول : لم لا نتزوج ونعيش فى سعادة بلا حدود ! لكنه كان مغرورا فلم يفهم · لم يكن يعلم انه سيأتى يوم يفوت فيه الاوان . يتفرق الناس فيدرك متأخرا أن ذاك كان فراق أحبة · بعد تلك الليلة التى نجوا فيها بأعجوبة ·· لو كتب ذات مرة عن تجربته فسيتوقف طويلا قبل أن يكتب عنها · وهل يمكن لانسان مهما بلغت قدراته أن يصف ذلك ؟ تفرقوا فى بطون الاحياء · راح كل منهم ، لا من حيث أتى بل حيث وجد درب تتلقفه . وبعد ذلك بزمن طويلا ظل يتساءل لم تقاتلوا على هذا المبنى التقاتل المريع ذاك ! عمارة عادية تموج تحت وابل من حمم بركان · وأصوات تفور معها القلوب · أهوال مثل هذه لا تنقل سوى بالتجربة · لا يمكن لمن يعيشها الا أن ينتظر الموت ليرتاح · والعمارة

تكاد تهوى فوق الرءوس ، يقضون تحت ركامها دون رحمه . ويحطم في الوجوه فيتأكد له ذلك . كل من في الملجأ واقع في قبضة الذعر ، لا يجرؤ على البوح بالفكرة التي ترعبه . حتى لاعبة الورق يبدو مستسلمة لمصيرها اليائس . اتسعت عيناها وزاغتا . واضح انها هذه المرة قد تخلت عن احساسها بأن القذيفة ستقع في مكان آخر ! والدة الشاب ، لاعب الباصكيت ، تحمد ربها على أن ابنها ليس في العمارة . وتدعو الله أن يأخذه بعنايته حيث هو الآن يقاتل وهي لا تعلم اين هو يقاتل . والعمارة تميل الى هذا الاتجاه وذاك ، وهو اصبح لا يميز عويل القذائف التي تنطلق من هنا، عن هديرها حين تقع على بعد امتار . عشرات القذائف في الدقيقة . سباق قذائف والاجساد تتحرك في اماكنها دون وعي والبعض يصم أذنيه ويفتح فمه الى أن تقع القذيفة ويتأكد له أنها لم تأخذه بنارها . وما يكاد يسترد أنفاسه حتى يصم أذنيه من جديد . يفعل هذا بالغريزة . أصبحت الصدور وجدران المبنى حالا واحدة . تعلو وتهبط معا تضيق وتتسع وهم في هذه الحركة الاليمة على اعياء شديد . انها أنفاس نزاع . وتولاه اشفاق على نفسه وعلى هؤلاء الناس . أي اشفاق تولاه ! أن كتب له العيش فلن ينسى أبدا تلك الوجوه التي تشاطره الهول . أبداً لن ينساها . وأدرك كم يحب هؤلاء الناس . اهوال مثل هذه تدفع حبا أبديا في الصدر . مثل وشم تدمغه في خلايا الجسد . انه يحب جوانا وبيار وميريام ، ويحب أصدقاء الجامعة شلة العم موسى هذا ما لاشك فيه . كما يحب اصدقاءه في مصر ، سهير ومديحة وشهيدة وعودة والبحراوي وامينة ويوسف وغيرهم كثيرون ، اولئك الذين تعرف بهم في فرنسا ثم توطدت علاقته بهم فيما بعد . دعوه الى القاهرة ولبى الدعوة . نعم يحبهم جميعا . انما حبه لهم رغم الصداقة والتفاهم ، يختلف من حبه لهؤلاء الناس . معا تراءى لهم شبح الموت . وهل في مقدوره نسيان ذلك ! وتلك الوجوه الصغيرة وهذا الهلع ! وهادى وفادي والصغيرة فريال التي تقسم برحمة اخيها عباس . لو حكى لاصدقائه في الخارج عن الهول الذى يلقاه الناس هنا لفهموا بالعقل ما يقول . بالعقل وحده . وتبقى الاهوال وقفا على من عاشها . لذا فهو لن يحكي . وحدهم هؤلاء الناس ، بالاشارة ، بالنظرة، قادرون على تمثل هذه المشاعر في الاعماق. في الاعماق يخزنونها . هؤلاء لهم مخبأ في النفس ملتئم وحزين . كالاخوة الذين عاشوا مأساة طفولة عظيمة ، يتحاشون ذكرها ، لكن كل شيء يذكرهم بها . يكفي أن ينظر الواحد منهم في عيون الآخر

ليفهم • الى هؤلاء الناس سيهدى روايته • هؤلاء الذين لم تقتلهم الحرب • ان كتب له العيش فسيفعل ذلك • وسيحافظ على علاقته بهم حتى الشيخوخة • مهما فرقتهم الايام سيعود ويسأل عنهم ليطمئن عليهم • وصرخت امرأة : صاروخ •• واتجهت الابصار اليها • لا يعرف كيف فهم هؤلاء ان الصاروخ قد وقع عنده • الجدران تتلاطم • وهذه المراة الشاحبة لا احد ينتزعها من حافة الهلاك . ما الذى عاد بها الى هذا المكان ؟ لم لم تلازم قريتها تنعم فيها بالراحة ! قيل عادت لتاخذ بعض الحاجيات استعدادا لغيبة طويلة . عابرة سبيل مثله وقعت فى قبضة الهول . حاول ان يبتسم لها ، يشجعها بنظرة . لا فائدة ! ابتسامة باهتة تلاشت على فمه وحزن • انسان يتربص به موت أسود يعجز عن مساعدة انسان آخر يتربص به هو ايضا موت اسود ايضا. حينئذ يشاركه الأسى ولا يقول شيئا • الموت يقف هنا وراء الباب ، وطواطا ماردا يخيم عليهم بجناحين جبارين . الكل سيموت الليلة. هى وهو وسائر الناس. واولئك الاطفال الذين لم يروا شيئامن هذه الدنيا بعد • هادى وفادى والطفل الرضيع والعروس تغريد وعريسها الذى يخشى عليها من ذرات النسيم . كلهم دون استثناء سيحدث لهم ماحدث لغيرهم فى اماكن اخرى من هذا البلد المنكوب باللعنة . يتحدث الناس بهم ، أو يذكروهم عرضا فى كلامهم عن الحرب • وربما لن يأتى أحد على ذكرهم أبدا فيبقون نسيا منسيا فى خاطر قدر أبكم أصم • يقضون تحت الركام • وسعيد الحظ من يكتب له أن يقضى دون ألم • وتلتقى نظراته بنظراتهم فيقرأ الشىء ذاته . لم لا يات المخلص يخلصهم من هذا الجحيم ! ! المخلص لا ياتى من تلقاء نفسه .. يدعى فيلبى. على فيأتى وهؤلاء الناس لا ينقصهم الايمان ولا التقوى • ان كان غاضبا على المتكبرين فليرحم أولئك الضعفاء • وهذه الحرب أهى قدر أم خيار ؟ لعلها قدر خيل للبشر فى لحظة طيش وغرور أنهم اختاروه • ووصله صوت جدته من بعيد : لا حول ولا قوة الا بالله • صلى قال للمرأة • صلى لربنا يرحمنا • فتحت المرأة عينين غائرتين وتمتمت : ولمن أصلى • الله تخلى عنا • أو تظن أننا فى فكر الله ؟ وكاد يقول لها : الاله لا يتخلى عن أحد • المغرورون هم الذين يتخلون عنه • لكن المرأة اغمضت عينيها وهى تمتم بكلام ، ثم غفت ، أو أغمى عليها لم يعد يذكر • قذيفة أصابت المبنى . اكيد انها أصابته . أصابت المدخل ، هذا اكيد .
تدافع التراب والغبار وتتف الباطون من باب الملجأ وغشى البصر • حاول أن يميز الوجوه فلم ير شيئا • تطلع نحو أبى سليمان فلم

يجده . المرآة قبالته مثل صورة مغبشة من فيلم قديم راحت في العماء طويلة ، حسنا ، هكذا تقضي دون أن تشعر بشيء . لينه يصاب بالاغماء هو الآخر . حاول ، أغمض عينيه وأسند رأسه الى الجدار فلم يشعر بدوار . رأسه مثل كمبيوتر ، ومثله منتظم وسريع . مرت في ذهنه صور وافكار ، اهله واصدقاءه . ميريام وجوانا . أبوه وأمه . أخته والامين . كلهم سيحزنون من أجله . جاجا تمسك بيده تهزه ثم تنحني تقبله وتتوسل اليه أن يقوم من موته هناك على شاطيء المدن الملونة . وامه تقف على الفيراندا ثم تنحني تكلمه . تتأمل وجهه وفي كل مرة كأنها تراه لاول مرة . وصاح الرجل . يا أخوان ، تسلحوا بالشجاعة . انهارت واجهة العمارة وسدت علينا باب الملجأ . فلنتساعد يا اخوان والا قضينا اختناقا . كان هو يسمع صراخ الرجل فلا يصدق . انتظر أن يتدخل أبو سليمان ، يقول شيئا يكذب كلام الرجل لكنه لم يسمع أي صوت . ليس سوى الغبار . وها هم يتحركون والرجل ماض في حثهم على المواجهة . يتوسل اليهم أن يجرفوا التراب معه . كم من التراب والحجارة عليهم أن يجرفوا ليعيدوا الفتحة ؟ أهي تلال مكدسة ام نتف متفرقة ؟ لا أحد يعلم . وتعالى صراخ الاطفال وبعض النسوة . لاول مرة منذ قدومه الى هذا المكان سمعهم ينتحبون . يتنقلون في الملجأ على غير بصيرة . يدورون في هذا المكان مثل عميان في زلزال . ولحق هو بالرجل ومعه أم سمير ، وبعض النسوة أيضا جاء يجرف التراب . كلهم يجرفون التراب .. بأذرعهم يجرفون التراب . بصدورهم يجرفونه . الموت هنا وتشبثهم بالحياة هو النجاة . يبكي البعض وربما بكى هو الآخر ولم يعد احد يستمع أصوات القذائف . فقط ، حفيف تراب ونشيج بكاء وانتحاب أطفال مذعورين . والتراب يعفر الجو . والانفاس تضيق ولا أحد يجرؤ على البوح . سنموت اختناقا فلا يدري بنا أحد . وقرأت بعض النسوة آيات واقوال . وقرأها الرجال أيضا والشبان قرأوها وقرأتها الصبايا . أهي القراءات التي تسبق الموت أم تلك التي تستعطف الحياة ؟ وهو ان مات فسيكون منسيا .. قضى حياته يبحث عن امرين : الحب والمعرفه . وها هو يمضي في ظلمات صماء بلا حب ولا معرفه . والغبار يتناثر ونشيج بكاء في الصدر . وفي تلك اللحظه دك المبنى من جديد . نار جهنم انتشرت في المكان . قذيفه اجتاحت الملجأ بالتأكيد . ولهب يلفح الاجساد . اللهب يتصاعد من أحشائه لكنه لا يرى حريقا . أهذه هي

القنابل الكيميائية التى يحكون عنها ؟ حدق فلم ير شيئا • لا شيء • كان الذين كانوا معه تفرقوا • هل ماتوا وتركوه وحده ؟ أى هول أن يموتوا ويتركوه وحده شاهدا على نهايته ونهايتهم ، تحسس التراب بيديه . كأنه يتحسس جمرا . مضت هكذا لحظة من الدهر مداهادهر ثم عاد الدم الى العروق وتعالت الاصوات ، الكل يتكلم ولا أحد يقول جملة مفيدة • كلمات متفرقة • خيالات أشباح رافعة أذرعا نحو سماء غير موجودة يبحثون عن السقف • ماذا فى السقف ! ويطلبون الرحمة ويندبون حظهم ويتساءلون عما جرى وأين وقعت القذيفة . وصاح الرجل • صوت أجش لا يخرج من حنجرة بل من أعماق أحشاء • صاح: فرجت يا أخوان فرجت • ثم خر ساجدا على الارض ينتحب • بالكاد تبينه لكن شهيقه ينبيء بأنه ساجد • جن الرجل ! أكثرهم هدوءا ورجاحة عقل وقت الشدة أصابه مس ! لا عجب • كثيرون فقدوا صوابهم فى ظروف كهذه • نعم ، ثم أنه يقدر الخطر أكثر من غيره وها هو يشهد تدمير المكان الذى هم فيه • وقام الرجل من سجوده وهو يصيح : الحمد لله • الحمد لله • عفوك يارب • أنظروا رحمة الله ! ولاح له طيف الرجل رافعا ذراعيه ورأسه شاخص الى السقف • مسكين ! وابتسامة شكر بلهاء ! أنظروا ! وليحمد كل منكم ربه • هل تراءى له وجه المخلص فى لحظة الهذيان ؟ أين ينظر ؟ وهل فى وسع أحد تمييز شيء فى هذا الظلام المعفر بتراب ؟ وتراءى له وجه أم سمير رافعة رأسها وذراعيها هى الاخرى الى فوق ، حيث يشير الرجل • عينان فزعتان تلمعان فى الظلام ، تبحثان عن بارقة أمل • تنتقلان مثل رقاص الساعة بين الرجل والسقف • ماذا فى السقف ؟ هل نحن فى مستشفى مجانين أم خيل اليها هى أيضا أن الرجل قد جن ؟ والرجل يبتهل • يهب واقفا ثم يركع ، يجثو على الارض ، يقبلها وهو يقول : عفوك يارب • أغفر لنا ولهم • وسمع البعض يردد : عفوك يارب أغفر لنا ولهم • وهو من ناحيته يحاول أن يتبين شيئا ليستغفر ربه فلا يحس سوى بتراب ساخن يملأ حنجرته ورئتيه • وتبين له أن الذين حوله ، يجثون بدورهم ويقبلون الأرض ويحمدون الله ويطلبون المغفرة لانفسهم وللاخرين . والحمم ترتعد فى السماء . على ماذا يحمدونه ؟ فكر أن يحمده هو الآخر فهو مؤمن ورغبته فى حمده أقوى من شلالات نياغارا . وتمنى لو يقضى له أحد بالسر ليفهم، أذليس من المعقول أن يجن هؤلاء الناس معا ويبقى وحده عاقلا يتمتع بالحكمة. ثم تراءى له وجه أم سمير يفيض بالبشر • راح الهلع وتدفق مكانه فرح

مثل فرح المعتوهين • وسمعها تقول لصـــديقتها : أبشري ! أبشري فرجت • أشفق الله علينا انظري • ها هي أيضا تمد ذراعيها الى اعلى الحائط نحو السقف تشخص اليه ببصرها وتقول : أنظري رحمة الله •

وفي تلك اللحظة خيل اليه انه قد فهم . تراءت له الحقيقــة . فتحة في أعلى الحائط تحت السقف تماما ، أحدثها ذاك الصاروخ دون شك . دخل الصاروخ الى الملجأ أحدث فيه فجوة ومر فوق الرءوس ثم خرج من الناحية الاخرى دون أن ينفجـــر • لم ينفجر عندهم على الاقل • يا لغرابة الاقدار ! لذا يخر هؤلاء على الارض يحمدون الله على هذه المعجزة . وسمع الطفل هادي يسأل امه : شـو صار يا ماما . وسمع أمه تقول له : أنفتح الحيط وصار فينا تطلع • أصـــوات من الخارج تناديهم ، تصيح بأقوى ما تستطيع وتطلب اليهم أن يصبروا حتى يتدبروا الامر • انها أصوات المســلحين • يالهؤلاء المساكين الشجعان • لاى الاخطار يعرضون أنفسهم ! أصــواتهم تختلط بعويل القذائف كأنها تتصاعد من اعماق أودية سحيقة فيها اقتتال اعمى منذ فجر التاريخ •

وحكاية العم موسى وتلك التجربة الفريدة •• هل ســيكون في وسعه نقلها بالكلام . ان ما حدث ذاك النهار سيظل لغزا في الاذهان. ما أحاط العم موسى نفسه بالاسرار انما كان يضن عليهم بالحديث عن نفسه • وهو لم يسأله يوما عن دينه وما خطر له أن يلقى على نفسه ذاك السؤال • فكل ما يحيط بالعم موسى يرحل به الى عـالم من أحلام •• وتبدو له أصل الحكاية بشكل مختلف ، ليس العم موسى ذاك الـرجل الذي عرفوه . بل لعله ملك متوج نزع تاج الملك في لحظة اندماج وصفاء استبدل درع حديد برداء حرير . مؤثرا الانتمـاء ، ليس الى بقعة معينة بل الى الكون بأسره •• لذا ما كان ليخطر لهم أن يسألوه عن دينه . وكان دينه خلاصة الاديان . لكنه تجرأ هو ذات مرة وسأله عن شئون القلب • كانا وحدهما يتسامران في أمسية شـــتاء صافية ، البرودة منعشة والبحر ساكنا الى محيطه الرملي لا يسمع له هدير. وفكر هو في تلك اللحظة أن هذا الانسان الفريد حكيم مثل قديس انما مرهف الحس كمراهق . أبيض الشعر والقلب مازال طفلا .. هل أمضى حياته مستمتعا بهذا الجمال دون أن يعرف ســعادة القلب ! توجس وهو يسأله ذاك السؤال • خاف أن ينزعج لكنه لم ينزعج بل كأنه كان ينتظر منه السؤال يحبهم جميعا انمـا يأنس اليه بصـورة خاصــة فلم يتردد البوح • قال : كان ذلك في المــكان عينه الذي

عرفتموني فيه وكنت خارجا من صـــيد وكانت هي مع صـــديقة لها تتنزهان · نادرا ما كان يأتي أحد الى هذا المكان · ظننتني أبيع السمك وسألتني ان أبيعها منه · أعجبتني أول ما رأيتها · أحسست أن الاقدار شاءت أن تمر في تلك الساعة لنتقابل · سألتني عن الثمن فقلت لهـا ثمنا يكاد يكون زهيدا واخبرتها اني غالبا ما اجلس هنا . ثم اشرت لها الى الناحية التي اصطاد فيها · بدت مستغربة وسـألتني لم لا افرش السمك على الرصيف مثلما يفعل سائر البائعين · قلت لها أن الكـــل يقصدني الى هذا المكان · ازدادت ثقتها بالبضاعة وقالت انها من الان فصاعدا ستأتي الى كل أسبوع · ثم ناولتني كيسا كانت تحمله لاضع فيه السمك ، فبدت لي يداها في تلك اللحظة نديتين كأكف الاطفال · وأناملها المدببة رقيقتين مثل أنامل بنت صغيرة · لم يمض أسبوع على ذاك اللقاء حتى رأيتها تعود · خشيت الا تعود لكنهـا عادت ، وكانت وحدها هذه المرة · رأتني من بعيد وكنت على الصـــخرة اصـــطاد فانتظرتني على الشاطىء . جميل أن تنتظرك امرأة تحبها. لا أعلم ان كانت قد أحبتني بعد . ورغم ذلك كنت سعيدا بانتظارها. أحســت في تلك اللحظة أني قوي · حتى البحر بدا لي يومها شيئا آخر · تعرف · المرأة التي تحبها ان أحببت شيئا يخصك ازداد حبـك له · تلكأت في جمع العدة ولما انتهيت رحت وسلمت عليها · أظنها أحست أن السلام لم يكن سلام بائع لزبون · أعطيتها السمك · سـألتني عن ثمنه فقلت لها · قالت : غريب هذا ثمن زهيد · قلت لها جملة أظنها لم تفهمها الا في ما بعد . قلت ان هذا المبلغ يكفيني . ومع الايام صارت تأتي الي. تتبادل الاحاديث ثم تأخذ سمكها وتذهب · وحدســـت أنها لم تكن متزوجة . وتأكد حدسي من اشارات بسيطة في كلامها . فهمت أنهـا تشتري السمك لاخوتها · ومع الوقت اكتشفت بنفسها أني هاو غير محترف · تبين لها ذلك حين سألني أكثر من شخص من المارة أن أبيعه فرفضت . ولما استوضحتني قلت لها اني صياد ولســـت ببـائع ففهمت · أذكر تلك اللحظة كيف احمرت وجنتاها مثـل فتاة مراهقة فتأكد لي انها قد فهمت واني أروق لها . وفكرت أن أصارحها . قلت لها اني لست من هذا الصنف من الناس الذي يتعدى على حقـوق الآخرين · فان كان في حيـــاتها رجل أو شيء من هذا القبيل فلتكن صريحة معي . أطرقت ولم تجب . مرت دقائق والامر ملتبس علي. أتكون متزوجة أحبتني رغم ارادتها أم أن شيئا آخر يمنعها من الافصاح· ثم قالت : مات زوجي منذ سنوات وما ظننت انه سيأتي يوم أهتم فيه

برجل أو يهتم بي رجل . كانت رغم حسنها متواضعة ، وسألني اربكها . قالت انها لا تعرف بالضبط ماذا تريد مني . فقلت لها انني لا أستعجل شيئا وانى على اى حال مستعد لكل شيء . وبعد برهة صمت ضحكت وقالت : لكنى بذلك أكون قد خسرت بائع السمك ..

وظلت تأتي من حين لآخر . وبعد ذلك اخذت تجيئني الى البيت. عشنا حياة الازواج وكنا سعداء . رغم ذلك كان يخيل لى أن في أعماقها حزنا لم أفلح فى انتزاعه . نشأت يتيمة الأم فاقدة العاطفة وكان أبوها قاسيا وكان لها اخوة . كانت أحيانا تردد انه من الصعب على الانسان ان ينسى الالم المخزن فى القلب . أسألها اى الآلام تقصد فتفكر برهة وتسكت . قلت لها نتزوج ذاك ظنى ان هذا سيسعدها . أطرقت كما أطرقت على الشاطىء ذاك النهار . ثم قالت ان قرارا مثل هذا ليس بالامر اليسير . وبدأت تحدثني بمشاكل غير موجودة . تحس أن مستقبلنا مهدد . تقول : لو مرض احدنا فلن نجد ثمن دواء ولا تكاليف مستشفى . قلت لها اننا لغاية الآن لم نمرض ثم ان احتمال المرض يكون ضعيفا ان نحن لم نشغل بالنا فيه . تقنعني بأن يكون لى عمل ثابت . أخبرتها انى لا أحتاج لعمل . لدى راتب تقاعدى من الشركة . وانا ان احلت نفسي الى التقاعد باكرا انما لاتخلص من روتين العمل واوامر الرؤساء .. كانت تستغرب نمط حياتي . تلاحظ أن لدى أصدقاء كثيرين من فئات مختلفة يأتونني بهدايا من أنواع شتى ومؤونة للبيت . كانت تسألني عن معنى هذه الصداقة فأشرح لها أن شيئا خاصا يربطني بهؤلاء الناس . يلحون على بأن يشتروا السمك فلا أرضى . وربما كانت هذه طريقتهم فى الشكر . وهذا لا يعني أني كلما أعطيت أحدا سمكا اصبح صديقي . كانت على ما أظن تستنكر هذا . نوع من الكبرياء .. شرحت لها أن مبادلة الأشياء على هذا النحو لا تزعجني البتة وانى فى نهاية الامر لا أطلب شيئا من أحد . حين أعطي السمك للناس لا أنتظر منهم شيئا . الناس تعقد الحياة بلا داع . أو ليس من الأجدى تبسيط الامور ؟ ومبادلة كهذه أبسط من البيع والشراء ؟ كان هذا يخجلها وتبرر ذلك بأني لا أملك حرية التصرف بالأشياء . وحدثتني عن اخوتها وكيف انهم سيعارضون زواجها بعاطل عن العمل ، وهم يتمتعون بالاحترام بين الناس . وزوج أختها سيكون أول المعارضين . هل تعرف .. أفكر أحيانا أني لو لم أطلبها للزواج لما خسرتها . يوم طلبتها كان يخيل لى أنها ستوافق.

اذ انها ما ترددت يوما في المجيء الى رغم عيون الجيران وقسوة الناس . كانت تقول : عالم انى مقتنعة بما افعل فلا شيء يهمني . ثم ان احدا لا يعرفني هنا . احيانا احس بالندم . لو تركت الماء تجرى لما خسرتها .

وفكر هو أن يقول له ما يجول في خاطره : التجربة هذه ابداع فريد .. لكنه خجل من نفسه وآثر الصمت . معجبون به ! هذا صحيح ، لكن احدا منهم لم يخطر له أن يحذو حذوه . ينظرون اليه بحب واكبار ، غير ان كلا منهم مضى في سبيله الذي اختاره محتفظا بالتجربة ذكرى مشرقة في الخيال . يستعذب التحدث بها ولا يجرؤ على التقليد . كل منهم اختار الثابت ، والعم موسى وحده عاش اللامألوف . مثل هذه التجارب الرائعة ان لم تفض الى امتداد شاب ذكراها الحزن . لكن ، حسبه أن عاشها كذلك . ان في ذلك تواضعا لا حد لعمقه . ان يكون الانسان مختلفا دون دعوة أو ادعاء ، تلك عظمة لا يقوى عليها كثيرون . كان العم موسى يحكي وهو يستمع اليه دون تدخل . يخشى على الكلمة أن تضيع ، أو يفلت منه الايقاع ورنة الصوت .. وفكر أن يواسيه ، يقول له بأن ذلك كان سيحدث بالضرورة . نادرا ما يصمد حب بلا زواج حتى في بلدان متفتحة مثل أوروبا . ثم رآه يقوم من مكانه الى المطبخ ، يشغل نفسه بشيء . كان الوقت مساء وكانا يجلسان في ذاك الحوش أمام البيت . يا الهي : هل تلمع عيناه بدموع الحزن والذكريات ؟ أمازال الحب نابضا الى الآن ؟ كم من الوقت مضى على هذا الفراق . لا يعرف . لا أحد يعرف فالعم موسى لا يذكر التواريخ .. وربما كان لا يحسب السنين . وفكر أن الذي احب امرأة اسمها « أونا » ، وبنى لها بيتا على شاطىء البحر ، وعاش معها فيه العمر كله هو العم موسى وليس ذاك الشاعر الذي قرأ له قصيدة ذات يوم . فهو حين سأله عن شئون القلب لم يحدثه بالحب والنساء بل حدثه بها فقط وقال : احببتها . وصف أناملها كما فعل ذاك الشاعر ، مع الفارق أن امرأة العم موسى قد انسحبت من ذاك الشاطىء لتعود الى مدينة اثرتها في لحظة ضعف . ومسافة الشوق والحكمة التي يذكرها الشاعر في قصيدته هي التي يختارها الانسان على حساب سعادته . وفكر بكلام جوانا . الانسان هو الذي يخلق القيود لنفسه ثم يمضي آلاف السنين يحاول التخلص منها وبالكاد يفلح . وهذه المرأة ما كانت لتحب العم موسى وتجرؤ على كسر التقاليد لو لم تأسرها مثلهم شخصيته الفريدة . غير أنها

لم تقو على مواجهة الآخرين باختيارها . وخسارتها على ما يبدو كانت كبيرة . قال : تزوجت فى ما بعد موظفا . جاءت الى وقالت لى : ان كنت تحبنى فعلا دبر لك عملا . عد الى الشركة . أكدت لها انى مرتاح هكذا وانه لا حاجة بى للعمل . فعادت تتكلم عن المستقبل والمرض والمستشفى وعن زوج أختها الذى سيعارض بسبب مكانته الاجتماعية . قلت لها انى غير قلق ولا أحد يعلم ماذا تخبىء الاقدار . قالت انها ستتزوج . وتزوجت . هل تعلم يابنى . الانسان كائن أحمق . يأتى الى هذه الدنيا مرة واحدة وغالبا ما يكد ويشقى ليقتل سعادته ثم يرحل . لو أن العمر عمران عمر للتجربة وعمر للنتائج لهانت أشياء كثيرة . قابلتها سنوات بعد الفراق . كانت قد تغيرت . كانها انسانة أخرى . قالت انها أخطأت التقدير وانها تتحسر على تلك الايام وقالت ان هذا الرجل، تقصد زوجها ، ذو سلوك قديم انما ، تنقصه المشاعر . أنجبت منه ولدين . قلت لها : هذا عزاؤك . ربما لو تزوجتنى لما أنجبت أولادا . قالت : من يدرى ؟ ربما كانت من الخير لى أن أبحث عن سعادتى من غير أولاد . ماذا يعنى أن يكون للانسان اخوة وأولاد وأن يفقد سعادته . قالت ذلك وبكت . وبعدها جاءت الى ثلاث أو أربع مرات، أحضرت معها صورها وصور أولادها ، انما لم تحضر صورة زوجها، ربما مداراة لمشاعرى . أفهمتنى انها ترغب فى أن يكون بيننا ما كان من زمان . فقلت لها لا . سألتنى ان كان الحب قد مات . فقلت لها : تغيرت أشياء فى الأعماق لكن الحب لم يمت . رغم ذلك فما كان بيننا قد تغير . فهى ملك رجل آخر لها منه أولاد . ثم طلبت منها أن تكف عن المجىء الى ولم أعد أراها بعد ذلك ..

ثم وبعد ذلك حدث ما حدث ... هل تراءى له وجه المحبوبة فى تلك اللحظة أو امسك بأناملها المدببة وأفضى لها بالشوق ؟! .

ما كان ليحزنهم أن العم موسى قد أخفى عنهم ذلك ! وربما انه لم يخف شيئا بل انه وببساطة لم يفطن ان يحدثهم بالمسألة . وما كانت مسألة كهذه لتشغل عقولهم . وكما انه لم يخطر له أن يسألوه عن سنه أو يقدروا له عمرا ، كذلك لم يفكروا بالسؤال عن دينه . وقد يبدو هذا غريبا فى بلد يعرف فيه الناس الى أى الأديان ينتمى الآخرون . لكن العم موسى ليس من ذاك النوع من البشر الذى يمكنك أن تضعه فى اطار . كانوا سعداء به هكذا خارج التشكيلات . ذاك النهار دخل عليه شوقى فوجده متعبا . ما مرض العم موسى من قبل وما أحس بعلة وما اهتم أحد يوما باصطحابه

الى طبيب . كان يبدو على الدوام سليما معافى . وصل شوقى الى بيته ودخل كعادته غير انه لم يسمع حركة فى الداخل . استغرب . ففى اوقات مثل هذه ينشغل العم موسى بتحضير طعامه فى المطبخ . يترك الباب مفتوحا حتى اذا وصل زائره دخل وجلس على مقعد فى الدار . وحين ينتهى هو من انشغاله يأتى اليه . يكون قد عرف سلفا الشخص الجالس فى الخارج . يميزه من وقع اقدامه . ولطالما كلمه من الداخل قبل ان يأتى لملاقاته . عندما فتح شوقى الباب ناداه العم موسى فجاءه الصوت من غرفة النوم وكان ملازما سريره . ادرك شوقى على الفور انه معتل . اذ ماراه احد طيلة هذه السنوات ملازما السرير ولم يكن به شغف بالنوم . كان يمضى ساعات من الليل ساهرا ، يستمع الى الاذاعات او يتصفح جريدة او كتابا . ولم يخف العم موسى تعبه . خرج شوقى ليتصل بهم ويحضر الطبيب . ولم يتأخر فى العودة اليه ولم يتأخروا هم فى الحضور . لكنه كانما شاء الا يزعج احدا . دخلوا عليه فرأوه مسجى كأنه نائم . وداهمهم ذاك الاحساس انه فى تلك اللحظة ، لحظة موته ، كان جالسا اليهم يسامرهم ، فلم يشعر بوحدة او بمرارة . بل استسلم للموت كما يخلد كل يوم لاغفاءته الهنيئة . وجهه المطمئن وشبه ابتسامة على فمه يقولان هذا .

وجاء الجيران حين عرفوا النبأ ، وجاء بعض الناس واصدقاؤه كما يسميهم جاءوا ايضا . كان ذلك فى بدء الحرب الاهلية ، اول عهدهم بالقصف والصواريخ . الرجال الذين استدعاهم والد شوقى كانوا قد انتهوا من الاجراءات تلك . التكفين وما شابه . سجوه فى سريره وجاءوا هم وجلسوا حوله . ثم أتى والد شوقى بالشيخ ، يتلو آيات القرآن الكريم . كان لابد من القيام بعمل ما لراحة النفس . خرج الشيخ على ان يعود ثانية . ثم بدأ القصف . وخيل اليهم لحظة ، ان قذيفة سقطت فى الحوش امام الغرفة التى يجلسون فيها . ثم توالت القذائف تلمع فى الابصار قبل ان تسقط غير بعيد . فهرعوا الى الغرفة التى كان العم موسى يسميها عقدا . كانت من تلك الغرف المحمولة على اربعة عقود تلتقى عند السقف . والغرفة من الخلف تستند الى الطريق كأنها مغارة محفورة فى هضبة . ثم توالت القذائف ، قذيفة تلو القذيفة . وتفرق الجيران يلوذون الى بيوتهم كما يحدث لأى انسان أن يستعجل الوصول الى بيته وعائلته قبل ان يعنف القصف . واختاروا فيما عساهم يفعلون . وفكروا ان يسحبوا الجثمان الى الغرفة تلك . لكن شوقى قال : دعوه آمنا

في مكانه ، فاقتنعوا . وتذكر كل منهم أن العم موسى لن يأبه لشيء الآن . هذه الطمأنينة وتلك السكينة تنبيء انه قد أصبح في ملكوت آخر . ترى ، أكان يدرك مغزى التوقيت ! أن يرحل الآن فلا يكون شاهدا على شيء ؟ وقبل أن تخرج الجارة سألتهم ان كانوا اكيدين من تلك الاجراءات ومن ضرورة التلاوة ومجيء الشيخ ؟ لم يفهموا قصدها في البدء ولم تخطر لهم التساؤلات . ثم عادوا وتذكروا انهم غير اكيدين من شيء . فهو لم يذكر دينه يوما وما لاحظ احد منهم قيامه بفروض . انما كان يصوم . وقالوا للمراة ان العم موسى كان يصوم شهر رمضان فقالت : هو يحب الصوم . يصوم شهر رمضان ويصوم أياما أخرى وما تخلى مرة عن صيام الفصح . كان ينقطع كل عام اربعين يوما عن اللحوم وسائر المأكولات الحيوانية . صحيح . هذا ما لاحظوه بانفسهم . ثم عادت المراة واكدت لهم انه كان يصوم أياما غير هذه . ولما لم يتبينوا قصدها قالت : يقال ان العم موسى من اصل يهودي . امه يهودية هذا اكيد . اما أبوه فلا أحد يعلم بالضبط الى أية طائفة ينتمي . ربما كان مسيحيا أو مسلما ، لا أحد يعرف على وجه التاكيد . قالت المراة كلامها ثم سارعت في الذهاب الى بيتها هربا من القصف ، فلم يتسن لهم مزيدا من الاستفسار . كان الوقت ما قبل المساء . الاضواء بدأت تنحسر عن الحوش في الخارج والظلال اخذت تغزو المكان . ثم ، وفيما هم كذلك ، سمعوا وقع أقدام وصوت كاهن يتلو تلاوات التقديس والتبارك ، ورأوه يمر امام غرفتهم . نعم . انه ليذكر هذا تماما . مر وحياهم بايماءة من رأسه وهو مستمر في التلاوة . ثم ولج غرفة العم موسى والقصف مستمر على حاله . واخذهم العجب ، وسأل كل منهم رفيقه عن الذي استدعى الكاهن فاجاب : لا اعلم . لا أحد يعلم . لعل أحد اصدقائه في الجوار ، أولئك الذين كانوا يلتقون عنده من حين لآخر هو الذي كلف نفسه وكلف الكاهن بهذه المهمة التي قام بها ومضى . وفيما كان خارجا حياهم مرة ثانية فردوا التحية . ثم رسم اشارة الصليب ، فرسمها البعض منهم بصورة تلقائية . وخطر لهم أن يقوموا ويسألوه ، لكن تساقط القذائف منعهم من ذلك . ولم يمض على ذلك دقائق معدودات حتى تناهى الى مسامعهم هدير سيارة تقترب من المكان وتتوقف . وسمعوا أبوابها تفتح وتقفل . ثم تراءى لهم أشخاص يدخلون . ورغم القصف خرجوا اليهم يسألوهم عم يريدون . دهش الرجال من السؤال . كان أهل الدار هم الغرباء وليس أولئك القادمين الذين حملوا العم موسى ووضعوه

فى التابوت . ثم فعلوا هذا فلم يعترضهم أحد . تصادف وقوع قذيفة غير بعيد ، وخيل اليهم أن شظاياها قد تناثرت هنا وهناك، فأسرع الرجال بالتابوت الى العربة وانطلقوا بها لا أحد يدرى الى أين .

الوقت متـــأخر . الظلمـــة خيمت على المكان . بعض الاصـــوات الخافتة تتسرب الى الدار من بيوت الجيران . والقصف بدأ يخف تدريجيا الى أن توقف تماما . قاموا واغلقوا باب غرفته ثم اقفلوا باب الدار . ودون اتفاق او كلام وجدوا انفسهم يتجهون الى ذلك المكان، قاصدين الدرب الى الشاطىء . ليس سوى ظلالهم الطويلة وهـذا الدرب والصمت .. ما كان صمتهم اكتئابا ، بل حزنا دائما . وتلك لم تكن مراسيم موت بل مراسيم رحلة أعدها لنفسه . رغم ذلك كان هناك فراغ ما هائل وعميق تتقاطع همساته بوقع الاقدام ، وقد امتثلوا اليه كما امتثلوا لذلك الاحساس بأن على كل منهم الآن ، أن يبدأ حياته من جديد .

تجربة مثل هذه لا تشبه الواقع . ولعلها أشبه بالحكايات اذ قلما يتسنى لانسان أن يعيش حياته كما عاشها العم موسى . كأنه ماعاشها بل حلم بها ومضى . وامرأة العم موسى لا أحد يعرف اين هى الآن ولا هى تعرف ان كان رجلها مازال حيا أو مات . ولكن بكون فى وسعها على اى حال أن تذهب الى قبره فلا أحد يعرف مكان القبر . سألوا الجيران فلم يفدهم أحد بشيء . والسؤال الذى القوه على الجيران هو السؤال نفسه الذى القاه الجيران عليهم . كل طرف يظن ان الآخر يعرف المكان ولم يكن أحد ليعرف شيئا . ثم لم يطلبوا البحث. فقد حملوه فى أعماق افئدتهم واكتفوا . وما كان فى وســـعهم أن يتحدثوا بموته بعد ذلك فهو مازال فى خواطرهم حيـــا . ثم حين نزلوا ذاك الدرب الى المكان المنشود ترافقهم ظلالهم الطويلة والفراغ كان يخالجهم ذاك اليقين بأن حياة قد تفتحت الآن فى مكان ما من هذا العالم ..

وقصته هو مع ميريام أين يضعها ؟ أهى نسيج واقع أم غزل خيال ؟ الحكاية التى لم تكتب هل سيكون فى وسعه كتابتها ؟.

مثل رذاذ المطر الناعم . مطر باريس الخريفى ، هكذا تهبط عليه الذكريات من عالم هانىء وئيدة متدفقة . والخريف يتسع شتاء طويل كان يمكنه أن يكون مملا لولا وجودها معه . هكذا حين تكون معه فى ذاك اللقاء الملائكى ويعبر الجسد الجسد لم يكن يعى شيئا مما يدور حوله فى الخارج ولا يعى الزمان . فقط يعى أنه قابض على كنه الحقيقة تلك أنه معها كائن فى قلب الحقيقة . وتلك المدينة .

ابنيتها وزخارفها الدانتيل وجسورهاذات الاقواس والنهر الذي يرقد في جسدها اليافع مثل شريان ، كل هذا يمر في خاطره مرور صور لحلم او رسوم خطها فنان ومضى .. الاشجار التي بدات تتعرى لن تزهر قبل الربيع القادم . الرذاذ يعلق باغصانها البنفسجية ويتحول الى حبيبات لؤلؤ من ثلج . كان هذا يضجره قبل ان يعرف ميريام . ولما عرفها اصبح ينتظره ليستمتع به ويتأمل التحولات .. هكذا تتبدل الفصول ويعلق الندى بالاغصان مثل زهر اللوز او يمر طائر شريد صمد في ذاك الصقيع وحط على النافذة باحثا عن شيء . اي سر ان يصمد هكذا وحده في الصقيع ! الثلج منتشر في الطرقات وعلى اسطح البيوت واغصان الشجر . البياض هذا ليس حدادا كما كان يخيل اليه بل عرس ملائكي استبدل الزغاريد بالهمس . وارتسم في سماء المدينة قوس قزح . فسحة ضوء لاهية اقيمت لهما خصيصا يتمنى لو تشرق على الناس جميعا . نعم فهو غير متملك . لكن العرس حميم وسري والطائر يرفرف بجناحين ضعيفين متأهبا للرحيل . الى اين يذهب ؟ وفكر ان يفتح له النافذة ليدخل وينعم بالدفء . قام وفتحها . وبدا الطائر وجلا هو ينظر اليه تلك النظرة ، مزيج غربة واستعطاف . وابتعد هو تاركا النافذة مفتوحة لعل الطائر يطمئن ويدخل . لكن الطائر لم يدخل . ميريام قالت انه لن يدخل فهو يخاف ان يفعل . حين يضمها اليه يتدفق كل هذا في خياله وديعا هانئا وتفيض الاحاسيس دون مشقة . هو لا يضم جسدا بل يعبر كيانا اثيريا كما تعبر فراشة اقحوانة . تلثمها قبلة تخالها ابدية المذاق . يحلقان في تلك المسافة المسكونة بنعيم الاحلام المشرقة بالاضواء . اضواء وعود اغفلت الحدود . اية طمأنينة يملكها من يملك هذا اليقين بأن الكيان الواعد هذا ملك له .. مثلما يحس ان ميريام كانت موجودة في اعماقه من قبل ، وان ما حدث بينهما لم يكن تعارفا بل اكتشافا بالحس . ميريام ... اول ما لمحها لم يعرها انتباها خاصا . كانت لشدة اثيريتها تكاد تكون مرئية غير موجودة . لم يكن لحضورها اي اقتحام . وما هي سوى لحظات حتى احس بكثافة هذا الوجود . نظراتها الدافئة ؟ ليس هذا بالضبط . ربما نظراتها الخالصة من الالتباسات . سالها فاجابته انها زائرة وانها تقيم منذ فترة في الريف . وخيل اليه ان عملها هو الذي دعاها لذلك . لا . لا عمل لها في الوقت الحاضر فهي لم تكتشف بعد العمل الباعث على الانطلاق . وكان هذا يدهشه فهو يريد ان يفهم هذه المخلوقة التي فاجأته بحضورها دون تمهيد . يحاول ان يجد لها في خياله اطارا ، عملا دراسة او مهنة ؟ مدينة ؟

انها فرنسية فى زيارة الى باريس وربما عادت اليها مكرهة . استغرب هو كيف تكون فتاة مثقفة بلا عمل وكيف يمكنها العيش فى الريف ! هو لا يتخيل نفسه قادرا على العيش فى غير المدينة . بيروت او باريس .. مدينة تعج بالناس يختار فيها حيا هادئا ، ويكون مطمئنا أن هناك فى الطرف الآخر منها غير بعيد ، مسارح ودور سينما ومعارض ومتاحف ورسوم وبشر يهتمون بكل هذا وخليط ثقافات . كان حين يضمها اليه يحس بكل هذه الاشياء تتكثف فى ذاته حتى لا يعود قادرا على التعبير ، فيقوى عندئذ ايمانه بالاحاسيس . صحيح ... هناك اشياء لقوتها وكثافتها لا ينفع معها الكلام . اول ما عرفها امضى زمنا فى خوف وترقب وحذر . ثم حين لثمت الفراشة اقحوانتها فى تلك القبلة وخيل اليها انها ابدية المذاق ، نبت فى صدره بستان رياحين كما تنبت فى البرارى حقول لم تزرعها يد . زاهية وحرة مثل الطيور الملونة التى تعيش فى القارات النائية . أحاسيس وتصورات يفضل ان يحتفظ بها لنفسه . كأن يخيل اليه أن هناك فى مكان ما من هذا الكون نهرا سريا ينتظر قدومهما منذ زمن وانهما لابد ذاهبان اليه ، يقضيان على ضفافه ما تبقى لهما من سنوات . ما هم ان طالت او قصرت . لم يكن هذا ليصيبه بحزن . كيف يكون حزينا من يملك يقينا مثل هذا ويدرك أن الآخر يملك اليقين ذاته ؟. وهو لا يجهد نفسه فى البحث عن المرادفات . ليس من مرادفات لما يختلج فى الصدر . لا يذكر كيف دعاها الى تلك الجزيرة . وماهى دعته اليها بدورها ، وعلى الارجح ان تواطؤا حبيا قد نما تدريجيا فى الصدر واندفاعا اقوى من الغموض دعا كلا منهما الى المضى فى سبيل الآخر . كان هو عائدا من زيارة الى لبنان وهى فى طريق عودتها من رحلة فوجدا نفسهما ذاهبين الى تلك الجزيرة . كان ذلك أواخر الصيف ورغم هذا كانت الشمس مشرقة مثل شمس بيروت والبحر فى سكونه بحيرة . كانت هناك حقبة ما غامضة ورهيبة . شوق كالتوق يعطل الذاكرة عند نقطة محيرة ، ثابتة متحركة معا . وضمهما الوجد . اخذهما الى عالم فوقى ، حررهما من اسار الكلام والاتفاق . وكانت لغة الجسد خلاصة شوق عظيم . وفى اليوم التالى افاق من نومه الهانىء فوجدها قربه ، ونظر من مكانه الى الخارج . خيل اليه انه يرى بحيرة ، والمسافة التى تفصلهما عنها نبت فيها عشب اخضر وازهار . عشب جميل يرى . وكان فى وسعه ان يرى الناس يستحمون ولاستحمامهم لغة وهمس . أمخلوقات بشرية هذه ام هى مخلوقات تشبه البشر ! لعله ما زال يحلق فى تلك المسافة المتاججة ما بين جذور الاعماق واقاصى الخيال الالهى . فى حركة

الكائنات انسياب وسلام وفيها طمأنينة . الاثير المتماوج بينه وبينهم لخفته يحمل اليه همسات الانفاس وخفيف الاجساد بالماء . ونظر الى القمر . الماء الازرق على درجة من الصفاء ... اصفى من الصفاء . الاقدام تتراءى له مثل اسماك شفافة ؛ والاجساد تتهادى كحوريات . اهذا عالم محسوس أم انه من تلك العوالم السحرية لحكايات تنبت شعابها فى الخيال ! رباه لم تتقاتل الناس ! لم لا يسعون الى هذا النعيم الذى يتراءى له ! ولما فتح عينيه ووجدها قربه ادرك ان ليس له امتداد غيرها . عيناها المطمئنتان وجسدها يقولان الشىء ذاته . ومنذ ذلك اليوم اشرقت فى خياله سماء باريس . اغتسلت من ضبابها كما اغتسلت منها زخاريف الدانتيل . وكان يستعذب الخروج فى البرد بمعطفه السميك وهى معه يذرعان الشوارع ؛ ثم يتجهان الى حديقة التويلرى . وفى كل مرة ؛ حين يضمها اليه يحس بها طفلة ويحس بها مراهقة ويحس بها امراة مكتملة النضج . ويوقن انها امتداده الطبيعى . وحين يعبر الجسد الجسد يحس انهما توأمان عاشقان . حتى انه فى ذاك الاندفاع الفامض القوى لا يعود يميز نفسه عنها . اول مرة تولاه الذعر كيف انه لا يميز الجسد عن الجسد . لكنه سرعان ما استعاد ثقته بذاته وبكيانه الموضوعى حين احس بنفسه حرا ومنطلقا اكثر من اى وقت مضى . أكان لابد الا يميز ذاته عن ذاتها فى ذاك اللقاء لكى ينال حريته ! لماذا هو معها وهى معه ؛ يتوارى الخجل والحدود تنتعل اخفا سحرية ؟. ولما حدثها بالمسألة قالت انها هى ايضا يصعب عليها التمييز فلا تعى الفوارق . وانه ربما كانت الغاية النهائية لكل شىء أن لا يعى الانسان الفوارق . وان ذلك اذا مابدا ضربا من المستحيل فانما السبب فيه يعود الى كبرياء البشر . الكبرياء هو الآفة الكبرى . هكذا كان يحملها فى ضلوعه . فى تلك الآونة قلما كان يفكر بمسائل محددة مثل العودة الى وطنه او التخلى عنه نهائيا او البقاء فى باريس او الهجرة . لم يكن يفكر بمسائل مثل هذه ليس لانه اغفلها او انه أنانى او غير ملتزم ، بل لانه حين يكون مع ميريام ، مثل اى شخص آخر معها لا يمكنه الا ان يكون خارج حدود مثل هذه . كانت باريس تتراءى له آنذاك بقعة رائعة من هذا العالم ؛ تختزن تجارب مكثفة وعظيمة لاجيال وأفراد . ابنيتها واقواسها وكنائسها وزخاريف الدانتيل ، كلها تحكى حكايات فنانين عظام قدرت لهم نعمة الايمان والحس المرهف . ونالوا بلاغة التعبير بالتجسيد . بعضهم تيسرت له الشهرة وظل البعض الآخر مغمورا . لكن ما انقص الكتمان شيئا من الايمان مثل ايمان اندريه روبليف حين دعا صديقه المراهق ، فى ذلك

الزمن الاعمى ، الى المضى فى سبيل الفن . دعوة ليست كدعوة بل كقدوة . هذا يزين بالصور وذاك يمجد بالاجراس الى ان تتبدد خيم الظلام (..)

كان هذا يتراءى له مثل حلم فلا يناقش الاشياء . وكانت ميريام صديقة جوانا منذ المدرسة ، يقال انهما فيما مضى كانتا متشابهتين ثم أخذتا تتغيران . كل واحدة منهما تسير فى الاتجاه الذى صارت اليه فيما بعد والذى يقارب صورتها الآن . الصورة التى عرفها . حيوية تواقة ومطمئنة . أصحيح انهما كانتا متشابهتين الى هذا الحد ؟ أصدقاؤهما يذكرون هذا . ولطالما نظرت الواحدة منهما فى عينى الاخرى ، فى تلك الحدقة النافذة الى خبايا الاعماق . أتفعل هذا بحثا عن شبه منسى أم أنها تشتاق لقراءة الاعماق التى يخجلها البوح ؟ لم يخجل من البوح من كان على هذا المدى من الحب ؟ كلتاهما تحب الاخرى ، وفى الحب عاطفة أمومية . تتشاركها همومها وأحلامها حتى يلتبس عليك الامر فلا تميز الام عن الطفلة . وبعد ذلك ، ساوره ذاك اليقين بأنه ليس من اليسير تقديم صورة ما واضحة ومحددة لميريام . يخالها أحيانا لوقتها مثل غيمة بيضاء تعبر سماء حياته . تمر كنسمة او كشذى نادر وأصيل ، لا تنتبه لوجوده سوى بعد مروره ، فتروح عندئذ تتقفى أثره اذ يتأكد لك انه لن يتكرر ثانية وأن خسارته هى الخسارة . وأحيانا تبدو رغم أثيريتها صلبة كحد السيف . ولطالما فكر هو بهذه القوة . من أين لميريام هذه القوة ! لا يملك مثل هذه القوة الا من يملك الصفاء فلا تلتبس عليه الامور . أو من يكن حبا نادرا فى الاعماق فلا يستسلم لمرارة او يأس . هذا الفارق ما بين رقة الاحاسيس وقوة اليقين كان فيما مضى يحيره .. ولما انكشف له السبب ، انتظمت بينه وبينها شبكة الطمأنينة . الحب هو اليقين الوحيد فى عرف ميريام وما عدا ذلك تجدها دؤوبة على الاكتشاف . تصغى بمجامع القلب وتناقش بنظرة او بسؤال بسيط يقع بالضبط فى المكان الذى تجدر الاجابة عنه . فى تلك البقعة الغامضة التى تحيرك . فما يحيرك يحيرها هى أيضا . وتدرك عندئذ أن عالمك يتداخل بعالمها . ويتحد العالمان ليشكلا هرما أساسه العدل والمساواة ، يتسع لحب العالم كله ويتسع للحزن والخسارات ولا شىء يؤذيه مثل الغش .

ولعله أخطأ حين ارتضى لنفسه بأن يفتح المفكرة . مفكرة ميريام السوداء ذات الخطوط المذهبة الرقيعة ما كان عليه أن يفتحها ! طالما أنها أخبرته بنفسها وبحرية أنها أحبت رجلا آخر ،

فلم فتحها وقرأ ما قرأ ؟ كان يكفيه ان يقرأ ذلك مرة لتنفذ الكلمات الى الاعماق . ما كان عليه أن يفعل . والغريب انه لاول وهلة لم ينفعل ولم يصدق كلامها . ربما انه كان متيقنا من انها كائنة في اعماقه حتى نهاية العمر . غريب . مع ميريام يضيع الكبرياء . كيف يضيع الكبرياء مع ميريام ؟ لا يدرى . هكذا تتبنور معها المشاعر ويسقط الالتباس . تقول ان الكون هذا يضمنا جميعا ، الا انها منذ عرفت ذاك الرجل فان توزع الاماكن فيه قد تغير ... ثم بعد ذلك حين افاق من الصدمة ادرك هول ما تقول . غريب .. وبدل ان يخاف على نفسه تملكه خوف عليها . ميريام كأنها فى زيارة الى هذا العالم . كل مخلوق فى هذه الدنيا انما وجد فيه بصورة مؤقتة ، لكن الانسان قلما يدرك هذا بالحس سوى لماما . يخال نفسه فيها خالدا . ميريام تذكرك على الدوام بهذا العبور . ربما لهذا فهى تتنقل كفراشة وتقف مثل نبتة نحيلة وصغيرة تخاف عليها أن تنكسر لكنها تنكسر . وبدت له بعد ذلك واكثر من اى وقت مضى ، كأنها تنتمى الى كوكب آخر استأذنته لتتعرف بهم وترحل . ومنذ أن صدق ذلك وهو يعيش فى حالة فقدان ... شيء ما أساسى ومريح فالعالم قد اهتز تحت قدميه . ثم تملكه خوف على نفسه . هل سيموت ؟ وخوف على أصدقائه ! هل ستغادرهم ميريام وتعود الى كوكبها ؟ تجلس على حافته مثل الأمير الصغير تغرس زهرة ، تناجيها ، تستبدلهم بها وتحكى لها الحكايات ! ميريام أحبت رجلا آخر وكان عليه أن يذعن. لقد اخطأ بالتأكيد حين ارتضى لنفسه بأن يفتح المفكرة . يدرك الآن انه دفع ثمن معرفته باهظا . لم يدفع الانسان ثمن معرفته باهظا الى هذا الحد ؟ كان يكفيه أن يقرأ ذلك مرة ليحفظه عن ظهر قلب وينقش فى حزن الذاكرة نقش كلمات فى حجر . فهى مازال تتحدث عن الأشواق واللحظة والزمن . تسوق اللغة ذاتها انما فى اتجاه آخر . تقول : لما جئته فى تلك الزيارة مد يده ليصافحنى فاستغرق ذلك زمنا . كنت انا مسافرة أو كان هو مسافرا . لا اذكر وعلى الأرجح أن كلانا قد كان فى سفر . كم من الوقت استغرق ذاك السلام ؟ وقف بمحاذاة الباب بالكاد يستند اليه ، والاشياء هكذا فى وقفته على حالة من التلاؤم .. فى انسجام . وانحنى قليلا ليسلم على ونظر تماما فى عينى وأطال النظر .. كم من الوقت اطال النظر ؟ وعيناه تبحثان عن شيء . شعلتا ضوء . عم تبحث هذه العيون ؟ اية لهفة فى هذا المآقى ! وامتدت ذراعه تصافحنى والمسافة

بيني وبينه تمتلىء بها وبطيفه وهو يكاد لا يلامس الباب . فقط يميل نحوى . يكاد .. فى كل هذا ترحيب صامت ينضح بشوق عظيم . والغرفة مقفلة ونور يتفجر فى المكان . كيف يتفجر النور هكذا فى مكان مقفل ! ورايته ينحنى كانما ليرفعنى بين ذراعيه ويطير بى . نحلق تحليق فراشتين عاشقتين . وسمعته يقول : أهلا بك . لا يشبهنى ولا أشبهه ونشبه بعضنا بعضا ... كيف يتسوق الى التكامل من كان على هذا النحو من الاختلاف ! وبدا كل شىء نقيا فى تلك اللحظة . نسيت لون ثيابه لكنى اذكر انعكاس البياض عليها. ووقفته الرهيفة وهذا الانسحاب يزيدان من نقاوة المكان . وسمعته يعاود القول أهلا . صوته هذا لا يخرج من حنجرة مثل سائر الاصوات بل ينبع من أعماق هى اعماقى . وقامته ظل أبدى ينعكس فى ثنايا الغرفة دون عناء ثم دعانى للجلوس . لا فائدة للوقت ! تلك اللحظة مداها زمن . وحدنا هو وانا فى ذاك المكان . واحس بالرعشات تحملنا الى عالم فوقى لا أدرى متى نؤول بعده الى الوعى . وحدنا بلا وساطة . فرغت الغرفة من محتوياتها لتمتلىء بنور دافىء ورحيم يعانقنا كما تعانق ذراعان جسدا معبودا . أستظل هكذا عالقين فى خاطر الزمن الى مدى الدهر ! مثل المنحوتة الخالدة تلك ... التى حين رحلت من بلاد الشمال البعيدة الى الشرق وشقت عليها العودة ، دعت الآلهة أن تحيلها تمثالا يغتسل بدفء الشرق الأبدى ؟ هكذا اغفلنا الزمن فى ذاك اللقاء . أدقائق استغرق ذاك التحليق أم ساعات ؟ ولما بلغنا ما يشبه الصحو ، كنت على حافة النسيان . هل يمكن لامراة أن تعانق طيفا من نور ! وهناك من فتحة النافذة تسربت خيوط الشمس وراحت ترتع خلفه على الجدار . كان ذلك ممتعا وفيه اثارة وشفتاه ترتعشان ، وكفه وهو يدعونى للجلوس . وخطونا نحو المقاعد خطوات اختزلنا فيها دهرا من الأشواق . وفيما كان يهبط فى مقعده بدا أشبه بأنثى . وكانت انامله تقول الشىء ذاته ، تفضح أسرار الاعماق . كفه اليمنى تحتضن اليسرى وانامله تداعب الكتف ، تحبو ببطء على الساعد النحيل وهو يتأملنى. كيف يشبه انثى من تهيأت له رجولة على هذا النحو ! ثم لما حانت منه تلك الالتفاتة صوب النافذة واشار هكذا بالأنامل وجدتنى التفت اليها بدورى . كان هناك طائر صغير يحط على القضبان . ثم لا ادرى كيف .. بعد أن رفرف هنيهة عاد وتسمر فى مكانه . توقف قبالتنا وراح ينظر الينا كانما أدرك هو الاخر كنه المسألة واصبح شاهدا عليها . انما نظراته .. كانت حزينة نظراته .

بم يكون حزينا والفرح يتفجر فى المكان ! قلت له ان الطائر يبدو حزينا وان نظراته تفصح عن هذا فاجاب انه ليبدو هكذا بالفعل . اربكنى قبوله حزن الطائر وحدسته مقدمة رحيل صوب عالم غامض ومجهول لن اكون معه فيه . وهكذا من يقين ساطع الى شك قاهر . الشملة فى العينين وهذه الوقفة وتلك الابتسامة وعبور دهر من الاشواق وكل هذا التأجج لكنه حين تكلم قال لا . ان كان غير متيقن فى الاساس فلم اسلم مشاعره ؟ تركها تتدفق من الاعماق تفضح الاسرار ! كل شىء فيه كان ينضح شوقا لكنه حين تكلم قال لا . لم يقل انه يحب امراة اخرى انما خيل الى ذلك والكلمة هى المستحيل. ابدا لن يحدث ذلك ابدا . ابدا لن يحدث . هكذا يكون الشوق تمنعا والحنين قابع فى مسافة الانتظار . اليقين استحضار تعبير فى العيون يرتع فى شعاب الذاكرة ... وحدها الذاكرة تستحضر كل هذا . وحدها الذاكرة اما الكلمة فلا . الصمت الان هو التعبير الوحيد عن الحب والانسحاب هو الاتصال به . لا احد ينتظر شيئا ولا احد يشهد . فالطائر قد ارخى جناحيه للريح ومضى .. وكدت افلت من المكان اطلق ساقى للريح ، اعدو فى شوارع المدينة الى الفلوات ابحث عن ذاك الطائر الشاهد . اصيح ملء الحنجرة بعد المدى او الصدى : يا ايها الطائر الذى رف له جنح على تلك النافذة واختزنت عيناه تعابير المآقى ، اين انت ؟ وانت اين انت ؟ لا احد يقول شيئا ولا الصدى يرجع الامانة التى تسلمها ولا الطائر سوى ساكون شاهدة على نفسى وعليه انما بالغياب . فهذا الرجل لا يسعى نحوى ولا انا ساعية بدورى اليه . وقف الواحد منا قبالة الآخر لحظة مداها دهر من الشوق ثم استدار حاملا فى فؤاده جنون الشوق والحكمة . او ليس من اشد دواعى الالم ان يكون الصمت تعبير الحب الوحيد والانسحاب ...

وهو .. منذ أن قرأ ما دونته ميريام فى مفكرتها ، ما كان عليه ان يفعل .. يحس بفقدان اساسى وخوف . ويزداد خوفه حين تحدثه بالسفر . من يعلم . لعلها ستنفذ من نقطة لا مرئية الى كوكب آخر تجلس فى الفلوات تتأمل الكون وتحكى لزهرة تغرزها حكايات عن الشوق والصمت وعن رجل احبته وعن ذاك الشاعر وعن حبيبته « أونا » من هو ؟. لا يدرى ! وهو لا يذكر متى قرأت ميريام حكاية أونا ولا يذكر موقفها من تلك الحكاية . فميريام كما يحدث لها احيانا لم تقل شيئا . غالبا ما تحدثه بفيلم راق لها أو بقصة قرأتها.

اما حكاية أونا فلم تعلق عليها بشيء . جعلتهـا سرا من الاسرار وكأنها مسألة تخصها هي وحدها . ربما لهذا لم تعلق عليها بشيء .. ولعل السبب في ما حدث ليس الرجل الذي تحدثت عنه في مفكرتها بل الحكاية ذاتها هي السبب . من يدري ... فهناك اشياء تتعلق بميريام يستحيل عليك فيها بلوغ اليقين . ليس لانها تكذب او تخترع .. لا . بل ربما لان ميريام لم تخلق للواقع . كيف لم يفطن هو الى ذلك ؟ ومن يدريه ، ربما ان الحكاية كلها رؤية مرت بها وليس واقعا . وما دونته في مفكرتها على الارجح ليس سوى استرجاع أو محض ذكرى لحكاية مرسومة خطها عاشقان في خاطر الدهر ومضيا . مرا في هذا الكون وخلفا في اثيره ذرات كيان ملتهف واحاسيس تواقة فالتقطتها ذاكرة ميريام المتصلة بكل الذاكرات ، فهي نفسها تقول كلاما مثل هذا . كل مخلوق في هذه الدنيا هو خلاصة المخلوقات كلها وذاكرته تخترق كل الذاكرات. وهو كلما ازداد شفافية ازداد اتصالا بالنفوس التي تعبر هذا الكون . الكبرياء هو الذي يصطنع التقنين . وهو ، حين كان يقول لها في لحظات العشق واللهفة انه من دواعي الحزن ان نحيا في زمن نهائي كانت تستغرب قوله . نعم .. أحيانا كان ينتابه ذاك الحزن انهما بعد زمن ، هو وهي لن يكونا .. وما كان هذا ليحزنها ابدا . كانت تستمع اليه وتتأمل آفاقا بعيدة كأنها تحلم بالسفر اليها . سفر ليس كسفر بل كرجوع أو عودة الى الأصول . ويتأكد ظنه حين تقول أكيدة ان هذا الحب سيكون مثلما كان قبلنا في كل عصر وأوان . سيأتي غيرنا أمثالنا ويحبون بعضهم بعضا . فان كانت لهم نفوس جميلة لابد وأن يعثروا على السعادة في أعماقهم واعماق الآخرين . ونحن سنكون معهم في خاطر هذا الكون الذي تتغير فيه الاشياء ولا يتبدد فيه شيء . والنهر الذي نغتسل فيه مرة ولا نغتسل فيه مرتين هو ذاته الذي سيغتسل فيه الآخرون مرة ولا يغتسلون فيه مرتين . والموت والحرب والدمار ؟ الموت ليس فناء . وهل تؤمنين بالآخرة التي يبشر بها الأنبياء ؟ لا اعلم . ليس مهما ان أؤمن بآخرة على هذا النحو أو ذاك طالما أن الموت ليس فناء . كيف يفنى من سكن في خلد الأحياء ؟ الا ترى كيف تتجدد الشجرة ؟ قال لها : انا لست شجرة . بلى أنت شجرة . كلنا اشجار نبتت في العالم مصادفة هنا أو هناك . وفكر أن يحتج ويقول لها ثانية انه ليس شجرة ، لكنه سكت ولم يقل شيئا . كان يشتهي في أعماقه بلوغ تلك الاحاسيس ، احاسيسه وهذا اليقين . فميريام تؤمن باشياء

لا يجد نفسه مندفعا فى مناقشتها . يخيل اليه احيانا انها تتوهم لكنه يعود ويتأكد له أنها غير واهمة . ولذا فهى ترى أشياء لا يراها الآخرون بصورة تلقائية. حتى اذا أشارت هى اليها بدت لهم آنذاك واضحة كعين الشمس ! وتحدثه عن الفرقة والتفرقة والفراق . وترى فيها منبع الالم . الانسان لو حل اسباب التفرقة المصطنعة يكون عندئذ قد سار اشواطا نحو جذور الحقيقة الكلية والتوحد . وفشله يصاغ بالحروب وبالتنافس والتمييز وبالخسارات الفادحة . انه الكبرياء. الكبرياء هو الذى يرسم فى هذه الرقعة الدنيا حدود الكون العظيم. والداعون الى الفناء انما يفعلون بدافع الكبرياء هذا فيخيل اليهم أن لا استمرار للكون العظيم الا بهم وأن فناءهم يعنى فناءه . وهل النجوم فى السماء اجرام لا مبالية ! هل يمكن للضوء أن يكون كفيفا ! وهل قوس قزح مجموعة الوان رماها شيطان لتلون السماء وترحل ! كل مافى الكون ذرات متصلة بعضها ببعض ومنتمية ونحن لا نعرف كيف هى منتمية . ليس لمعرفتنا اية اهمية . حسبنا ان نشعر بالانتماء .. طالما أن الأمر كذلك فمن يؤكد له أن ميريام قد احبت هذا الرجل بالفعل ، وانه ليس مجرد كيان منتم الى الكون الذى تنتمى هى أيضا اليه . ؟ وربما انها لم تقابله بل خيل اليها من يدرى ؟ لعلها كانت تمر بتيار من الكثافة الصوفية حملها الى ذاك الالتحام الذى كانت تنشده دون افصاح ، واخذها الى التوق وتلك الحكاية . حكاية الشاعر الذى أحب أونا ، ذاك الصوفى . الم تعتبر الحكاية آنذاك سرا من اسرارها قراتها ولم تعلق عليها بشىء ! ثم ان القصة اخذتهم جميعا الى عالم فريد وتحدثوا بها الا ميريام التى اكتفت بالقول ان داخل كل امراة أونا وانه فى أعماق كل رجل شاعر مثل المتصوف التى تحكى عنه القصيدة والذى دعا امراته والى ذاك الشاطىء البعيد فبنى عليها بيتا وقضى معها فيه.

العمر كله ، فى ذاك المناخ حيث الغربة ليست متاهة بل اسطورة حياة تلغى فيها المسافات فلا يعود شىء ممتنعا . يراها مثل ملاك تنسحب نحوه وينسحب نحوها فى ذاك اللقاء الذى يخطف النعاس من خلايا الجسد ويتركه على حافة اغفاءة لا تتم . امراة تنتمى اليه وينتمى اليها . عشق لا كالعشق بل كدعوة الى رحم الطبيعة . الى ذاك الحد الفاصل الذى يشبه فيه الحزن الفرح . هو ليس حزنا ، بل هى ظلالة الأشواق المتلاحمة لدرجة النسيان ورعشة الحب الذى تجاوز المدى هى التى توقع فى وهم الحزن ، اذ يشق عليه تجاوز ما هو مقتصر فى خلده على الالهى . والحزن

الظاهر اشبه بطلب الغفران عما هو متجاوز ومن الغاء المسافات وبلوغ جذوة الاعماق . أو اليقين بأن ليس من حب سوى ذاك الذى يتجدد بين اللحظة واللحظة . نعم . دعاها اليه وقد صاغ احلامه على صورة واقع مشتهى وتبيل . فلبت الدعوة . وما كان ذلك نتيجة قرار أو اختيار بل خيل اليهما انهما ينشدان معزوفة قوامها أحاسيس ومشاعر وافكار تفور فى عمق التجارب . ويتحول التعب الى حب خلاق . كلاهما يحس بأن الآخر يولد فيه من جديد . وحين يفيقان من النشوة يداخلهما ذاك الحزن بأن العالم ما فتىء يصنع الحروب والسموم والتقنين ويصنع الخسارات الفادحة .

وهو .. لما مضى ينشد الصفاء ، ما كان يدعى النبوة بل يطلب من نفسه القدوة التى يطالب بها الآخرين ، على مدى دهر من الشوق والحكمة . من هو ؟ لعله ذاك الشاعر المتصوف ، أو لعله هو نفسه ، من يدرى ؟ هو نفسه الذى حاذر أن يوقع خللا فى الكون من غبار علق بثيابه . هو نفسه ، الذى ، حين تقاعس وخشى أن يكون قد ارتكب اثم من يترك طفلا يدخل حلبة تتصارع فيها نمور شرسة ، انسحب من الماء وسار فى سبيل البحث عنها . تلك المفقودة الصغيرة التى قبل الاوان تحس بأن الحياة موحشة لولاه ولولا اخاها . وها هى الصور انتشرت على الجدران وآن الأوان لكى يفى بالنذر ويمضى .. نعم ، لم يعد هناك حيز للشك فقد لبت الاعماق النداء . سينطلق فى خلوات الارض ، يصعد شواهق الجبال ، ينزل أغوار الوديان ، يتحسس تعرجات السفوح ، يلف القرى . قرية قرية يلفها . يستوقف الناس فى الطرقات ، ينقب فى اسواق المدن العتيقة ، فى البقع فاقدة الرحمة ، فى الدروب التى لم تطأها قدم ، فى غابات الصنوبر التى نسى اصحابها مواسم قطافها ، فقد لبت الاعماق النداء والهاتف فى الصدر هتف : انى لماض انى لماض ، انى لفاعل هذا ما تبقى لى من عمر . ما هم ان طالت لحيتى وحفت قدماى وبلت ثيابى وتساقط شعرى ولفحنى لهب الصقيع ورياح الخماسين ، سأبحث عنك حتى اشيخ وابلغ من العمر ارذله . سأدلف من شقوق السنين الى جدران المدن الاثرية ، الى عيون صفار القطط الزائغة ، الى طيات الامواج ، معابر الاسماك ، أسألها ان هى رأتك . واسأل الاثير ، أيا ايها الاثير هل صادفت حنان ؟ هل لامست ذراتك خديها او علق طبيبك بخيوط جدائلها ؟ سأفعل هذا ما تبقى لى من عمر ! ما هم ان طالت جدائلك كاغصان الشجر الاسطورى ! لن تذبلى ولن تشيخى ولن يقول فنان ملهم ، كانت هناك

حنان الجميلة . ساحكي لك حكايات تنسيك آلام الفقدان ، لست
بشاعر لكني سانشدك القصائد فتعال الى ..
لن ابتدع لك ارضا اخرى
بل اعدك أن نحيا نسقا آخر
اعدك الا ادع خيوط النور تسافر
في الليل
حتى اسالها اسرار الصفاء
اسرار السلام الابدي
ابدية اسفارها في الليل والنهار .
اعدك الا اغادر المسافة ما بين الصمت
والبوح
على مدى دهر من الاعتراف والتامل .
فلنبن مملكة من اعمدة النور
من جسد الكلمات العارية
ترجعك نقية كلحظة ولادتك .
تعال نهتدي الى الينابيع المختزنة
في ارحام الحقائق
الى شلالات الطهر
الى الاماكن الاخرى .
اماكن لم تطاها نعال العساكر
لم تخطط لها اجهزة الحروب .
وعدي لك ان ننسى الحروب
الى الابد
أن لا نرقص في المقابر
ان نلبس افراح الآخرين .
تعال نسأل زنجي الادغال
كم هو رائع عرى الزنجية
نسأل راقصة الباليه
كم هو رهيف الجسد
كم هو فاتن الجسد
وكم مفتون
نسأل طيور الغابات الملونة
كم هو بهيج الارتحال
بين أشجار الحور
وعارشات لم تعرف اسماؤها
بعد .

نسألهم
هل الشفاه لغير الضحك
هل العيون لغير التأمل
هل الأنامل لغير الملامسة
هل قلبك لغير الرعشة ؟
الكون هو المعلم الأول
الكون هو المعلم الأخير
فلنسأل طيور الغابات عن أعراسها
عن أسرار أوانها
عن موسيقاها محمولة على بساط
الصدى
يصدع بها مابين الأفق
والأنف
ثم يرفعها الى مساكن
النجوم

يا حبيبة نذرت لها ما بقى من عمر ، أذكر انك ذات مرة سألتنى: لم يصنعون الاسلحة ؟.

أوليست بلاغة الاسئلة فى بساطتها ؟ ما الاسلحة سوى للدمار . للحروب التى لم تبدأ . للصراعات التى لم تجهز خرائطها . فقد رأوا الشبان مقبلين على الشطآن ، أولئك الشبان رائعو الأجساد، أشد جمالا من آلهة اليونان . أشد جمالا مما رأتهم أمهاتهم لحظة ولادتهم ، رأوهم مقبلين فاستعجلوا عقد الصفقات . كم لهم من العمر ؟ كم تبقى لهم من عمر ؟ لا هم يعرفون كم بقى لهم من عمر ولا أمهاتهم يعرفن كم بقى لهم من عمر ولا أمهاتهم يعرفن مدى العمر وحبيباتهم لا يعرفن ، لكن ارباب الاسلحة يعرفون .. يا لجمالهم أولئك الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا . أعدك بنسيان حزن ظلالهم العالق بالارض ..

ما الاسلحة سوى للدمار
ابلغ الحقائق البسيطة
وأشهى الأجوبة التلقائية

لكن صناع الاسلحة ارباب الحروب يشيرون ان هذا تفكير السذج عبث الاطفال ، أخيلة الاحلام .

لكنى أعاهدك أن تظل الأجوبة كما عرفتها تلقائية والحقائق بسيطة .

لن ابتدع لك ارضا اخرى
بل اعدك ان نحيا نسقا آخر
حرموا فيه القتل .
حرموا فيه القتل تحريم المحارم
تحريم زواج الاب بابنته والام بولدها .
وهكذا
حين ياخذ السباق مجراه
وتكتمل الدورة
ترتدى الأرض افراح من عليها .
والقمر يزهو بوجه اقحوانه
وتزهر النجوم براعم ليمون
ونستبدل درع حديد برداء حرير
نحلق ما بين جذور الاعماق واقاصى الخيال الالهى .
فتعال نؤسس شريعة فى ارض لا نملكها
نقاسمها عشاق السلام
نستاذن الطير وزهر
الاقحوان
بناء مدن ملونة
الوان قوس قزح
وتقولين :
جسر من اضواء الجنة .

كتاب الهلال القادم :

مصطفى كامل

باعث النهضة الوطنية

بقلم المؤرخ الكبير

عبدالرحمن الرافعى

يصدر : ٥ فبراير ١٩٩٠

● الهلال مجلة الثقافة المعاصرة والأصالة .. تجدد شبابها مع كل عدد جديد

● الهلال موضوعات حية متدفقة .. ومتابعات لكافة ما يحدث في الوطن العربي والعالم.

● الهلال حسّ نابض لإيقاع العصر واستشراف لآفاق المستقبل ..

● الهلال هي المجلة الثقافية الأولى في الوطن العربي ..

● الهلال مجلة تختارها الصفوة المثقفة والأجيال الجديدة

روايات الهلال تقدم :

الحيـــاة الحقيقيـــــة

(الرواية الحائزة على جائزة
الأدب النسـائى "فيمـينا")

تاليف

كليرا تشرللى

ترجمة

محمد عبدالمنعم جلال

تصدر : ١٥ فبراير سنة ١٩٩٠

رقم الايداع : ٨٨٨٣ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٤٦٤ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

رجاء نعمة

○ كاتبة وباحثة لبنانية ، تخرجت فى كلية الآداب فى الجامعة اللبنانية عام ١٩٦٨

○ تابعت دراستها فى باريس ، وحصلت على دكتوراه فى التحليل النفسى للادب عام ١٩٨٤ .

○ نشرت روايتها الأولى "طرف الخيط" عام ١٩٧٣ .

صدرت لها ايضا مجموعة قصص "الصورة فى الحلم" ١٩٧٩ ودراسة فى التحليل النفسى للادب بعنوان « صراع المقهور مع السلطة ١٩٨٦ .

○ نشرت العديد من قصص الاطفال فى المجلات العربية .

هذه الرواية

هذه رواية كتبت فى أحد الاقبية البعيدة . فى لبنان المعاصر ..

هذه رواية عن الامل . والحرب . عن الظلام والنور وحب لبنان فى هذه الرواية مدموغ فى خلايا الكلمات ونسيج المعنى . رسالة سلام تهديها المؤلفة الى الذين لم تقتلهم الحرب وايضا الى صديقاتها واصدقائها الذين عاشت معهم الاهوال .

"كانت المدن ملونة"

انشودة موت وانشودة حياة . توغلت الكاتبة فى نفوس البشر ، توغل عاشق .. وعانت مع كل من عاش حولها من القهر الاسرائيلى فى الجنوب . وتصبح تجربتها ينبوعا تنهل منه لتسجل أصدق رواية عن الحرب .. ليس فقط عن حرب لبنان .. بل عن كل الحروب فى تاريخ البشرية

كانت المدن ملونة ..

تقدمها روايات الهلال كدليل قاطع لايمانها بأهمية الرواية . قبل أن تتمتع كاتبتها بشهرة عريضة ..

أماندا

ألوان تتألق شباباً

وتقدم الجديد لجمالك

amanda

لشفتيك.. لعينيك.. لأظافرك.. لوجنتيك